عبد الرحمن الكواكبي
دراسة في فكره السياسي

د. سهيلة الريماوي

الجامعة الاردنية

ان الباحث في الاتجاهات الفكرية عند العرب بشكل عام ، او الباحث في الاتجاهات الفكرية عند العرب في القرن التاسع عشر بشكل خاص ، لابد وأن يقفا وقفة طويلة امام الاتجاه الفكري الديني ـ القومي ، الذي ظهر وانتشر مع نهايات ذلك القرن(١)، وكان بمثابة المحصلة العلمية لاطلاع المفكرين العرب المسلمين على الفكر الغربي ومزجه بالتراث العربي الاسلامي . وقد ساهم هذا التيار في رفد المنطلقات التي سعت الى تحقيقها التيارات الفكرية الدينية الاخرى ، وفي مقدمتها فكرة الجامعة الاسلامية(٢) .

ونحن لا نرى أي تناقض في هذا الامر لان المفكرين الذين ينبع تفكيرهم من قاعدة دينية وانطلاقة اسلامية ، مثل الافغاني ومحمد عبده وغيرهما ، او المفكرين السياسيين الذين ينبع تفكيرهم من قاعدة دينية وانطلاقة قومية مثل الكواكبي والنديم ورشيد رضا وغيرهم ، نرى عندهم تفاعل الاساس الديني مع المنطلق القومي ، مدركين ان الدين الاسلامي يعطي مكانة خاصة للعرب بين المسلمين .

ومن ناحية اخرى انه مهما برز الفكر على النطاق القومي لهؤلاء المفكرين المصلحين ، يبقى المنبع التشريعي الرئيسي لافكارهم في الدين الاسلامي وتشريعه ، ويجد جذوره في الحضارة العربية الاسلامية . وفي رأي هؤلاء المفكرين انه « يجب على الامة العربية ان تسعى في تقوية نفسها وجمع كلمتها وحفظ وحدتها » حسب رأي الشيخ رشيد

رضا ، ويجب : « على جميع المسلمين ان يساعدوها على ذلك لانها روح الجامعة الاسلامية التي توجهت اليها افكار عقلائهم بعد ما كاد الضغط يسحقهم سحقا»(٣).

وفي رايي ان عبد الرحمن الكواكبي ، هو خير من يمثل هذا الاتجاه الفكري ، الذي سميته الفكر الديني ـ القومي ، خاصة وان فكر الكواكبي ، الذي قدمه هدية « للناشئة » العربية الاسلامية ، قد أثر في كثير من الاتجاهات الفكرية المعاصرة التي ظهرت بعد وفاته ، كما اثر في التنظيمات القومية التيظهرت في اوائل القرن العشرين، وفي مقدمتها الجمعية العربية الفتاة السرية(٤) .

ترجمة موجزة لحياة عبد الرحمن الكواكبي(٥) :

مولده في مدينة حلب الشهباء ١٨٥٢(٦) ومثواه في القاهرة ١٩٠٢ ، فكان خط حياته امتدادا عبر المكان وعصرا عبر الزمان ، وكأنه كان يصل بحياته بين اجزاء الوطن التي قطعت اوصالهامصالحالاستعمار والاستغلالومؤامراتهما قبل ذلك التاريخوبعده. كما كان يؤكد بحياته هذه بداية عصر « الفتح الفكري » للامة العربية ويمهد لعصر « التكون » الثوري القومي العربي ، الذي يبدأ مع مطلع القرن العشرين ، وقد استقرت فيه نداءات التمرد والوحدة والتقدم والعدالة .

اما عصر الكواكبي ، فهو القرن التاسع عشر ، وهو عصر تفاعلت فيه ثلاث حركات تاريخية ضخمة ، تعد السمات الرئيسية لهذا القرن ، وهي :

١ ـ حركة اليقظة العربية الناشئة .

٢ ـ حركة الراسمالية الاوربية الصاعدة .

٣ ـ حركة محاولة اصلاح الدولة العثمانية وتقوية سيطرتها علىالبلاد العربية.

ومن تفاعل هذه الحركات الرئيسة ، بدات تظهر بوادر الوعي وحركات الاصلاح والتغيير في انحاء الوطن العربي ، كما بدات تظهر وسائل نقل ونشر ذلك الوعي وهذه الحركات ، فكثرت المدارس ، وانتشرت المطابع والصحف ، وبالتالي انتشر التعليم وازدهر ، كما نما وتطور بعد عودة طلاب البعثات العلمية التي توجهت الى اوربا(٧) ولقد ساهم كل ذلك في نقل الافكار التحررية والثورية التي سادت اوربا في القرن التاسع عشر الى بلاد الامبراطورية العثمانية ، فولد تيارات سياسية جديدة لمفكرين سياسيين ، ثوار ومصلحين ، ظهروا في ارجاء الامبراطورية وفي الوطن العربي بشكل متجدد ومتطور .

ولا يستقيم لنا تقييم اثر هاتين الحركتين الرئيستين ، حركة اليقظة الاصلية، وحركة اليقظة المتأثرة بالغرب والمواجهة له ، الا اذا وعينا في الوقت ذاته ، ان تفاعل هاتين الحركتين وتصادمهما في الوطن العربي وبين ظهراني الامة العربيــة ، يتميز عن تفاعلهما في أي مكان آخر في العالم تميزا ظاهرا ، مرده أولا : الصراع التاريخي بــين الامة العربيةو بين اوربا ، السابق لهذه المراحل والذي بلغ ذروته اثر قرون طويلة من الصراع بانحسار موجات غزو الفرنجة عن الارض العربية . ومـرده ثانيا : المكانــة الخاصة التي يتمتع بها الوطن العربي بموقعه الجغرافي الذي يشد القارتين الكبيرتين، اسيا وافريقيا ، احداهما الى الاخرى ، ويشمل جميع شواطىء المتوسط الشرقيــة والجنوبية ، فيقع بين اوربا الاستعمارية النامية ، وبين مستعمراتهــا الشاسعة في آسيا وافريقيا .

ليس غريبا والحال كذلك اذن ، أن نجد الفكر السياسي في الوطن العربي ، وهو في مرحلة اليقظة مع مطلع هذا القرن ، تجسيما لتفاعل الحركتين التاريخيتين الكبيرتين المشار اليهما ، بما كان يقوم بينهما من تفاعل وتضاد وصراع .

وفي هذه الاوضاع وما ولدته من افكار جديدة ، وما اتاحته من وسائل لانتشار هذه الافكار ، ظهر عدد من المفكرين العرب الرواد الذين كان لافكارهم ودعواتهم اثر كبير في النهضة العربية ، ومنهم من اقتصر اثره على طرح الافكار التي اسهمــت في انضاج الوعي السياسي ، ومنهم من تخطى العموميات الى الخصوصيات ، مطالبا بمقاومة الاستبداد ومصارعة الاستعباد .

واذا كانت قائمة هؤلاء المفكرين الرواد الذين ظهروا في ربوع الوطن العربي خلال القرن التاسع عشر قائمة طويلة(٨) ، فمما لا شك فيه ان المفكرين الرواد من بلاد الشام يكونون نسبة ملحوظة من اسماء هذه القائمة ، وياتي عبد الرحمن الكواكبي في مركز الصدارة منها .

مصادرنا في استقراء الفكر السياسي لدى الكواكبي :

ان المصادر التي يتجه اليها الباحث عن الفكر السياسي للكواكبي ، شأن غيره من المفكرين او المصلحين أو القادة السياسيين ، تنحصر دوما في نوعين من المصادر :

المصدر الاول **سيرته السياسية** وما تنطوي عليه من فعاليات ونشاطات ومسالك ذات دلالة على فكره السياسي سواء في اهدافه أو في اسلوبه .

والمصدر الثاني : **اثاره الكتابية** التي يتحدث فيها عن افكاره السياسية بصورة مباشرة او ضمنية . سواء أكانت هذه الاثار في صورة مؤلفات او مقالات او رسائل.

وبالنسبة للكواكبي ، نجد من تتبع سيرته انه لم يتسلم مراكز ذات مسؤولية سياسية ، ولم ينتسب الى منظمات يتطلب منا البحث في فكره السياسي ان ندرس دساتيرها او مواثيقها او نظمها ، او نتابع فعالياتها ونشاطاتها . وكل مايمكن ان تلقيه سيرته من ضوء على فكره السياسي يمكن أن يركز بصورة موجزة فيما يلي :

ثورته على الاوضاع التي كانت تتجسم في الدولة العثمانية فيعهده ووصفه اياها بالاستبداد ، واختياره الصحافة ميدانا للدعوة الى افكاره(٩) ثم التخلي عن وظيفته الادارية التي عمل بها بعد ذلك وجميع الوظائف سواء كان لها اتصال بالتجارة ، أو القضاء أو التعليم . وهكذا فضل الهجرة الى مصر ، تعبيرا عن موقف سياسي ، وطلبا لموقع يتمكن فيه ان يعبر عن هذا الفكر السياسي الذي يتركز اساسا في دعوة للاصلاح والتقدم ، ولمغالبة الاستبداد كسبيل لتحقيق هذه الدعوة ، الموجهة للعرب بصفة خاصة ، وللمسلمين والشرق بصورة عامة ، حتى انه عندما عمل في المحاماة نقلها من مهنة الدفاع عن الافراد الى الدفاع عن الامة حتى لقب بأبي الضعفاء(١٠) .

ومعنى هذا ان سيرة الكواكبي تضعه في مصاف قادة تيار الفكر السياسي الثوري في عهده ، وهو التيار الذي اسهم في صنعه خلال القرن التاسع عشر كل من الشهاب الآلوسي في العراق ،و خير الدين التونسي ومحمد بيرم ، وابن ابي الضياف في تونس. واحمد الشدياق واديب اسحق وغيرهم من بلاد الشام ولبنان ، ورفاعة الطهطاوي في مصر ، وعلي مبارك ومحمد عبده في ميدان الاصلاح ، وجمال الدين الافغاني وعبد الله نديم في ميداني الثورة والاصلاح (١١) .

غير ان الكواكبي في رأينا ، كان أول عربي — مسلم يتصدى للاستبداد « بالتحليل والدراسة الجادة »(١٢) نتيجة تفاعل المنطلق القومي عنده مع الاساس الديني الاسلامي لثقافته . لان الدين الاسلامي يعطي العرب مكانة خاصة بين المسلمين من جهة ، ومن جهة اخرى لان الاسلام دين ودنيا ايضا ، ولابد من حفظ كرامة انسانية الانسان من مظالم وفظائع الاستبداد ،و هذا ما وجد الكواكبي جذوره في الدين الاسلامي وتشريعه.

ولم يخف الكواكبي افكاره هذه في مخطوطات خاصة محفوظة ، او في مذكرات امتنع عن نشرها ، بل انه عبر عن افكاره في الوقت المناسب بكل وضوح ، وفي أوج عصر الاستبداد « الحميدي » مضحيا بمركزه ومسقط رأسه ومتوجها نحو القاهرة لنشر

افكاره على الملأ بوضوح . ولما كان لم يتقلد مراكز ذات مسؤوليات سياسية كعضوية مجلس المبعوثان ، أو مركز ولاية او وزارة ، او غيرها من المراكز ذات المسؤوليات السياسية او الفكرية (١٣) ولم ينتسب الى منظمة يلتزم بميثاقها وافكارها ، فانه من المفكرين السياسيين الذين تبقى آثارهم المكتوبة هي المصدر الرئيسي للتعرف على افكارهم السياسية والبحث عنهم .

اما الآثار التي خلفها الكواكبي ووصلت الينا فهي كتابان :

١ ــ طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد .

٢ ــ ام القرى(١٤) .

اما كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، فهو يقع في ١٣٦ صفحة من الحجم المتوسط(١٥) ويحتوي على : المقدمة للمؤلف ، ثم على مقدمة الكتاب ، وسبعة فصول تدور في جوهرها حول مفهوم « الاستبداد » وتأخذ العناوين التالية : الاستبداد والدين ، الاستبداد والعلم ، الاستبداد والمجد ، الاستبداد والمال ، الاستبداد والاخلاق ، الاستبداد والتربية ، الاستبداد والترقي ، الاستبداد والتخلص منه .

وقد صدرها المؤلف بقوله : هي كلمات حق وصيحة في واد ان ذهبت اليوم مع الريح ، لقد تذهب غدا بالاوتاد ...

نشر الكواكبي افكاره هذه في صحيفة المؤيد المصرية لاول مرة على شكل سلسلة مقالات ، تحت العناوين التي اشرت اليها سابقا ، ثم اضاف اليها بعض الزيادات وحولها الى كتاب .

اما كتاب ام القرى ، فهو « ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦هـ »(١٦) وتدور حول ظاهرة الضعف او « الفتور العام » الشامل الذي يعم المسلمين وديارهم . وقد توصل الكواكبي الى اسباب الفتور من الحوار السياسي الذي ورد على لسان ممثلي الاقطار العربية والاسلامية في« جمعية أم القرى » التي تخيلها المؤلف .

يقع الكتاب في ٢١٧ صفحة من الحجم المتوسط عدا الفهرست(١٧)، ويحتوي على مقدمة المؤلف ، ومقدمة الكتاب ، ثم اجتماعات الجمعية . وفي الاجتماع الثاني عشر « أمر الرئيس بقراءة القانون العام لجمعية تعليم الموحدين » .

لقد نشر الكواكبي كتاب « طبائع الاستبداد » قبل كتاب « أم القرى » ، ولكن يرجح البعض « ان يكون تامل الكواكبي في الطبائع » ، وصياغته له قد جاء بعد تأليف « أم القرى » ، الذي يشير فيه الى الاستبداد « باعتباره علة العلل التي تسبب الانحطاط »(١٨) .

وفي رأينا ان كتابي الكواكبي يكونان في الواقع تعبيرا متكاملا عن فكر سياسي متماسك المقدمات والنتائج ، فلا يحسن تحليل افكاره في كل منهما بمعزل عن الآخر، ومن الاجدى ان يحلل الفكر السياسي لدى الكواكبي كما يبدو في الكتابين كوحدة واحدة . ويشير رشيد رضا الى العلاقة بين الكتابين بان سجل أم القرى يتطرق الى الاصلاح الديني والاجتماعي ، وكتاب طبائع الاستبداد يتطرق الى الاصلاح السياسي(١٨) . كما اشار انور الجندي الى ان فلسفة الكواكبي تكتمل في كتابيه معا(١٩) . أما الاستاذ احمد امين فقد فطن الى هذه الصلة فقال في معرض حديثه عن الكواكبي « نشر نتيجة دراسته في مقالات كتبت في المجلات والجرائد ، ثم جمعت في كتابين : اسم احدهما طبائع الاستبداد والآخر أم القرى ، الاول : في نقد الحكومات الاسلامية ، والثاني اغلبه في نقد الشعوب الاسلامية »(٢٠) .

ولكن الاستاذ احمد أمين على الرغم من ادراكه للصلة بين الكتابين فانه قصر تقصيرا واضحا في ادراك حقيقة هذه الصلة ، بل في تقييم مضمون الكتابين من حيث اعتبره في اساسه « نقدا للحكومات الاسلامية في الكتاب الاول ، ونقدا للشعوب الاسلامية في الكتاب الثاني » في حين ان مضمون الكتابين اعمق من ذلك واشمل ، والصلة بين مضمونيهما أوسع مما صورها الاستاذ احمد أمين .

ان الصلة الحقيقية بين مضمون كل من الكتابين هي في الواقع الصلة بين **النظرية** من جهة ، وبين **التطبيق** من جهة اخرى ، او الصلة بين المنطلقات العقائدية والمبادىء العامة من جهة ، وبين تحديد الاهداف وتشخيص التناقض بين ما هو قائم الى ما يجب ان يقوم ، وتحديد الوسائل لتغير هذا القائم الى ما يجب ان يقوم من جهة اخرى .

ان كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد في جوهره بحث نظري : عقائدي ـ اجتماعي ـ سياسي، في حين ان كتاب ام القرى بحث يرتكز الى الافكار العقائدية ـ الاجتماعية ـ السياسية الواردة في طبائع الاستبداد ، يحلل وضع العرب والمسلمين بالنسبة اليها ، فيشخص الداء ويرسم الدواء كهدف وكأسلوب ، كما نبين في دراستنا للكتابين .

ولذلك فانني ارجح كتابة كتاب طبائع الاستبداد ، قبل كتاب ام القرى . وعلى العموم فانه من المفيد ، بل من الضروري في رأيي ، ان نحلل نهج الكواكبي في البحث والتحليل ، وفي طرح المسائل ومناقشتها والتوصل الى بعض النتائج حيالها ، قبل ان نباشر بتحليل مضمون الكتابين ، واستخلاص افكار الكواكبي السياسية التي ينطويان عليها ، فبيان هذا النهج ذو قيمة في تقييم الكواكبي كمفكر سياسي ، وفي تقييم افكاره ذاتها .

منهاج الكواكبي في البحث والتحليل :

ان نهج الكواكبي في البحث والمناقشة والتحليل ، كما يبدو في كتابيه « طبائع الاستبداد » و « ام القرى » **نهج تحليلي مقارن** : تتوفر له مقومات البحث المنطقي الذي يصل الى النتائج من مقدماتها ، كما تتوفر له بعض عناصر البحث العلمي ، الذي ينطلق من تحديد المواقف العقائدية والعامة ليخلص منها بالتطبيق الى المواقف المحددة والخاصة .

واذا كان اسلوب الكواكبي في كتاب طبائع الاستبداد هو اسلوب الاستنتاج ، فانه في كتاب ام القرى هو اسلوب الحوار ، او الجدل . واستعمال الكواكبي لاسلوب الحوار في كتابه الثاني ، يجعله جديرا بان يسجل له فضل السبق في استعمال هذا الاسلوب بين المفكرين في هذا القرن (أي القرن التاسع عشر) لانه اسلوب يتيح عرض المسائل ومناقشتها بصورة لا تتحقق بالاسلوب الانشائي ـ الذي يشير اليه الدكتور سامي الدهان(٢١) مهما كان هذا الاسلوب « الانشائي» محللا او منطقيا .

لذلك فاننا نلمح معالم هذه السمات في نهج الكواكبي عندما نقرأ مقدمة طبائع الاستبداد فنجدها الى حد بعيد تخطيطا لبحثه ، يبتدىء بعلم السياسة ، فموضوع الاستبداد كموضوع من مواضيع علم السياسة ، فتحديد مضمون عبارة الاستبداد ، فبيان ابعاد هذه المسألة كما سيبحثها في كتابه .

كذلك فاننا نجد في كل فصل من الفصول التي تعالج بعدا من أبعاد هذه المسألة، ان البحث يبتدىء بتعريف للمصطلحات ، ومن ثم يسير في نقاش يلتزم بهذا التعريف، فاذا وصلنا نهاية الكتاب وجدنا الكواكبي في وعي المفكر المسؤول يحدد خمسة عشر بحثا يعتبرها : « رؤوس مسائل بعض المباحث التي تتعلق بها الحياة السياسية »(٢٢) فيحددها ، ثم يبين الاسئلة التي ينطوي عليها كل مبحث منها بصورة علمية واضحة ، ويقول :

« هذه خمسة وعشرون مبحثا كل منها يحتاج الى تدقيق عميق ، وتفصيل طويل ، وتطبيق عن الاحوال والمقتضيات الخصوصية ، وقد ذكرت هذه المباحث تذكرة لاولي الالباب وتنشيطا للنجباء ، على الخوض فيها بالترتيب اتباعا لحكمة اتيان البيوت من ابوابها »(٢٣) أما هذه المباحث فهي :

١ ـ مبحث ما هي الامة اي الشعب
٢ ـ مبحث ما هي الحكومة
٣ ـ مبحث ما هي الحقوق العمومية .
٤ ـ مبحث التساوي في الحقوق .
٥ ـ مبحث الحقوق الشخصية
٦ ـ مبحث نوعية الحكومة
٧ ـ مبحث ما هي وظائف الحكومة
٨ ـ مبحث حقوق الحاكمية
٩ ـ مبحث طاعة الامة للحكومة
١٠ـ مبحث توزيع التكليفات
١١ـ مبحث اعداد المنعة
١٢ـ مبحث المراقبة على الحكومة
١٣ـ مبحث حفظ الامن العام
١٤ـ مبحث حفظ السلطة في القانون
١٥ـ مبحث تامين العدالة القضائية
١٦ـ مبحث حفظ الدين والاداب
١٧ـ مبحث تعيين الاعمال بقوانين
١٨ـ مبحث كيف توضع القوانين
١٩ـ مبحث ما هو القانون وقوته
٢٠ـ مبحث توزيع الاعمال والوظائف
٢١ـ مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية و التعليم
٢٢ـ مبحث الترقي في العلوم والمعارف
٢٣ـ مبحث التوسيع في الزراعة والصنائع والتجارة

٢٤ــ مبحث السعي في العمران
٢٥ــ مبحث السعي في رفع الاستبداد(٢٤) .

ويكفي ان نقف امامها في ترتيبها وفي الاسئلة التي تكون كل مبحث منها لندرك مدى استيعاب الكواكبي للقضية « السياسة » في اسسها وفروعها ، ومدى العلمية والمنطقية في ترتيبها وتحديد أبعادها .
ونلمح معالم النهج المشار اليه كذلك في كتاب « ام القرى » .. حيث نلاحظ هذه المعالم :

اولا : عندما نجد الكواكبي يصنف محاور النشاط الفكري في عصره في اربعة مقاصد رئيسية هي :

المقصد الاول : بيان الحالة الحاضرة ، ووصف اعراضها بوجه عام وصفا بديعا يغير التأثر ويدعو الى التدبر ، على ان ذلك لا يلبث الا عشية أو ضحاها .

والمقصد الثاني : بيان ان سبب الخلل النازل هو الجهل الشامل ، بيان اجمال وتلميح ، مع ان المقام يقتضي عدم الاحتشام من التفصيل والتشريح .

والمقصد الثالث : انذار الامة بسوء العاقبة المحدقة بها ، انذارا هائلا تطير منه النفوس مع ان الحال الواقع لا تغني فيه النذر .

والمقصد الرابع : توجيه اللوم والتبعة على الامراء والعلماء والكافة لتقاعدهم عن استعمال قوة الاتفاق على النهضة ، مع ان الاتفاق وهم متشاكسون متعذر لا متعسر(٢٥) .

ونلمح هذه المعالم :

ثانيا : عندما نجده ينعي على المفكرين في عصره اسلوب النقاش اللفظي غير المجدي ويحدد الاسلوب المفيد « بتشخيص المرض أو (الامراض المشتركة) عن طريق مدقق سياسي » فهذه المقاصد القولية قد استوفت حقها من انواع بدائع الاساليب ، وآن الأوان لاستثمارها ، ثم يحدد الكواكبي سير العمل على الشكل التالي : « بالبحث أولا عن مراكز المرض ، ثم عن جراثيمه ، ليتعين بعد ذلك الدواء الشافي الاسهل وجودا والأضمن نتيجة ، وبالتنقيب ثانيا عن تدبير ادخاله في جسم الامة بحكمة تصرع العناد والوهم ، وتتغلب على مقاومة اعضاء الذوق والشم »(٢٦) .

مضمون الفكر السياسي لدى الكواكبي :

في ضوء ما تقدم ، يمكننا ان نصنف افكار الكواكبي السياسية على الصورة التالية :

اولا : **افكاره السياسية العقائدية** التي تكون نظرته الاساسية للانسان والمجتمع والحياة وحركة التاريخ .. من حيث كون هذه الافكار العقائدية الاساسية تتفاعل مع الاحداث والوقائع ليكون من نتيجة هذا التفاعل افكاره السياسية المباشرة .

ثانيا :**افكاره السياسية المباشرة** التي تعبر عن موقفه من المسائل الرئيسية التي تكون مدار الفكر السياسي بصورة عامة وهي :

ا ــ **علاقة الفرد بالدولة** في جميع ابعادها : بما ينطوي عليه هذا من راي او موقف في مسائل : **رأس الدولة** ، وصلاحياته ، وحقوقه ، وواجباته، واسلوب ممارسة هذه الصلاحيات ، **ثم اجهزة الدولة** ، وبصفة خاصة الحكومة في طريقة تكوينها وصلاحيتها ومسلكها ومراقبتها ومحاسبتها ، ثم **الفرد** في حقوقه وواجباته وطريقة ممارسته لهذه الحقوق وادائه لهذه الواجبات .

ب ــ **علاقات الامم او الشعوب مع بعضها ، ومع الدولة** عندما تكون الدولة امبراطورية واحدة تضم اكثر من امة او شعب كالامبراطورية العثمانية .

افكار الكواكبي السياسية العقائدية :

يمكننا ان نجمل الموقف لدى الكواكبي بالقول :

ان الكواكبي مفكر عقائدي ، افكاره تجاه الانسان والمجتمع وحركة التاريخ هي: افكار دينية (اسلامية) ــ قومية (عربية) ــ انسانية ، متفاعلة بالعلم والافكار العلمية على صورة لا يقوم معها التصادم بين الايمان والمبادىء والقيم الدينية من جهة ، وبين النظريات والحقائق والمناهج العلمية من جهة اخرى .

وتفصيل هذا الوصف الموجز لموقف الكواكبي ، العقائدي، يستقى بصورة مباشرة احيانا ، ويستنتج احيانا اخرى من كتابيه موضوع دراستنا .

ففي كل باب من الابواب التي تحدث فيها الكواكبي عن الاستبداد ، في كتابه طبائع

الاستبداد ، وفي المناقشات التي تكون مضمون الاجتماعات الاول والثاني والثالث والرابع من اجتماعات الجمعية التي تخيلها الكواكبي في كتابه ام القرى(٢٧) ، بل في مقدمتي كل من الكتابين ، نجد الكواكبي باسلوب التقرير احيانا ، وباسلوب الحوار احيانا اخرى ، يؤكد منطلقات عقائدية اساسية ، ذات تأثير حاسم على افكاره السياسية ».

فعلى الصعيد العقائدي :

اولا : الكواكبي **مؤمن مسلم**(٢٨) :

يؤكد الكواكبي ان المبادىء والقيم التي يبني عليها افكاره السياسية راسخة في الايمان الديني الصافي والواعي ، وراسخة كذلك بصفة خاصة في الاسلام .

على ان هذا الوصف لموقفه ، الديني (الاسلامي) ، لا يحقق ادراكا لمضمونه الثوري وتقييما لنتائجه الشاملة اذا فهم تقليديا جامدا . فقد كان الكواكبي في مستوى من الثورية عال وعميق ، عندما تجرأ فقال على لسان **الصاحب الهندي** : « اني كنت ايضا اظن انه يوجد في البشر افراد ممن لا دين لهم ، وان من كانوا كذلك لاخلاق لهم ، ثم ان خبرتي الطويلة قد برهنت لي ان الدين بمعناه العام وهو ادراك النفس وجود قوة غالبة تتصرف في الكائنات ، والخضوع لهذه القوة على وجه يقوم في الفكر ، هو أمر فطري في البشر، وان قولهم فلان دهري أو طبيعي صفة لمن يتوهم أن تلك القوة هي الدهر أو الطبيعة فيدين لما يتوهم » . وبعد هذا العرض يصل الكواكبي الى النتيجة التالية : بناء على ذلك ثبت عندي ما يقرره الاخلاقيون : من انه لا يصح وصف صنف من الناس بلا دين لهم مطلقا بل « كل انسان يدين بدين » وامام هذه البديهة ، يبدأ بتوضيح هذا الدين بقوله : اما صحيح أو فاسد عن اصل صحيح ،واما باطل او فاسد عن أصل باطل ، والفاسد أن يكون فساده اما بنقصان أو بزيادة أو بتخليط وهذه أقسام ثمانية(٢٩) .

ثم عندما يشرح ما سماه : « الضلال والهداية » على لسان **العالم النجدي** مبينا: ان النوع الانساني مفطور على الشعور بوجود قوة غالبة عاقلة ، لا تتكيف ، تتصرف في الكائنات على نواميس منتظمة، فالعامة يعبرون عن هذه القوة بلفظ **الطبيعة** ، والراشدون من الناس مهتدون ان لهذه القوة من هو قائم بها ، يعبرون عنه بلفظ **الله** ، ثم يبين ان هذا الشعور ليس واحدا بل يختلف قوة وضعفا ، حسب ضعف النفس وقوتها ، ويختلف الناس في تصور وتوصيف ماهية هذه القوة حسب مراتب الادراك فيهم ، او حسبما يصادفهم من التلقي عن غيرهم وذلك هو : « الضلال والهداية »(٣٠) .

لقد كان الكواكبي بهذا المفهوم الواسع للدين يقيم اساسا لافكاره السياسية الثورية ، يدعمه تدعيما بينا عندما يتحدث عن الدين و الاستبداد ، وعن الدين والعلم بصفة خاصة في طبائع الاستبداد فيؤكد : ان التوحيد كجوهر للدين انما يتركز أساسا في رفض الخضوع الا لله ، ويؤكد كذلك تساوي الناس امام الله ، ويؤكد : ان الدين دعوة للعلم وتكريم للعلماء ، وهمادعوة وتكريم بمجدان العقل والبحث القائم على العقل والمشاهدة (٣١) ..

ومعنى هذا ان المنطلق الديني كمنطلق عقائدي اساسي لدى الكواكبي من حيث كونه مفكرا سياسيا هو **منطلق ثوري** يرفض كل اتجاه يحاول ان يجعل من الدين، ركيزة او اساسا للاستبداد او الاستغلال .

فاذا حاولنا بعد ذلك ان نتبين جوهر **الاسلام** واركان **الاسلامية** لدى الكواكبي، فاننا نجد موقفا يتميز بثورية جريئة وصريحة . فهو لا يتورع من القول على لسان **العالم النجدي** مايلي : .. « فهل بقي من شك بعد هذه الابحاث من القول على لسان جمعيتنا ، ولا سيما ما بينه المحقق المدني ، في ان الدين الموجود الان بالنظر الى ماندين به لا بالنظر الى ما نقرره ، وباعتبار ما نفعله لا باعتبار ما نقوله ، ليس هو الدين الذي تميز به اسلافنا مئين من السنين على العالمين ، كلا بل طرات على الدين طوارىء غيرت نظامه »(٣٢) .

وهكذا نجد الكواكبي لا يتردد في أن يقول للمسلمين في عصره صراحة لا ضمنا: ليس الاسلام دينكم الموجود الآن ، وانما الاسلام شيء آخر ..

فاذا حاولنا ان نتبين **هذا الاسلام الآخر** ، هذا الاسلام النقي(٣٣) الذي يكون بجوهره التوحيدي وبقيمه الانسانية وبنظامه السياسي مضمون الدين الاسلامي كما يراه الكواكبي ، تبرز امامنا الدعامات التالية :

الدعامة الاولى ، **تاكيد شامل وقاطع للمدلول التحرري الانساني** ، الذي تتضمنه عبارة التوحيد لا اله الا الله ، ولماذا كانت أفضل الذكر ، ولماذا بني الاسلام بل وكافة الاديان على : « لا اله الا الله » ، ومعنى ذلك انه لا يعبد حقا سواه ، أي سوى الصانع الاعظم ، ومعنى العبادة التذلل والخضوع ، فيكون معنى لا اله الا الله : « لا يستحق التذلل والخضوع شيء غير الله » ويتساءل الكواكبي « فهل والحالة هذه يناسب المستبدين ان يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه ..؟ ويجيب الكواكبي مؤكدا : « كلا ثم كلا » (٣٤) .

الدعامة الثانيـــة ، **رفض حاسـم لمبدأ الجبرية** ، وما يترتـب عليـه مـن استسلام للتأخر او الاستبداد اذ يعزوه « للقدر » وهو موقف يحمل بـه الكواكبي **الانسان والمجتمع** مسؤوليات « اوضاعهم » وواجبات « مواجهة » هذه الاوضـاع في رفض صريح لالقاء تبعة ما يعانوه من استبداد او استغلال على الاقدار او على الاغيار . فيقول في مقدمة طبائع الاستبداد . . . « انما اردت بذلك تنبيه الغافلين بمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون انهم المتسببون لما هم فيه ، فلا يعتبون على الاغياروﻻ على الاقدار ، وعسى الذين فيهم رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات »(٣٥) ولعل الكواكبي كان يقرأ مستقبل العرب ، مما يدلنا على بعد نظره وقوة ملاحظته ،ثم يقول على لسان الفاضل الشامي : « اني ارى ان منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والاخلاقية ، مثل العقيدة الجبرية التي من بعد كل تعديل فيها جعلت الامة جبرية باطنا قدرية ظاهرا »(٣٦) .

الدعامة الثالثة ، **مهاجمة مفهوم « الزهد »** مهاجمة قاسية ، واعطاء عبارة الزهد مفهوما ثوريا تقدميا يعتبر من ابرز ما جاء به الكواكبي ، من حيث جعـل من الزهـد موقفا اشتراكيا ، فيقول على لسان الفاضل الشامي ايضا في وصف اسـباب الفتور والتأخر لدى المسلمين : « ومثل الحث على الزهد في الدنيـا ، والقناعة باليسـير ، والكفاف من الرزق، واماتة المطالب النفسية : كحب المجد ، والرياسة ، والتباعد عن الزينة والمفاخر ،والاقدام على عظائم الامور ، ويصل الكواكبي الىهذه النتيجة قائلاً: « وكفى بهذه الاصول مفترات مخدرات مثبطات معطلات ، لا يرتضيها عقل ولم يأت بها شرع ، ولمثلها نفى عمر بن الخطـاب رضي الله عنه ابـا ذر الغفاري ، وهكـذا : « يعيش المسلم كميت قبل ان يموت »(٣٧) .

اننا نجد الكواكبي بعد هذا التجريح للمفهوم اللاحياتي للزهد ، يقدم على لسان البليغ القدسي المفهوم الاجتماعي ـ الاشتراكي للزهد ، فيقول : اذا تتبعنا كل ماورد في الاسلامية حاثا على الزهد ، نجده موجها الى الترغيب بالاثرة العامة ، اي بتحويل المسلم ثمرة سعيه للمنفعة العمومية دون خصوص نفسه ، حتى ان كل ما ورد فيالحث على الجهاد في سبيل الله مراد به سعي المؤمن بكل الوسائل ، حتى يبذل حياته **لاعزاز كلمة الله واقامة دينه** ، لا في خصوصية محاربة الكفار كما تتوهم العامة ، كما انالمراد من محاربة الكفار هي من جهة اعزاز الجامعة الاسلاميـة ، ومن جهة اخرى خدمـة الجامعة الانسانية من حيث الجاء الكفار الى مشاركة المسلمين في سعادة الداريـن، لان للامم المترقية علما ولاية طبيعية على الامم المنحطة ، فيجب عليها انسانية انتهديها الى الخير ولو كرها باسم الدين او السياسة(٣٨) .

وغني عن البيان ، ان مثل هذا المفهوم للزهد ، الذي يدعو له الاسلام مفهوم دافع للتقدم المادي والمعنوي ، ولكنه التقدم الاجتماعي الذي يصب افراد الامة جميعهم باخلاقية لخير كل منهم لغيره او للمجتمع على نفسه ، وهي دعوة بهدفها واخلاقيتها ثورية ـ اشتراكية ، تتناقض على خط مستقيم مع دعوة الزهد التي يستغلها في اغلب الاحيان المستغلون والمتسلطون غير الزاهدين فعلا لكي يؤكدوا في نفوس المستغلين من قوى الشعب معاني القناعة بالتخلف والبؤس تحت شعار الزهد .

الدعامة الرابعة ، **تفسير الآية القرآنية** « واطيعوا الله ، واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » **تفسيرا تحرريا ثوريا** ، وكذلك تفسير آية الجهاد « وجاهدوا في سبيل الله » **تفسيرا عقائديا انسانيا** ، حيث يقول على لسان المرشد الفاسي :

« على أن انحصار همة الدخلاء في الجباية والجندية ادى بهم لاهمال الدين كليا ، ولو أن في القرآن آيتين اثنتين لهجروه ظهريا ، احداهما قوله تعالى : واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ، مع الغفلة عن المراد باولي الامر ، وما تقتضيه صيغة الجمع ، وما يقتضيه قيد **منكم** ، والثانية قوله تعالى : وجاهدوا في سبيل الله ، مع اغفال : هل الجهاد المأمور به ما يستحصل به اعزاز كلمة الله ، ام ما تؤيد به سلطة الامراء العاملين على الاطلاق » (٣٩) .

وتفسير الكواكبي للآيتين الكريمتين على هذا النحو ، يضرب بصورة حادة وعميقة في مفاهيم شاسعة تستند الى الآيتين في حماية نظم حكم المستبدين المستغلين وتأييد سلطانهم .

وواضح في غير عناء ان الكواكبي بتركيزه الخاص على هاتين الآيتين المهمتين من الزاوية السياسية ، سواء بالتساؤل الذي يطرحه او باشارته الى ان اولي الامر منكم اي ليسوا اجانب عنكم او من غيركم انه بذلك انما يوجب دينيا عدم الطاعة الا عندما يتولى الامر **اولو امر** منكم ، اي عندما يتولاه **مجموعة** لا فردا ، شورى لا انفرادا ، لا تسلطا واستعمارا . وانه فوق ذلك يابى على المؤمن الجهاد حيث يكون الجهاد تدعيما لسلطان حاكم ، الا اذا كان الحاكم وسلطانه وتدعيمهما انما هو في سبيل الله ، اي في سبيل المبادىء والقيم الاساسية التي يأمر بها الله .

الدعامة الخامسة ، **مهاجمة فكرة رجال الدين كطبقة خاصة** ، ومهاجمة «العلماء» و « المتعممين » والمنافقين والانتهازيين في عصره . فقد انكر الكواكبي ، « تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين الذين استولوا على

الدين فضيعوه وضيعوا أهله » . كما بين ان الولاء في الدين الاسلامي لعامة المسلمين « فلا يختص بحفظ الرابطة والسيطرة على الشؤون العمومية رؤوساء دين سوى الامام ان وجد » فالكواكبي واضح في انكار كل اتجاه يزعم ان الاسلام يقيم طبقة خاصة من رجال الدين وسيطة بين الانسان وربه ، ويقول على لسان المولى الرومي: .. « وعندي ان داءنا الدفين دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين وبعبارة اخرى تحت ولاية الجهلة المتعممين ، وهم المقربون من الامراء على انهم علماء ارتبط القضاء والامضاء بهم ، فان هؤلاء المتعممين في البلاد العثمانية كانوا اتخذوا لانفسهم قانونا سموه طريق العلماء ، وجعلوا فيه من الاصول ما أنتج منذ قرنين الى الآن أن يصير العلم منحة رسمية تعطى للجهال حتى للأميين »(٤٠) .

وهكذا نرى ان الكواكبي كان قاسيا قسوة مبررة في هجومه على معممين وعلماء لم يقصروا عن اداء واجبهم الايجابي كما يحدده الدين بالنسبة لكل من اوتي العلم ، وانما لانهم تحولوا بالنفاق والانتهاز الى أدوات تتبادل مع الفئات الحاكمة المنافع والقاب التعظيم وتشترك معهم في فرض اوضاع على الشعب باسم الدين ، والدين في حقيقته منها براء(٤١) .

الدعامة السادسة ، عن **المذاهب المتعددة في الاسلام** ورفض الخضوع للخلافات المتجسمة فيها ، وللصراعات الكلامية والفعلية النابعة عنها .

وقد رفض الكواكبي فكرة اغلاق باب الاجتهاد تأكيدا لقدرة المسلمين الواعين المخلصين على استنباط السياسات والمسالك والعلاقات التي توافق احوالهم وعصورهم ، وتنبع من جوهر الدين كما يعبر عنه في الكتاب والسنة بصفة خاصة . فيقول على لسان الرئيس الاستاذ المكي : « ثم يا أيها الاخوان اظنكم كذلك تستصوبون ان نترك جانبا اختلاف المذاهب التي نحن متبعوها تقليدا ، فلا نعرف مآخذ كثير من احكامها ، وان نعتمد ما نعلم من صريح الكتاب وصحيح السنة وثابت الاجماع ، وذلك كي لانتفرق في الآراء وليكون ما نقرره مقبولا عند جميع اهل القبلة ، اذ أن مذهب السلف هو الاصل الذي لا يرد ولا تستنكف الامة ان ترجع اليه وتجتمع عليه في بعض امهات المسائل ، لان في ذلك التساوي بين المذاهب ، فلا يثقل على احد نبذ تقليد احد الائمة في مسألة تخالف المتبادر من نص الكتاب العزيز او تباين صريح السنة الثابتة في مدونات الصدر الاول » .

ويدعو الكواكبي ، على لسان الاستاذ المكي ، الى ترك النقول المتخالفة خصوصا منها المتعلق بالبعض القليل من الاصول « ونجتمع على الرجوع الى ما نفهمه من

النصوص ، او ما يتحقق عندنا حسب طاقتنا انه جرى عليه السلف ، وبذلك تتحد وجهتنا ويتسنى لنا الاتفاق على تقرير ما نقرره ، ويقوى الامل في قبول الامة منا ما ندعوها اليه »(٤٢) .

بذلك المنطق الاساسي الواسع في تعريف الدين ، وبهذه الدعامات الثورية في تحديد مضامين الدين الاسلامي واركانه ، تحديدا ذا اثر كبير على الافكار السياسية المباشرة ، يبدو لنا معنى القول ان الكواكبي في منطلقه العقائدي الاساسي كان يقوم على اساس ديني (اسلامي) . ولعل هذه الصورة للمنطلق الديني الاسلامي لديه ، تستكمل ملامحها بصورة اوضح عندما نعي ان الكواكبي يجد في الدين بهذا المفهوم ضرورة انسانية اجتماعية تاريخية ، شديدة الصلة بطبيعة الانسان من حيث كونها طبيعة تتنازعها نوازع الخير والشر في وقت واحد ، فيكون الدين بصورة عامة ، والدين الاسلامي بصورة خاصة ضرورة تحمي نوازع الخير وترجحها على نوازع الشر في الانسان ..

ويقدم لنا الكواكبي وصفا للناموس الطبيعي في البشر « هو ناموس وحشي لا خير فيه »، لان مبانيه هي تنازع البقاء ، وحفظ النوع ، والتزاحم على الاسهل ، والاعتماد على القوة ، وطلب الغايات وحب الرئاسة ، وحرص الادخار ، ومجاراة الظروف ، وعدم الثبات على حال ، الى غير ذلك ، ويصفها بانها قواعد شر ومجالب ضر ، لا يلطفها غير ناموس شريف واحد ، مودع في فطرة الانسان ، وهو : « اذعانه الفكري للقوة الغالبة اي معرفة الله بالالهام الفطري ، الذي هو الهام النفس رشدها ، والهامها فجورها وتقواها ..

ولا ريب في ان لهذه الفطرة الدينية في الانسان علاقة عظمى بشؤون حياته لانها اقوى وافضل وازع يعدل سائر نواحيه المضرة ويخفف مرارة الحياة التي لا يسلم منها ابن انثى وذلك بما يؤمله المؤمن من المجازاة والمكافأة والانتقام منه وله(٤٣)..

ثانيا ـ الكواكبي قومي عربي .

ان موقف الكواكبي النظري والسياسي واضح ، في انه الى جانب منطلقه العقائدي الاول كمؤمن مسلم ، فهو تجاه مسألة المجتمع الانساني في هيئته وحدوده ومقوماته ، قد واجه المسألة القومية وادركها ، وهو كذلك قد ادرك ارتباط القومية بالحقوق السياسية القومية ، اي بالدولة بصورة لا تقيم تناقضا بينا بين المنطلقين الديني الانساني ، والقومي الاجتماعي .

ان استيعاب افكار الكواكبي كما تبدو صراحة أو ضمنا في كتابيه موضوع بحثنا تجاه هذه المسألة يوضح انه استعمل ثلاث عبارات للدلالة على ثلاثة مضامين محددة تكشف عن موقفه من هذه المسائل . وهذه العبارات هي : الامة ، القوم ، الامة ـ الشعب .

اما الامة فيستعملها الكواكبي عبر كتاباته للدلالة على مجموعة من البشر يدينون بدين واحد ، بقطع النظر عن قوميتهم ، وبقطع النظر حتى عن كونهم يشكلون دولة واحدة او لا يشكلون . لذلك فانه يتحدث باستمرار عن الامة الاسلامية التي يعني بها المسلمين على اختلاف قومياتهم .

ولكن الكواكبي وهو يتحدث عن امة المسلمين ، وشؤون المسلمين ، يحاول ان يشخص ويعالج أسباب الفتور القائمة فيما بينهم ، مدركا بجلاء انهم يتألفون من **اقوام**، بل انه فوق ذلك معني عناية واضحة متميزة **بقومية العرب** ، وهي عناية تبدو في تأكيده لخصائصهم القومية المميزة كما يراها ، وتأكيده لدورهم القومي المتميز في حركة النهوض بالاسلام وبالامة الاسلامية ، حتى انه بالنتيجة ينتهي الى نتائج سياسية حاسمة :

النتيجة الاولى : ان تحقيق النهضة الدينية ذاتها لابد وان يعتمد على العرب وقيادتهم(٤٤) .« وحيث كانت الجمعية لا يعنيها غير امر النهضة الدينية ، بناء عليه رات الجمعية من الضروري ان ترتبط آمالها بالجزيرة وما يليها واهلها ومن يجاريهم . وان تبسط لانظار الامة (يقصد الامة الاسلامية) ما هي خصائص الجزيرة واهلها والعرب عموما ، وذلك لاجل رفع التعصب السياسي او الجنسي ، ولاجل ايضاح ميل الجمعية للعرب »(٤٥) .

النتيجة الثانية : ان يكون الخليفة ، خليفة المسلمين ، عربيا قرشيا مستجمعا للشرائط في مكة(٤٦) .

كذلك فان الكواكبي كما سنوضح تفصيلا ، عندمايتحدث عن الخلافة وسلطات الخليفة ، وعن صلاحيات (سلاطين الاقوام) ، يكشف بجلاء عن اتجاه قومي يرى في الخلافة رابطا دينيا اكثر منه رابطا سياسيا كاملا ، ويرى خلدون ساطع الحصري ان الكواكبي يجد حلا لتكوين اتحاد اسلامي بين الدول الاسلامية(٤٧) . ومعنى هذا ان عبارة (القوم) لدى الكواكبي تنصرف الى ما نعنيه اليوم بعبارة الامة ، وتكون القومية حينئذ لها اكثر مضامين عبارة (القومية) كما نستعملها اليوم ، وتكون مرتبطة بأصلها

اللغوي المشتقة منه وهي القوم بصورة اوضح . لذلك فاننا نجد ، ان الكواكبي في ندائه الحار الذي يملأ احدى عشرة صفحة من كتابه طبائع الاستبداد (١٠٢ - ١١٦) ، وهو النداء الذي يتكون من فقرات ، تبدأ كل منها بعبارة (يا قوم) انما يخاطب (قومه) العرب .

فهو يقول في مطلع هذا النداء : « وعلى ذكر اللوم الارشادي لاح لي ان اصور الرقي والانحطاط في النفس وكيف ينبغي للانسان العاقل ان يعاني ايقاظ قومه ، وكيف يرشدهم الى انهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والسفالة . فيذكرهم ويحرك قلوبهم ويناجيهم » (٤٨) . ويتبع هذه المقدمة بثماني عشرة فقرة تبدأ كل منها بعبارة يا قوم وتنتهي بفقرة واضحة في تحديد مفهومه القومي حيث يقول :

« يا قـوم واعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين . ادعوكم الى تناسي الاساءات والاحقاد ، وما جناه الاباء والاجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على ايدي المثيرين ، واجلكم من ان لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وانتم المتنورون السابقون . فهذه امم اوستريا وامريكا قد هداها العلم لطرائق شتى واصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الاداري ... ويتساءل .. فما بالنا نحن الا نفتكر في ان نتبع احدى تلك الطرائق او شبهها فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الاعجام والاجانب دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء ، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الاخرى فقط ، دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي فلتحيى الامة ، فليحيى الوطن ، فلنحيى طلقاء اعزاء »(٤٩) . وغني عن البيان ان هذه الفقرة ، صريحة واضحة في تأكيد مجموعة المعاني الاساسية التي تكون مضمون الدعوة القومية ، معتمدة على وحدة الوطن ، ووحدة اللغة ، والمصير المشترك .

فاذا قيل ولكن في هذا النداء فقرة تقول :« يا قوم واعني منكم المسلمين قال نبيكم الكريم (ص) » فزعم ان هذه الفقرة تنفي ما نذهب اليه ؛ فاننا نجد على العكس من ذلك تماما انها فقرة تؤكد ما نذهب اليه وتدعمه ، ذلك لان كلمة « منكم » انما تخاطب المسلمين من القوم اي المسلمين من العرب .

والى جانب هذا ، فاننا نجد ان الكواكبي في الباب الاخير من طبائع الاستبداد ، وفي معرض البحث السياسي الذي ينصب على التخلص من الاستبداد في الدولة ، وتحديد المباحث التي لابد من طرحها لتدقيق المطالعين ، نجده يعتبر ان المبحث الاول هو :

١ ـ مبحث ما هي الامة اي الشعب « هل هو ركام مخلوقات نامية او هي جمعية عبيد لمالك متغلب، ام هي جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة»(٥٠).

فاذا وعينا ان الكواكبي لدى تحديده هذه المباحث وهي خمسة وعشرون مبحثا قد حددها بصورة سؤال يحدد تجاه القضية المطروحة في كل مبحث منها موقفين (بصيغة **هل** . وبصيغة **أم**) (٥١) وان موقفه في كل قضية منها يتحدد بالجواب الذي يتلو (ام) ظهر لنا ان الكواكبي الى جانب وعيه للامة كجماعة ذات دين واحد ، والى القوم كجماعة تتوافر لها مقومات القومية ، كان ايضا يعي الشعب « جماعة في دولة »، يكونون رعيتها ، وتربطهم روابط الجنس واللغة والوطن والحقوق المشتركة .

مما تقدم يتضح لنا اذن ان الكواكبي كان يعي الى حد كبير ثلاث دوائر لانواع الجماعات ، ويعي كذلك النتائج السياسية التي تترتب على وجود كل دائرة منها، وهي:

١ ـ الدائرة الدينية : **الامة** ،

٢ ـ الدائرة القومية : **القوم** ،

٣ ـ الدائرة الرعوية : الشعب .

وسنجد ان هذا الوعي والادراك ذو اثر في افكاره السياسية المباشرة لا يقل عن اثر المنطلق العقائدي الاول ، وهو المنطلق الديني ، وهكذا فقد انطلق بأفكاره ، السياسية القومية ، من قاعدة اسلامية ، فالعروبة والاسلام متلازمان في افكاره السياسية .

ثالثا : الكواكبي مدرك لحركة التطور والتغير كمنطق للحياة والتاريخ ، يعي ان الحياة تطور وتغير وليست جمودا او ركودا ، وهو فوق هذا مدرك بجلاء لاثر العوامل الروحية والمادية في حركة الحياة والتاريخ .

ان باب الاستبداد والترقي واضح في بيان المفهوم الحركي للحياة والتاريخ عند الكواكبي ، اذ يؤكد : « الحركة سنة عاملة في الخليقة ، دائبة بين شخوص وهبوط، فالترقي هو الحركة الحيوية اي حركة الشخوص ويقابله الهبوط ، وهو الحركة الى الموت او الانحلال او الاستحالة او الانقلاب . وهذه السنة كما هي عاملة في المادة واعراضها عاملة ايضا في الكيفيات ومركباتها » (٥٢) .

ولسنا بحاجة الى تاكيد هذه النظرة الحركية لدى الكواكبي فدعوته وكتاباته

صريحة في تأكيد هذا المفهوم ، بصورة ترفض اليأس من امكانات نهوض الامة واستئناف رسالتها ، وتؤكد ان حركة الحياة والتاريخ تعرف مراحل الانحطاط ومراحل التقدم في حياة الامم والشعوب .

على ان ما هو في نظرنا باهمية ادراك هذا المفهوم الحركي للحياة والتاريخ ، ادراك عوامل الدفع لهذه الحركة ووعي اسباب الانحطاط والترقي والجمود والانطلاق ، كما حددها .

وبيان مفهوم الكواكبي المتكامل لتلك العوامل وهذه الاسباب يبدو في بعض الاحيان صريحا محددا ، ولكنه ، بطبيعة الحال يستخلص من كل باب من ابواب طبائع الاستبداد ، لانه في كل باب منها يشير الى سبب من اسباب نشوء الاستبداد ووسيلة من وسائل مقاومته من اجل الانطلاق على طريق التقدم ، كما ان القسم الاكبر من مناقشات اعضاء الجمعية التي دعاها الكواكبي للاجتماع في ام القرى ، انما هو بصورة مباشرة تحليل منصب على اسباب الركود وعوامل الانطلاق ، او على اسباب « الفتور » وهي الكلمة التي اختارها الكواكبي كوصف دقيق لحالة الامة الاسلامية وعوامل مبالغة هذا الفتور . واذا كنا لا نتعرض بصورة تحليلية شاملة لآراء الكواكبي في هذا المجال، فاننا مع ذلك نفيه حقه عندما نقول :

١ ـ ان الكواكبي يعي ويؤكد العوامل الروحية والعقلية والمادية كعوامل محركة لحركة الحياة والتاريخ ، فهو يرفض حكما تفسيرا روحيا صرفا للحياة ويهاجم بقسوة المحاولات لجعل « الدين » بصورة عامة ، « والدين الاسلامي » بصورة خاصة ، أساسا لنظرية في تفسير التاريخ تستخف بالعوامل المادية ، سواء في انسانية الانسان الفرد او في مقومات الامة او الدولة كما تبدو في الاقتصاد(٥٣) .

٢ ـ انه يرفض بصورة حاسمة القاء مسؤولية حركة الحياة والتاريخ تاخرا او تقدما على الاقدار ، ويحمل الانسان مسؤوليات مصيره وتقرير خط حركة حياته ، فيؤكد المضمون الشوري للاية الكريمة ((لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)).

لذلك فان الكواكبي في آرائه السياسية سواء حيث يفسر اسباب الانحطاط او يحدد عوامل التغلب عليه من اجل صنع التقدم يؤكد على النقاط التالية :

الحرية : وهو تأكيد يبدو في انه يعتبر الاستبداد في احد اركانه الجوهرية عدوانا على الحرية . يقول على لسان المولى الرومي(٥٤) في تفسير اسباب الفتور بين المسلمين : « ان البلية فقدنا الحرية » ثم يتساءل وما ادرانا ما الحرية . . ويجيب قائلا : هي ما

حرمنا معناه حتى نسيناه، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه وقد عرف الحرية من عرفها : « بأن يكون الانسان مختارا في قوله وفعله ، لا يعترضه مانع ظالم ». ثم يعدد فروع الحرية « تساوي الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار انهم وكلاء ، وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة » ، ثم انواع الحرية ومنها : حرية التعليم ، وحرية الخطابة والمطبوعات ، وحرية المباحثات العلمية ، ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى انسان من ظالم او غاصب او غدار مفتال ، ومنها الامن على الدين والارواح ، والامن على الشرف والاعراض ، والامن على العلم واستثماره(٥٥) . فالحرية هي روح الدين. وينسب الى حسان بن ثابت الشاعر الصحابي رضي الله عنه قوله :

وما الدين الا ان تقام شرائع ... وتؤمن سبل بيننا وهضاب

ويدعو ان ننظر كيف حصر هذا الصحابي الدين في اقامة الشرع والامن ، ثم يتوصل الى النتيجة التالية قائلا : هذا ولا شك ان الحرية اعز شيء على الانسان بعد حياته ، وان بفقدانها تفقد الامال ، وتبطل الاعمال ، وتموت النفوس وتتعطل الشرائع، وتختل القوانين(٥٦) .

اهمية « الوعي » عند الكواكبي :

وفي نطاق الحرية وكامر ملاصق لها يكون أهم مضامينها ، يؤكد الكواكبي حرية الكلمة وحرية البحث العلمي ليبلور ذلك في تاكيد اهميد الوعي النابع من ممارسة الحرية في صنع التاريخ بمغالبة الفتور والتخلف . حتى انه ليقول : « قد اجمع الحكماء على ان اهم ما يجب عمله على الآخذين بيد الامم الذين منهم ثمة مروءة وشرارة حمية الذين يعرفون ما هي وظيفتهم بازاء الانسانية ان يسعوا في رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها في النمو فتمزق غيوم الاوهام التي تمطر المخاوف »(٥٧) . ويؤكد اهمية البحث العلمي ، وحرية البحث العلمي على لسان الرياضي الكردي : « ان السبب العام للداء هو ان علماءنا كانوا اقتصروا على العلوم الدينية وبعض الرياضيات ، واهملو باقي العلوم الرياضية والطبيعية ، التي كانت اذ ذاك ليست بذات بال ولا تفيد سوى الجمال والكمال ، ففقد أهلها من بين المسلمين ، واندرست كتبها ، وانقطعت علاقاتها فصارت منفورا منها ، على حكم : (المرء عدو ما جهل) بل صار المتطلع اليها منهم يفسق ويرمي بالزيغ والزندقة . ويعقد مقارنة بين الشرق والغرب فيقول : « لقد اخذت هذه العلوم تنمو في الغرب ، وعلى مر القرون ترقت وظهر لها ثمرات عظيمة في كافة الشؤون المادية والادبية ، حتى صارت كالشمس ، لا حياة لذي حياة الا بنورها ، فاصبح المسلمون مع شاسع بعدهم عنها محتاجين اليها لمجاراة جيرانهم ، احتياجا يعم الجزئيات والكليات : من تربية

الطفل الى سياسة الممالك ، ومن استنبات الارض الى استمطار السماء ، ومن عمل الابرة والقوارير الى عمل المدافع والبوارج ومن استخدام اليد والحمار الى استخدام البرق والبخار »(٥٨) .

الاقتصاد : قد يكون من باب المبالغة ان نقول ان الكواكبي قد صاغ **نظرية اقتصادية** . ولكنه من باب غمطه حقه أن لا نقول بأنه قد فطن الى مكان العامل **المادي-الاقتصادي** في حياة الافراد والامم ، او ان لا نقول بانه في تحليله لهذا العامل قد نهج نهجا ينطوي على كثير من المبادىء والقيم الاشتراكية .

ان باب الاستبداد والمال في « طبائع الاستبداد » ، وكذلك ما قاله الكواكبي على على لسان الفقيه الافغاني والسعيد الانكليزي والمولى الرومي ، تضع امامنا بمجموعها، وفي السياق العام لكتابي الكواكبي ، أفكارا تبرر ان نقول بان الكواكبي كان اشتراكي النزعة والدعوة . فهو في فصل الاستبداد والمال يقدم **تحليلاً تاريخيا لتطور العلاقات الانتاجية** بصورة عامة يبرز فيها أثر حاجات الناس المادية على حياتهم وتطورهم ،ويبين نشوء طبقات الفقراء والاغنياء وما يواكب هذا النشوء من ظلم واستبداد واستعباد بصورة مؤثرة بليغة عندما يقول : « وهكذا بطل أكل الانسان لحم الانسان،الا عند بعض قبائل الزنوج فانه موجود حتى الان . على ان الاستبداد المشؤوم أحيا سنة أكل البشر بشكل ادهى وامر . وذلك انه جعل الاقوام طعمة للظالمين ، فكان الاولون يذبحون ويأكلون من يأسرون من اعدائهم فقط والمستبدون يأسرون جماعتهم ويذبحونهم قصدا بمبضع الظلم ويمتصون دماء حياتهم بغصب اموالهم ، ويقصرون اعمارهم باستخدامهم سخرة في اعمالهم او بغصب ثمرات اتعابهم . وهكذا لا فرق بين الاولين والاخرين في نهب الاعمار وازهاق الارواح الا في الشكل »(٥٩) .

وعلى اساس **الانتاج** فسر الكواكبي سيطرة المراة على الرجل بصورة مثيرة : من حيث تمكن بوعيهن لمقام جنسهن في الطبيعة كحافظ لبقاء النوع ، تمكن ان يقتسمن من الذكور اعمال الحياة « قسمة ضيزى » تتبلور في ان : «البدوية تسلب الرجل نصف ثمرة اعماله، والحضرية اثنين من ثلاث ، والمدنية تسلب خمسة من ستة وهكذا تترقى بنت العواصم » (٦٠) .

وعلى اساس **الانتاج** ايضا يفسر وجود الطبقات بصورة واضحة فيقول : ثم ان رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة ايضا ، فان رجال السياسة والاديان ومن يلتحق بهم وعددهم لا يتجاوز الواحد في المائة يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر او زيادة ينفقونه في الرفه والاسراف ، وضرب مثالا على ذلك انهم يزينون

الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها احيانا ولا يفكرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام . ثم يتطرق الى أهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهين والمحتكرين وامثال هذه الطبقة ، ويقدرون كذلك « بواحد في المائة » يعيش احدهم بمثل ما يعيش به العشرات او المئات او الالوف من الصناع والزراع « وهذه القسمة المتفاوتة بين آدم وحواء الى هذه النسبة المتباعدة هي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي »(٦١) .

ويمضي الكواكبي ليقبل **« العمل »** مقياسا لانسانية الانسان حيث يقول : « قرر الاخلاقيون ان الانسان لا يكون انسانا ما لم تكن له صنعة مفيدة ، تكفي معاشه باقتصاد ، لا تنقصه فتذله ، ولا تزيد عليه فتطفيه »(٦٢) . وهذه العبارة على ايجازها ذات دلالة اشتراكية كبيرة من حيث تجعل العمل اساسا لاكتمال انسانية الانسان ، ومن حيث كونها ، بعد ذلك ، تتحدث عن «الدخل» الناتج عن هذا العمل في صورة تقتضي ان يكون متناسبا مع حاجة الانسان العامل في غير نقص يبقى العوز وفي غير زيادة تولد الطفيان . وهذا الموقف لا يؤكد ان العمل شرف وواجب فحسب وانما هو يحدد سمة هذا العمل بانه « صنعة مفيدة » ، ولا يمكن تفسير هذه العبارة الا بانها تعني صنعة منتجة ، فهي لا يمكن ان تعني ان استغلال العاطلين بالوراثة لاموالهم صنعة مفيدة مادامت تحقق لهم دخولا يعيشون منها . ان كلمة « مفيدة » هنا تعني **مفيدة للمجتمع** .. أي **منتجة** . كذلك فان الحديث عن حدود الدخل في صورة لايقل فيها عن حد ادنى تقتضيه الحاجة ، ولا يتخطى حد اعلى يدخل باب الطفيان ، هو تعبير عن نظرة اشتراكية لعملية التوزيع .

فاذا بحثنا لدى الكواكبي عن ملكية وسائل الانتاج لنجد موقفه منها باعتبارها مسألة اشتراكية أساسية ، وجدنا أنه يبرز الملكية العامة للارض ، وهي أهم وسائل الانتاج في تلك المرحلة حيث يقول : « وكذلك تركت الاسلامية معظم الاراضي الزراعية، ملكا لعامة الامة ، يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط ، وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذي لا يجوز ان يتجاوز الخمس لبيت المال »(٦٣) .

ليس هذا فحسب بل ان الكواكبي يفسر **التمول** اي ادخار المال **تفسيرا علميا اجتماعيا اشتراكيا** : يستخلص منه منطلقا اشتراكيا واضحا ، من حيث جعله «تطبعا لا طبعا » ، وربطه بظروف معاشية طبيعية او اجتماعية ولم يربطه بالطبيعة الانسانية ذاتها حيث يقول : « التمول أي ادخار المال طبيعة في بعض انواع قليلة من الحيوانات الدنيئة الضعيفة كالنمل والنحل ولا أثر لطبيعة التمول في الحيوانات المرتقية غير الانسان فانه تطبع عليه » وان الانسان تطبع على التمول : « لدواعي الحاجة المحققة

او الموهومة ولا تحقق للحاجة الا عند سكان الاراضي الضيقــة الثمرات على اهلها او الاراضي المعرضة للقحط في بعض السنين . ويلتحق بالحاجة المحققة حاجة العاجزين قسما عن التمول في البلاد المبتلاة بجور الطبيعة او جور الاستبداد . وربما يلتحق بها ايضا الصرف على المضطرين ، وعلى المصارف العمومية في البلاد التي ينقصهـا الانتظام العام »(٦٤) .

فاذا اضفنا الى ذلك تعريفه للمال « المال عند الاقتصاديين ما ينتفع به الناس، وعند الحقوقيين ما يجري فيه المنع والبذل ، وعند السياسيين ما تستعاض به القوة، وعند الاخلاقيين ما تحفظ به الحياة الشريفة »(٦٥) . واذا قرنّا هذا التعريف الشامل لانواع الاموال على اختلافها ، بتحديده لمصدر المال : « المال يستمد من الفيض الذي اوضعه الله في الطبيعة ونواميسها »(٦٦) . ادركنا المعنى الاشتراكي في قول الكواكبي نتيجة للمقدمات المذكورة « المال لا يملك ؟ أي لا يتخصص بانسان) الا بعمل فيه او في مقابله » . فهو اذن يربط بصورة واضحة بين جَواز ملكية مال او حصول على مال بعمل يضيفه المالك الى ما يملك ليحقق النفع العام ، او يبذله العامل ليحصل على المال كأجر في مقابله .

وفطن الكواكبي الى الصلة الوثيقة بين الثراء **والسلطة والاستعمار** ، فبـين ان احراز الثراء يمكن اصحابه من السلطة فيحولونها الى وسيلة للمحافظة على ثرائهم ، وبين ان التمول (اي الاستزادة من المال) يؤدي الى تسلط الامة على غيرها من الامم. فاوضح بهذا بصورة اولية التأثير الطبقي في السلطة وفي التسلط داخل الامة الواحدة وبين الشعوب ، فاشترط للتمول الشروط الثلاثة التالية :

الشرط الاول : ان يكون احراز المال بوجه مشروع حلال ، اي باحرازه من بـذل الطبيعة او بالمعارضة او في مقابل عمل او في مقابل ضمان .

الشرط الثاني : الا يكون في التمول تضييق على حاجات الغير كاحتكار الضروريات او مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء ، او التغلب على المباحات مثل امتلاك الاراضي التي جعلها خالقها ممرحا لكافة مخلوقاته وهي امهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها ، وتأويهم في حضن اجزائها فجاء المستبدون الظالمون الاولون ووضعوا اصولا لحمايتها من ابنائها وحالوا بينهما فهذه ايرلانده مثلا قد حماها الف مستبد مالي من الانكليز ليتمتعوا بثلثي او ثلاثة ارباع ثمرات اتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة ايرلاندة . وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالا وستفوقها مآلاً . وكم من البشر في اوربا المتمدنة وخصوصا في لندرة لا يجد احدهم ارضا ينام عليها متمددا بـل

يناموين في الطبقة السفلى حيث لا ينام البقر وهم قاعدون صفوفا يعتمدون بصدورهم على حبال من مسد منصوبة افقية فيتلوون عليها يمنة ويسرة .

والشرط الثالث لجواز التمويل هو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير لأن افراط الثروة مهلكة للاخلاق الحميدة في الانسان ، « فانه ليطغى ان راه استغنى»(٦٧).

هذه الافكار تؤكد الاتجاه الاشتراكي لدى الكواكبي ، واذا كان الكواكبي لم يعتبر المادة والانتاج والاستغلال الاساس الاولي الوحيد في حركة الحياة والتاريخ فلم يأخـذ بالتفسير المادي لتلك الحركة وانما اكد العوامل الروحية والعقلية الى جانب العامل المادي ، فان هذا لا يسلبه اتجاهه الاشتراكي ، كما هو ثابت من التجارب الاشتراكية في هذا العصر حيث تتأكد حتمية الحل الاشتراكي ويتأكد معها الاساس المادي والروحي كمنابع لتلك الحتمية ومضامين لهذه الاشتراكية .

الافكار والاراء السياسية المباشرة لدى الكواكبي :

في ضوء هذه المنطلقات العقائدية الاساسية لدى الكواكبي ننتقل الى عرض افكاره وارائه السياسية المباشرة في :

أ ــ علاقة الفرد بالدولة .

ب ــ علاقة الامة او الشعوب مع بعضها ومع الدولة في دولةامبراطورية واحدة .

ان الافكار والآراء السياسية المباشرة لدى الكواكبي تتجمع بصورة متكاملة في تحديـده :

اولا : **للسياسـة**

ثانيا : **لمضمون الاستبداد** وتحديده للعلاقات والمؤسسات السياسية التي تحمي الانسان والشعب منه . وتبدو أفكاره تجاه هاتين النقطتين بصـورة خاصة في طبائع الاستبداد .

ثالثا : **مقترحاته المباشرة** حول القواعـد الاساسية التي يرى ان تبنى عليهـا الجامعة الدينية تحت لواء الخلافة . كما تبدو على لسان الامير في كتاب ام القرى ، وتبدو كذلك في الاجتماعـات الخمسة الاخيرة من (السابع حتى الثاني عشر) مـن اجتماعات جمعية الموحدين .

رابعا : **آراؤه في اسلوب العمل السياسي لتحقيق افكاره السياسية** ، كما تستنتج من دستور جمعية الموحدين ونظامها ومنهاجها .

يحدد الكواكبي مضمون علم السياسة ويعرفه بانه : « ادارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة » . ويضيف انه بذلك « يكون بالطبع اول مباحث السياسة واهمها بحث الاستبداد أي التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى »(٦٨) . وواضح من هذا التعريف ان السياسة بصورة عامة تتعلق بادارة شؤون مشتركة ، وواضح ايضا ان هذه الادارة تكون جديرة بان تسمى سياسة عندما تكون ادارة بمقتضى «الحكمة» . فاذا تحولت الى تصرف بمقتضى « الهوى » اصبحت استبدادا . وانه لذو دلالة ان نلاحظ في هذا التفريق بين السياسية والاستبداد عنصرين مميزين :

العنصر الاول ان السياسة ادارة لشؤون مشتركة ، وليست تصرفا فيها . وهذا المعنى الدقيق يحمل بين طياته التفريق بين نظم سياسية يعتبر الحكام فيها ان مهمتهم « ادارة » شؤون مشتركة فهم في ادارتها موكلون وامناء عليها ، وبين نظم يعتبرالحكام فيها ان مهمتهم « التصرف » في الشؤون المشتركة كأنها ملكهم .

العنصر الثاني : ان السياسة اداء لتلك الوكالة والامانة في ادارة الشؤونبالحكمة، بينما هي في حالة الاستبداد تصرف فيها بالهوى . ومعنى هذا ان الاستبداد نقيض السياسة وان النظم المستبدة لا تستحق شرف التسمية بانها نظم سياسية .

والسياسة شأن نقيضها الاستبداد تنصرف للحكومات حيث تكون الشؤون المشتركة هي شؤون الناس في الدولة كمواطنين فيها او كقوميات متعددة في دولة واحدة ، او كدول تتعامل بعضها مع البعض الاخر .

ومن تعريف الكواكبي للحكومة المستبدة يمكننا ان نستخلص اراءه السياسية في علاقات الافراد بالسلطة كما يجب ان تكون وفي ما يترتب على ذلك من تحديد لهوية الحكام والحكومة ، والمؤسسات والاساليب التي يمارس الحكام والحكومات السلطة بموجبها والتي لابد وان يراقب الشعب بها الحكومة .

لا نجد لدى الكواكبي محاولة لتفسير اسباب وكيفية نشوء السلطة في المجتمعات البشرية ، او لمصير الحكومات والسلطة في المجتمعات البشرية في مستقبل تطورها ، فهو يتحدث عن السلطة والحكومة كواقع في المجتمعات البشرية ، وعنصر من عناصر وجودها . والمحور الرئيسي في افكاره تجاه علاقةالافراد والشعببالحكومة او بالسلطة يتركز في نقطة اساسية تتفرع منها نقاط كثيرة. وهذه النقطة هي ان الشرط الموضوعي

لادارة شؤون الامة بالحكمة ، هو ان تكون دوما تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها فهو يقول : « وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها كما جرى في صدر الاسلام في ما نقم على عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبناما ودريفوس»(٦٩).

ومعنى هذا ان الكواكبي يلتزم موقفا « ديمقراطيا » صارما يرفض كل نوع من الضمانات التي قد تساق في معرض حماية المجتمع « من الاستبداد » اذا لم يتوفر شرط المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها . وانه لا يعتبر الشكل في الحكومة هو معيار الديموقراطية ، او لحماية المجتمع من الاستبداد ، وان كان بالطبع يدرك اثر شكل نظام الحكم ، واثر عوامل اخرى ، على كونه استبداديا او غير استبدادي . لذلك فانه حين يحدد للاستبداد منشأين رئيسيين يرد وجوده في الحالين على تعدد الاشكال الى غياب المراقبة والمحاسبة ففي رأيه ان منشأ الاستبداد « اما كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة او على امثلة او على ارادة الامة وهذه حال الحكومات المطلقة . واما من كونها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها ابطال قوة القيد بما تهوى ، وهذه حالة اكثر الحكومات التي تسمي نفسها بالمقيدة »(٧٠) .

ويتضح من هنا ان الكواكبي ضد الحكومات المطلقة ، وانه كذلك ضد الحكومات المقيدة (غير المطلقة) التي تتمكن بنفوذها من ابطال قوة القيد عليها . فيؤكد ان صفة الاستبداد تشمل « حكومة الحاكم الفرد المطلق ، الذي تولى الحكم بالغلبة او الوراثة ، كما تشمل ايضا الحاكم الفرد المقيد الوارث او المنتخب متى كان غير محاسب »(٧١). ويمضي الكواكبي الى اكثر من ذلك ليؤكد ان حكومة « الجمع » حتى لو كانت الجماعة الحاكمة منتخبة لا تتحقق بها الديموقراطية ، (أي انها لا ترفع الاستبداد) الا اذا توفر للامة امكانية المراقبة والمحاسبة على الرغم من وعيه ان الاشتراك في الرأي الذي يقوم بحكومة الجمع ، وبالانتخاب ، قد يعدل امكانية الاستبداد نوعا ما فيقللها . ولكنه يرى أن امكانية تحول حكومة الجمع المنتخبة الى حالة من الاستبداد اكثر احكاما واشد ضررا من حكومة الفرد .

وفوق هذا فان الكواكبي يرى انه : « حتى الحكومة الدستورية التي يفرق فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ لا تتحقق بها الديموقراطية ، اي دفع الاستبداد ، الا بشرطين : ان يكون المنفذون مسؤولين لدى المشرعين ، وان يكون هؤلاء مسؤولين لدى الامة التي تعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب(٧٢) .

والى جانب هذا الموقف الديمقراطي الثوري ، نجد أن الكواكبي يعي مسألة اخرى تلازم هذا المبدأ وهي : أن قيام الحكومة العادلة لا يعني انها تستمر عادلة اذا وجدت سبيلا للاستبداد ، وانه اذن لايمكن للامة ان تضمن استمرار الحكومة العادلة بغير استمرار المراقبة والمحاسبة حتى على حكومة توفر لها بالتكوين وبالشكل ان تكون حكومة عادلة .

وعندما يضرب الكواكبي مثلا بانحراف حكم عثمان بن عفان رضي الله عنه عن العدل في صدر الاسلام ، وبحكم الجمهورية الفرنسية المعاصر للكواكبي ، فانه في رأينا يريد ان يؤكد ان وجود الدستور العادل (وهو الشريعة الاسلامية في الحالة الاولى ودستور الجمهورية الموروث عن الثورة الفرنسية في الحالة الثانية) لا يكفي لوحده لضمان الحكم العادل والحيلولة دون الاستبداد فلا بد اذن من توفر مراقبة الامة الدائمة للحكم ومحاسبتها له . فتنازل الامة او غفلتها عن تلك المراقبة وهذه المحاسبة يؤدي بالضرورة الى نشوء الاستبداد .

ولا يقف الكواكبي عند هذا الحد تجاه النقطة الاولية بل انه يؤكد ان مجرد المراقبة او المحاسبة « بالقول » لا يكفي لمنع قيام الاستبداد او تصحيحه ، وانما لابد للامة « من العمل » أو من اقتناع الحكومة بان هذه الامة قادرة على العمل ، جادة فيه ، الا وهو مراقبة الحكومة ومحاسبتها ، ثم يضع منهجا ثوريا كي تسير الرعية عليه حين يقول : « المستبد انسان مستعد بالفطرة للخير والشر ، فعلى الرعية ان تكون مستعدة لان تعرف ما هو الخير وما هو الشر ، مستعدة لان تتبع القول بالعمل ، والقول الذي ليس وراءه فعل هو موجة من الهواء ، على ان مجرد الاستعداد للفعل ، فعل يكفي شر الاستبداد .

ثم يقدم لنا فكرة عن الانسان المستبد ويعرفه بقوله : المستبد انسان والانسان اكثر ما يألف الغنم والكلاب ، فالمستبد يود ان تكون رعيته كالغنم درا وطاعة ، وكالكلاب تذللا وتملقا وعلى الرعية ان تكون كالخيل ان خدمت خدمت وان ضربت شرست بل عليها أن تعرف مقامها هل خلقت خادمة للمستبد أم هي جاءت به ليخدمها . والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها لتأمن من بطشه فان شمخ هزت به الزمام وان صال ربطته »(٧٢) .

فاذا اضفنا الى هذه العناصر التي تكون افكار الكواكبي السياسية تجاه القضية الاولى والكبرى ، الا وهي طبيعة الحكومة وطبيعة صلة الامة بها كي تكون عادلة غير مستبدة ، اذا اضفنا الى ذلك « الاسباب السياسية » التي اوجز فيها الكواكبي على

لسان الفراتي من اعضاء الجمعية (وهو الكواكبي نفسه) التي ادت الى فتور الامة الاسلامية ، وجدنا من بينها الاسباب التالية التي نبرزها من بين الاسباب السياسية التي تشمل ستة عشر سببا تمتد من السبب (٢٤) الى السبب (٣٩)(٧٤) ، باعتبارها ذات دلالة خاصة على المسألة موضوع البحث :

٢٤ ــ السياسة المطلقة من السيطرة والمسؤولية .

٢٥ ــ تفرق الامة الى عصبيات واحزاب سياسية .

٢٦ ــ حرمان الامة من حرية القول والعمل وفقدانها الامن والامل .

٢٧ ــ فقد العمل والتساوي في الحقوق بين طبقات الامة .

٣٣ ــ ابعاد الامراء للنبلاء والاحرار وتقريبهم المتملقين والاشرار .

٣٤ ــ مراغمة الامراء للسراة والهداة والتنكيل بهم .

٣٥ ــ فقد قوة الراي العام بالحجر والتفريق .

٣٩ ــ حصر الاهتمام السياسي بالجباية والجندية فقط(٧٥) .

واذا ما صنفنا الاراء والافكار والسياسة عند الكواكبي بلغة كاللغة المتداولة اليوم نجد المبادىء التالية :

١ ــ مبدا ان الشعب مصدر السلطة وان الحكومة والسلطة يجب ان تكونا من الشعب وللشعب .

٢ ــ مبدا فصل السلطات .

٣ ــ مبدا سيادة القانون .

٤ ــ مبدا السلطة التشريعية المنتخبة .

٥ ــ مبدا الحريات الشخصية :

ــ حرية العقيدة والراي حرية مطلقة .

ــ حرية الفعل في حدود القانون .

٦ ــ مسؤولية الحكومة امام السلطة المنتخبة .

٧ ــ مبدا الملكية العامة لبعض وسائل الانتاج ، ومسؤولية الحكومة عن التطوير والتقدم الذي يشتمل على بذور الاشتراكية .

٨ ـ سيطرة السلطة التشريعية على السياسة المالية . سواء سياسة الضرائب أو الانفاق .

افكار الكواكبي السياسية حول العلاقة بين القوميات في دولة امبراطورية واحدة

ان افكار الكواكبي تجاه هذه المسالة من مسائل السياسة تنبع اساسا من مواجهته للتناقضات التي تعيشها الدولة العثمانية ، وهي التناقضات التي بلغت في عهده ذروتها ، لا من حيث التخلف والجمود والاستعباد الذي يعاني منه الافراد والطبقات الكادحة فحسب ، وانما من زاوية بداية محاولات التتريك(٧٦) ومناهج الاساءة للامة العربية من قبل الاتراك اساءات تصيب مقومات وجودها وكرامتها كامة يعتز بها الكواكبي ويؤكد تميزها بين امم الدولة العثمانية تميزا ينبع من خصال وخصائص قومية يتحدث عنها باسهاب وجراة في مخاطبته اعضاء جمعية الموحدين رغم اختلاف جنسياتهم ، وتنبع كذلك من ان العرب هم حملة رسالة الاسلام الناطقين بالضاد لغة القرآن .

لذلك فان افكار الكواكبي في هذا الموضوع تكون في حقيقتها حلا الحاديا يبقى على الخلافة كجامعة ، ويعطي للشعوب نصيبا غير قليل من الاستقلال الذاتي ، كما يسلب الخليفة كل الصلاحيات تقريبا بصورة واضح فيها ان الكواكبي يستهدف منها منع استبداده بالمركزية في الحقوق السياسية والادارية للشعوب ويستهدف منها كذلك منع استبداد الحاكم بالسلطة المطلقة للرعية(٧٧) .

ولقد كانت آراء الكواكبي في هذا الموضوع تحديا صارخا للدولة العثمانية كما كانت قائمة في عهده ، سواء من حيث مطالبته بالخلافة لقرشي عربي ، او من حيث ما رسمه من توزيع للسلطة والصلاحيات في داخل الدولة بين الشعوب الداخلة في نظامها ، حتى انه ليصح القول انه كان يدعو الى دولة اتحادية تصبح بها الخلافة اقرب الى « الكونفدرال » منها الى « الاتحاد الفيدرالي »(٧٨) .

ونجد دلالات كبيرة في الاسباب السياسية والادارية العثمانية التي اوردها في معرض بيان اسباب الانحطاط والفتور في الامة الاسلامية . ومن ابرز هذه الاسباب كما حددها الكواكبي على لسان السيد الفراتي :

٥٧ ـ توحيد قوانين الادارة والعقوبات مع اختلاف طبائع اطراف المملكة واختلاف الاهالي في الاجناس والعادات .

٥٩ ـ التمسك باصول الادارة المركزية مع بعد الاطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الادارة في المركز ، على احوال تلك الاطراف المتباعدة وخصائص سكانها .

٦٥ ـ التمييز الفاحش بين اجناس الرعية في الغنم والغرم(٧٦) .

ويبدو المخطط السياسي المقترح للجامعة الاسلامية والخلافة فيها ، سواء من ناحية مركز العرب فيه او من ناحية اسباب استحقاقهم لهذا المركز ، في القرار رقم (٦) الذي ينتهي بعد المقدمات والاسباب الموجبة الى القول : « فهذه الاسباب التي جعلت جمعية أم القرى ان تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية »(٨٠) .

اما تلك الاسباب فهي ثمانية عشر سببا خاصة بعرب الجزيرة ، وسبعة اسباب تنصرف للعرب عموما .

اما دستور الجامعة الدينية تحت لواء الخلافة وقواعده الاساسية، فان الكواكبي يجمله على لسان الامير على الصورة التالية بحيث يتحقق « بمثل هذا الترتيب تنحل مشلكة الخلافة ، ويتسهل عقد اتحاد اسلامي تضامني تعاوني ، يقتبس ترتيبه من قواعد اتحاد الالمانيين والامريكانيين مع الملاحظات الخاصة»(٨١) .

ويبدو من دستور الجامعة الدينية الذي يقترحه الكواكبي انه قد وصل الى النقطة التي ينادي بها فعلا بإلغاء الدولة الاسلامية (أي الدولة الدينية) كدولة سياسية ليحولها الى **جامعة دينية** الخليفة فيها رمز للرابط الديني ورئيس منتخب لهيئة شورى ، تنحصر مهامها في امهات المسائل الدينية . وهو تصور على مقدار كبير من الثورية في حينه ، ومن العلمية والعملية بصورة دائمة ، يحسم به الكواكبي منذ حوالي اكثر من ثمانين عاما مسألة الخلط بين الوحدة الدينية الاسلامية ، وبين الوحدة القومية العربية. بحيث يجعل من الاولى جامعة دينية ومن الاخرى دولة سياسية ، وهو تفريق من المفيد كل الفائدة ان يعيه الذين يناقشون باستمرار وحدة عربية ، ام وحدة اسلامية .

ان جواب الكواكبي يعي الفرق النوعي بين الدائرتين : الدائرة العربية ، ومنطقها

منطق الوحدة القومية السياسية ، والدائرةالاسلامية :ومنطقها منطق الجامعة الدينية الاسلامية .

تقويم افكار الكواكبي :

عملية التقويم ، تقويم الاشخاص والافكار والحركات مسألة لابد وان يتخطى المتصدي لها حدود العرض والتحليل ، ليبلغ آفاق الدراسة المقارنة من جهة ،وليتتبع التأثير النابع عن الشخص او عن الفكرة او عن الحركة ، وتحديد الاصداء الايجابية منها والسلبية ، الفاعلة منها والمنفعلة التي اطلقها الشخص او الفكر او الحركة ، من جهة اخرى ، وفي وسعنا ، في ضوء ما تقدم من عرض للكواكبي في نشأته وعصره وفي افكاره وآرائه ، ان نحاول تقويمه تقويما اوليا يبقى خاضعا لاعادة النظر والتعديل في ضوء المزيد من البحث .

ان جوهر تقويمنا للكواكبي يتركز في انه : مناضل مفكر داعية ، ثوري فيمضمون افكاره ، اصلاحي في اسلوب تحقيق افكاره ، تأثيره في عصره وما بعد عصره ينشأ عن افكاره ودعوته اكثر من نشوئه عن تنظيم اقامة او حركة فعالة صنعها ، ولسنا بحاجة بعد الذي تقدم من عرض لافكاره في اسسها العقائدية وفي مضامينها السياسية لبيان اسباب وصفنا اياها بالثورية .

يكفي ان نذكر مجددا مفاهيمه الثورية للدين ، وان نذكر كذلك مفاهيمه للمجتمع ومقوماته ، وان نذكر ايضا مبادئه في فهم حركة الحياة والتاريخ كما أشرنا اليها فيما سبق .

يكفي ذلك ليتضح لنا ان الكواكبي كان في كل ذلك يجسم في عصره ثورة على الافكار التي كانت تقوم عليها السلطة في ذلك العصر ، والتي كانت تدعمها وتدافع عنها مع تلك السلطة ، طوائف المستغلين والمنتفعين من حكام ومتسلطين ومتعممين .

لقد ضرب الكواكبي بارائه الجريئة في هذه المجالات ، بصورة علمية ومنطقية ، عوامل الجمود والتخلف والتسلط التي كانت تتركز جميعها في الاستبداد .

ولا يخفف من ثورية هذه الافكار الاساسية ، الاسلوب التطوري الذي دعا له الكواكبي او ما اشار اليه صراحة من ان العنف ليس سبيل مغالبة الاستعباد ، ذلك ان وراء هذا الموقف ، كما هو واضح لديه ، اعتقاده بان عملية التوعية هي الخطوة المطلوبة وهي المهمة المحددة مرحليا .

واذا كان في الامكان ان يناقش تقدير الكواكبي لهذه المسألة او ان يرفض ، فانه يصعب القول بانصاف ان الكواكبي لم يكن ثوريا ثورة عارمة فيما طرحه على المسلمين عامة ، وعلى العرب خاصة ، من افكار جريئة حول واقعهم العقائدي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي .

ويكفي بعد ذلك ان يكون الكواكبي في عصره قد اعلن في غير التواء موقفا قوميا عربيا بلغ المطالبة بمركز الخلافة في الدولة الاسلامية للعرب ، وان يكون كذلك قد واجه الامبراطورية العثمانية بارائه في نوع العلاقات التي يرى ان تقوم بين الشعوب التي تتكون منها وان يكون هذا وذاك يقعان في اطار ارائه عن الاستبداد وما ينبع عنها من مطالب تحررية ديموقراطية بل واشتراكية ، ليبدو لنا كذلك مقدار ما كان عليه الكواكبي من الثورية .

اما تقويم الكواكبي تقويما مقارنا مع غيره من الدعاة والمفكرين في عصره ، فانه من ناحية المضمون يكشف عن تميز بتسلسل النهج وعلميته في بحث أسباب الانحطاط والتاخر والفتور وفي وصف علاجها ، كما يبدو كذلك في تحديد اكثر وضوحا، للمضمون السياسي والاجتماعي المطلوب لتحقيق النهضة والتقدم .

واضح ان الكواكبي في تحليله لاسباب الانحطاط والفتور لم يركز تركيزا بينا على الاستعمار الاجنبي النامي كقوة غازية جديدة ، وان كان مفهومه للاستعباد ينطوي طبعا على الاستعمار ويدعو للتخلص منه .حتى ليكاد يبدو ان دعوته لمقاومة التسلط التركي اوضح من دعوته لمقاومة الاستعمار الغربي . ولا شك في أن جنوحه للاخذ بأسلوب مقاومة الاستعباد بغير اللجوء للقوة وانما بالتوعية ونشر الوعي اي « التوجيه الارشادي » يضعه في مستوى يقصر عن مستوى دعاة الثورة والمحرضين عليها ، وهي نقطة تحتاج الى تفسير سيما انه كان يعاصر مرحلة صراعات ونضالات حامية تقوم في اكثر ارجاء الوطن العربي سواء في مواجهة الاستعمار او في مواجهة بداية التتريك ، وفي مرحلة بدات تتكون وتولد فيها المنظمات العربية السرية المدنية والعسكرية التي تجسم العزم على النضال الثوري والاتجاه للاخذ بمبدأ القوة في مواجهة الاستعباد، وكذلك ظهور الحركة الصهيونية بعد مؤتمر بال (بازل ، ١٨٩٧) .

واذا كنا نجد بهذا الموقف ان الكواكبي لم يكن واثقا من قدرة الشعب ، في اوضاعه تلك ، على اللجوء للقوة والسير على طريق النضال العنيف من اجل دفع الاستعباد وتحقيق الحكم العادل على الصورة التي تصورها ووصفها ، فان عدم الثقة هذه بامكانات الشعب النضالية تكون نقطة ضعف في التفكير السياسي عند الكواكبي من ناحية الاسلوب .

من هنا نجد بعض الباحثين يعتبر ان الكواكبي اذا قورن بالافغاني مثلا كان في مكان الطبيب اذا قورن بالثائر، بكل ما يحمله الفرق بين الطبيب والثائر في معالجة الداء من تباين .

مهما يكن الامر ، فان الكواكبي يبقى احد اعلام الفكر العقائدي والقومي والسياسي الثوري في القرن التاسع عشر(٨٢) الذي يستحق قسطه الوافر من فضل اذكاء الوعي الثوري وتفجير الطاقات الثورية التي لا نلبث ان نشهدها وهي تجتاح الوطن العربي مع مطلع القرن العشرين .

اذا كان الكواكبي قد جعل كتابه طبائع الاستبداد « هدية مني للناشئة العربية المباركة الابية ، المعقودة امال الامة بيمن نواصيهم » فلا شك ان تلك الناشئة قد استفادت من الهدية فتحقق للكواكبي كثير من اهداف ذلك الاهداء(٨٣) ولا شك ايضا في ان الناشئة العربية اليوم قادرة ان تجد في الكواكبي كثيرا من الافكار والمعاني التي تتعلم منها وتفخر بها فتكون امام مسؤولية اكتشاف الكواكبي واحيائه بصورة اكثر جدية واعترافا بفضله .

المصادر والمراجع :

احمد امين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤١.

احمد عزت عبد الكريم وبديع الشريف ، دراسات تاريخية في النهضة العربية ، القاهرة ١٩٥٨

انور الجندي ، اعلام واصحاب الاقلام ، دار نهضة مصر ، القاهرة (بت) .

رئيف خوري ، الفكر العربي الحديث ، دار المكشوف ، بيروت ١٩٤٣ .

ساطع الحصري ، نشوء الفكرة القومية ، بيروت ١٩٥٢ .

سامي الدهان ، عبد الرحمن الكواكبي ،دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤ ، ط١ .

عباس محمود العقاد ، عبد الرحمن الكواكبي الرحالة (ك) ، دار الكاتب العربي ،بيروت١٩٦٩ط١ .

عبد العزيز الدوري ، التكوين التاريخي للامة العربية ــ دراسة في الهوية والوعي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٤ ط ١ .

فهمي جدعان ، اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٩ ط ١ .

محمد احمد خلف الله ، الكواكبي احياؤه وآراؤه ، مكتبة العرب ، القاهرة شارع الفجالة .

نوربير تابييرو (ترجمة علي سلامة) الكواكبي المفكر الثائر ــ اسهام في دراسة الاسلام الحديث ، منشورات دار الادب ، بيروت ١٩٦٨ .

المجلات :

مجلة الرسالة ، اعداد عام ١٩٥١ .

مجلة المنار ، م ٣ ، ح ٦ ، ص ١٢٤ مقالة بعنوان الوحدة العربية بقلم الشيخ رشيد رضا .

مجلة المنار ، السنة العاشرة ، العدد العاشر ــ ١٩٠٨ ص ٧٢٧ وما بعدها .

مجلة الحديث ، العدد التاسع ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢ م .

ومجلة Revue des Etudes Islamiques (R. E. I.)

العدد الرابع ص ٦٨٩ وما بعدها ، العدد السادس ص ١٧٥ ــ ٢٢٤ دراسة عن السلفية بقلم هـ . لاووست .

الهوامش :

(١) لقد ظهرت في القرن التاسع عشر تيارات فكرية متعددة كان اشهرها التيارات الفكرية ذات المنطلق الديني ، التي تاثرت بالحركة الوهابية ، ومنها المذهب الشوكاني ، والسنوسية والمهدية وغيرها ، ثم هناك التيار الفكري الديني المتجدد ، الذي دعا الى فتح باب الاجتهاد والاطلاع على الثقافة الغربية ، والتوفيق بين العلم والايمان ثم التيار الديني ـ القومي الذي نحن بصدده .

(٢) يشير محمد كرد علي ، ان ثقافة الكواكبي هي ثقافة عربية ـ تركية ، وانه افاد كثيرامن معلوماته التركية ولقائه بعلماء الترك ، وانه عوض عن جهله اللغات الاجنبية بقراءة المترجمات الغربية بالتركية ، كما انه يرى ان ما كتبه الكواكبي يمثل اجتهاده الخاص . المعاصرون : ص ٢٨١ ومابعدها.

(٣) المنار : م٣ ج٦ ص ١٢٤ مقالة بعنوان الوحدة العربية بقلم الشيخ رشيد رضا .

(٤) للباحثة دراسة وثائقية تدور حول الجمعية العربية الفتاة السرية ، وهي تحت الطبع ، بدعم من الجامعة الاردنية ، وقد لمست هذا التاثر اثناء اعداد الدراسة المذكورة .

(٥) لا اريد الخوض في ترجمته حيث قدم الدكتور اسعد الكواكبي عن ابيه دراسة مفصلة في مجلةالحديث العدد التاسع ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢.

(٦) هناك بعض الكتب تشير الى ان مولد الكواكبي كان في ١٩٤٨ او في ١٩٥٤ ، وبعضها يذكر ١٩٤٩ .

(٧) طرحالمفكرون الدعاة المفاهيموالقيمالاجتماعية والسياسية الجديدة التي تدور حول النظم السياسية للدولة على البعدين : الداخلي ، مثل النظم السياسية للدولة من زاوية موقف هذه النظم من الفرد وحقوقه وواجباته فيها . والخارجي ، حين تطرقوا الى تعامل هذه النظم السياسية بعضها مع البعض الاخر ، أو مع النظم السياسية في الخارج .

(٨) منهم رفاعة رافع الطهطاوي وعبد الله نديم ، وعلي مبارك ومحمد عبده في مصر والشهاب الالوسي في العراق ، وخير الدين التونسي وابن ابي الضياف في تونس ، واحمد فارس الشدياق وجمال الدين القاسمي والشيخ طاهر الجزائري ، اديب اسحق ورزق الله حسون والشيخ رشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي ومحب الدين الخطيب في سورية ، هذا بالاضافة الى المفكر الثوري الاسلامي جمال الدين الافغاني .

(٩) عمل وهو في الثانية والعشرين في صحيفة « فرات » العربية التركية وكان قد انشاها المؤرخ التركي احمد جودت باشا قبل ذلك بعشر سنوات ، ثم انشا في حلب أول صحيفة عربية باسم « الشهباء » مع صديقه هاشم العطار ، ثم انشا صحيفة « الاعتدال » بعد تعطيل الشهباء لصراحتها ، فصدر منها خمسة عشر عددا ثم عطلت ..

(١٠) انظر نوربير تابييرو : الكواكبي المفكر الثائر ، ص ٥٣ .

(١١) انظر لمزيد من الايضاح : رئيف خوري ، الفكر العربي الحديث .

(١٢) راجع حول التوسع بهذه الفكرة د.محمود السمرة في كتابه Christian Missions الفصل الرابع ، ص ١٤٨ .

(١٣) راجع حول المراكز التي شغلها : عباس محمود العقاد ، عبد الرحمن الكواكبي الرحالة ك،ص٥٨.

(١٤) يذكر البعض ان ولاة الدولة العثمانية قد احرقوا بعض نتاج الكواكبي عند تفتيش منزله ، ومنها « صحائف قريش » و « العظمة لله » وديوان شعره ، ويوميات رحلاته انظر انور الجندي :اعلام واصحاب القلام ، ص ٢٣٥ .

(١٥) انظر الطبعة التي اصدرتها سنة ١٩٣١ المطبعة الرحمانية في مصر .

(١٦) يخصص المستشرق نوربير تابييرو عدة صفحات (٥٧ ـ ٦١) ليثبت ان هذا المؤتمر لا اصل له .

(١٧) انظر الطبعة التي اصدرتها سنة ١٩٣١ المطبعة المصرية بالازهر .

(١٧) يؤكد تابييرو ان كتاب ام القرى قد ولد في مخيلة المؤلف قبل طبائع الاستبداد . وكذلك انظـــر الدكتور فهمي جدعان : اسس التقدم عند مفكري الاسلام ص ٢٩٠ .

(١٨) انظر المنار السنة العاشرة العدد العاشر ١٩٠٨ ص ٧٢٧ وما بعدها .

(١٩) انظر انور الجندي : اعلام واصحاب اقلام ص ٢٣٣ .

(٢٠) احمد امين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤١ ، ص ٢٥٦.

(٢١) يشير د.سامي الدهان في كتابه عبد الرحمن الكواكبي الى ذلك بقوله : « واول من حبر موضوعها متصل الحلقات بهذا الاسلوب من الانشاء ». طبعة دار المعارف بمصر .

(٢٢) الكواكبي : طبائع الاستبداد ص ١٢٤ .

(٢٣) الكواكبي طبائع الاستبداد ، ص ١٣٠-١٣١ .

(٢٤) الكواكبي طبائع الاستبداد ، ص ١٢٥-١٢٠ .

يشير الدكتور سامي الدهان ، ص ٤٣ ، الى ان مجموعة جريدة المؤيد التي نشرت هذه المقالات غير موجودة الان ، وان طبعات الكتب التي بين ايدينا « المتداولة » ، عملت فيها يد التحريف والتصحيف . واني كذلك لم اعثر على مجموعة جريدة المؤيد ، لاتمكن من اخذ الافكار السياسية لدى الكواكبي من كتاباتـــه الاولى .

(٢٥) الكواكبي ام القرى ص ١٠ .

(٢٦) الكواكبي ام القرى ص ١١.

ولعل هذا القول ، جعل الاستاذ احمد امين ، يضع الكواكبي في كتابه زعماء الاصلاح في مكانة الطبيب الذي يفتش عن مراكز المرض ثم يصف الدواء الشافي .

(٢٧) لقد قدم الدكتور سامي الدهان في كتابه : « عبد الرحمن الكواكبي » ملخصا لاجتماعات كتاب ام القرى وكذلك ملخصا لكتاب طبائع الاستبداد .

(٢٨) لقد ناقش الدكتور محمد احمد خلف الله في كتابه : الكواكبي حياته واراؤه ، وكذلك الدكتور سامي الدهان ، والمستشرق الفرنسي نوربير تابييرو في كتابه « الكواكبي المفكر الثائر » ، وغيرهم كثير ، افكار الكواكبي الدينية من منطلق العودة الى الاصول ، واحاول هنا مناقشة افكار الكواكبي الدينية ـ الثورية .

(٢٩) الكواكبي : ام القرى ، ص ٢٢ .

(٣٠) الكواكبي ام القرى ، ص ٦٥.

(٣١) راجع الكواكبي طبائع الاستبداد ، ص ٣٣.
ويشير الدكتور احمد خلف : الى ان مناقشة الكواكبي للنصوص الدينية ، واستنباط الاحكام منها.
والنصوص عنده ليست الا : « الكتاب والسنة » ص ٤٨ مصدر سابق .

(٣٢) الكواكبي ام القرى ص٦٠ .

(٣٣) هناك عدة دعوات سلفية تدعو للعودة الى الدين الاسلامي النقي ، في مقدمتها الحركة الوهابية، والمذهب الشوكاني ، والمهدية السنوسية .
انظر : (R.E.I.) ،العدد السادس ، دراسة عن السلفية ، ص ١٧٥ – ٢٢٤ بقلم هـ . لاووست .

(٣٤) الكواكبي : طبائع الاستبداد ، ص ٣٣–٣٤ .

(٣٥) الكواكبي ، طبائع الاستبداد المقدمة ص٢ مقدمة المؤلف .

(٣٦) الكواكبي ام القرى ، ص ٢٣.

(٣٧) الكواكبي ، ام القرى ، ص ٢٤.

(٣٨) الكواكبي ، ام القرى ،ص ٢٥.

(٣٩) الكواكبي ام القرى ص ٣٢ .

(٤٠) الكواكبي ام القرى ص ٤٢.

(٤١) لقد اورد الدكتور احمد خلف الله الكثير من الاستشهادات التي تدور حول الصلة بين الدين والحكم المطلق ، والمشاركة بين الدين والسياسة ، والحاكم الظالم ورجل الدين المنافق يمكن الرجوع اليها من ص ٥٠–ص ٦٠ في كتابه الكواكبي حياته وآراؤه .

(٤٢) الكواكبي ام القرى ص ١٢–١٤ ومن هنا ينتقد الكواكبي بل ويرفض تقليد الناشئة للغرب ، والتخلي عن العادات والقيم المتعارف عليها في بلادنا .

(٤٣) الكواكبي : ام القرى ص ٦٢ .

(٤٤) انظر : Samra, C.M., and W., Ideas in Syrian M. writers, p. 187.

(٤٥) الكواكبي ام القرى ص ١٩٣ .

(٤٦) الكواكبي ام القرى ص ٢٠٧ .
لقد تنبه الكثير ، الى هذه الناحية وهي تمييز الكواكبي للعنصر العربي راجع مثلا :
انور الجندي، اعلام واصحاب اقلام ، ص ٢٧ ٢، د.محمد احمد خلف الله ، الكواكبي : حياته وآراؤه ، ص١٠٧ وما بعدها .
وانظر :
al - Husri, Khaldoun Sati, **Three Reformers,a Study in Modern Arab Political Thought**, p.85.

(٤٧) **Al, Husri** , op. cit., p. 92.

(٤٨) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١٠٢ .

(٤٩) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١١٠–١١١ .

(٥٠) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١٢٥.

(٥١) انظر هذه المباحث كاملة في : طبائع الاستبداد ، ص١٢٥–١٣٠ وقد اشرت الى عناوينها في صفحة سابقة من هذا البحث .

(٥٢) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ص ٩٨. يشير الدكتور فهمي جدعان الى ذلك في كتابه: اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ، ويفسر مفهوم التقدم الذي يعتمد عليه الكتاب ، بنفس المفهوم الذي اورده الكواكبي . انظر ص ٢٩٦ ط ١.

(٥٣) ويشير الشيخ رشيد رضا في المنار ٥/٢٧٩ : وقد كنا على وفاق معه في اكثر مسائل الاصلاح ، حتى ان صاحب الدولة مختار باشا الغازي ، اتهمنا بتاليف الكتاب عندما اطلع عليه ، وربما نشير الى المسائل التي خالفنا فيها الفقيد في هامش الكتاب عند طبعه ، واهمها الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية .

انظر : د. سامي الدهان ، هامش ص ٥٦.

(٥٤) المولى الرومي هو من اهل القسطنطينية الذين حرم عليهم سياسة التلفظ بكلمات : حرية وجمعية ووطن ومراد ورشاد وخلافة وخلع ومبعوث ومعتوه ومختل ،.. الى نحو ذلك من الالفاظ التي تمس سياسة الوهم .

(٥٥) تطرق الدكتور فهمي جدعان في ص ٢٩٠ وما بعدها الى الحرية : اسس التقدم .

(٥٦) الكواكبي ، ام القرى ،ص ٢٨–٢٩ .

(٥٧) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص١٠٢ .

(٥٨) الكواكبي ، ام القرى ، ص ٤٦–٤٧.

(٥٩) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٣.

(٦٠) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٤.

لقد اشار الدكتور احمد خلف الله في كتابه : الكواكبي حياته واراؤه ، ص ٨٨وما بعدها ، الى الاسرة واهمية تعليم المراة .

(٦١) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٥ .

(٦٢) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٦٥ .

(٦٣) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٨.

(٦٤) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٧.

(٦٥) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٦.

(٦٦) الكواكبي ، نفس المصدر .

(٦٧) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ٥٨–٦٠ .

(٦٨) الكواكبي طبائع الاستبداد ، ص٥.

(٦٩) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص٩.

(٧٠) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ص ٨

(٧١) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ص٨ .

(٧٢) الكواكبي المصدر السابق ص٨ .

(٧٣) الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ص ١١.

(٧٤) راجع هذه الاسباب كاملة في كتاب طبائع الاستبداد من ص ١٣٨–ص١٤٩.

(٧٥) الكواكبي ، ام القرى ، ص ١٣٩ – ١٤٠ .

(٧٦) لم تكن محاولة التتريك ظاهرة بشكل واضح في هذه الفترة ، ولكن الجمعيات التركية السرية كانت قائمة ونشطة ، ولكنها ظهرت بشكل علني بعد اعلان اعادة المشروطية (الدستور)١٩٠٨

(٧٧) راجع بحثنا حول : تطور مفهوم اللامركزية ، مجلة دراسات تاريخية، العددان١٣، ١٤، ص١٢٨–١٨٥

(٧٨) لقد تاثر حزب العهد السري بكتابات الكواكبي وطالب بقيام دولة اتحادية بين العرب والترك يحمل فيها السلطان العثماني التاج المزدوج كما هو الحال بين النمسا والمجر .

(٧٩) الكواكبي ، ام القرى ، ص ١٤٢.

(٨٠) الكواكبي ، ام القرى ، ص١٤٥.

(٨١) الكواكبي ، ام القرى ٢٠٧–٢٠٩ .

(٨٢) هناك من يربط بين افكار الكواكبي وافكار الكاتب الايطالي « فيتوريو الفييري » ALFIERI في مقالاته عن الاستبداد ، وبين افكاره وافكار جان جاك روسو في العقد الاجتماعي ، وهذا الموضوع بحاجة الى دراسة مقارنة اكثر شمولا من هذه الدراسة .

(٨٣) سنشير في دراسة لاحقة الى تجاوب مؤسسي جمعية العربية الفتاة ، مع نداءات الكواكبي ، والى محاولتهم الاستفادة من اهداف ذلك الاهداء .

أوضاع الفلاحين في دمشق وصناجقها
١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ / ١٧٧٢ - ١٨٤٠م

د. يوسف جميل نعيسة
جامعة دمشق

شكلت هذه الفترة ارهاصا لمتغيرات هامة في بلاد الشام والممتلكات العثمانية بفعل ما طرأ على الساحتين الدولية والداخلية من احداث ، الامر الذي انعكس بشكل سلبي على مدن بلاد الشام وريفها . الا ان الفلاحين ، كانوا اكثر فئات المجتمع الشامي تعرضا للابتزاز والظلم ، في وقت غابت فيه سلطة القوانين وحل محلها سلطان القوة .

عاش مجتمع بلاد الشام حياة زراعية قامت على خدمته فيهابعض الحرف وانواع من التجارة ، وشكل الفلاحون القاعدة العريضة في الهرم الاجتماعي معتمدين على الزراعة وتربية المواشي . استقر الفلاحون في دمشق وضواحيها واريافها ، وفي المناطق الجبلية المحيطة بها ، وفي السهول الجنوبية . وقامت تجمعاتهم في غالب الاحوال على اصول قبلية عشائرية او اسروية ، ضمن القرية الواحدة او القرى المجاورة او على اساس طائفي ، وفي القليل النادر على اسس عرقية ، كفلاحي حتيتة التركمان في غوطة دمشق او السريان في جبعدين ومعلولا او الاكراد في ربض ركن الدين وقريتي قلدون والزبداني، وكان لكل قرية شيخها، كما كان للبساتنة شيخ يدعى « شيخ البساتنة ».
كان شيخ القرية رئيس الاسرة الاكثر قوة ونفوذا فيها ، ونظرته الى الفلاحين نظرة السيد السالب لراحتهم فضلا عن أموالهم ،بطرق واساليب مختلفة(١) ، هذا ان ارضى سادته من الاقطاعيين وهيئة الحكام التابع لهم ، كالمقدمين والاعيان أو القضاة والمفتين او الاغوات ، الذين كانوا يضمنون مال الميري من الدولة بالمزاد العلني ،

ويحاولون وبشتى الوسائل جمع اضعاف ما دفعوه للدولة من جيوب الفلاحين ، فيفتعلون الخلافات بين مشايخ القرى وغرمائهم ، ويذكون نار الفتنة فيما بينهم ، ويعزلون شيخ الضيعة بغية ابتزاز الاموال منه ومن غريمه الطامح للمشيخة(٢) .

وجرت العادة على ان يترأس شيوخ القرى شخص يطلق عليه اسم « شيخ مشايخ القرى او المقاطعة » واعترفت الدولة العثمانية بسلطته . وكان هذا على الغالب من الاقطاعيين أو من رؤساء القبائل القاطنة في تلك المقاطعة ، أو من زعماء السباهية أو رجال الدين او الانكشارية ، واحيانا احد مشايخ القرى ، وكان يقوم بجمع الضرائب للدولة من مشايخ القرى التابعة له تسانده في ذلك قوات مسلحة خاصة به(٣) ، كما اتخذ له معاونين ووكلاء اطلق عليهم اسم مشايخ تعزيزا لهم ، وفرض عليهم تأدية مبالغ محددة دون ان يسألهم عن أعمالهم ، فأطلقوا لمطامعهم العنان في مص جهد الشعب بلا شفقة واستبعدوا الفلاحين واتوا بالمنكرات وجاروا ، والفلاحون في طاعة عمياء(٤) .

فئات الفلاحين : كان الفلاحون اكثر عددا من بقية فئات سكان بلاد الشام الا ان نفوذهم السياسي كان شبه معدوم ، ولذلك جاؤوا في المرتبة الدنيا من السلم الاجتماعي ، ويمكن تصنيفهم انذاك الى فئات ، ادناها فئة الفلاحين الخاضعين لغير الاقطاع مباشرة ، وهم افقر الفئات ، حتى ان زواجهم خضع لموافقة الاغا او البيك او الشيخ ، والفئة الثانية هم العمال الزراعيون الذين كان دأبهم التجوال للحصول على لقمة العيش أنى وجدت ، والثالثةهم الفلاحون الفقراء الذين كانوا يملكون قطعة ارض صغيرة لاتكفيهم للحصول على العيش ، فيضطرون لتقديم خدماتهم لاغنياء الفلاحين، او يعملون في المدينة اعمالا مختلفة . اما الفئة الرابعة فهم الفلاحون متوسطو الحال ، الذين ملكوا قطعة من الارضتغل عليهم ما يكفي لتامين حياة متواضعة في القرية . والفئة الخامسة من الفلاحين هي فئة الفلاحين الاغنياء ، وكانوا يقومون بتشغيل فلاحين اخرين في أرضهم وتحت اشرافهم مباشرة ، وهم غير منتجين ولكنهم لايعرفون التبذير . والفئة السادسة هي فئة فلاحي الدولة الذين عاشوا في قلق دائم ، الا ان احوالهم المادية كانت احسن من احوال الفلاحين الذين عملوا لدى الاقطاعيين(٥) .

ملكية الارض : شكلت ملكية الارض ونوعيتها الدعامة الاساسية للوضع الاجتماعي لفئة الفلاحين ، ومن هنا تبدو اهمية التعرف على أنواع الملكية وأشكالها، وعلى ما كان منها تحت تصرف الفلاحين مباشرة وعلى مساحاتها ، وفي ذلك شيء من الصعوبة نظرا لتعقد نظامالملكية واختلافه من مقاطعة لاخرىفي ولايةالشام منجهة ،

وعدم توافر احصاءات دقيقة في هذا الميدان من جهة اخرى ، ومع ذلك يمكن رصد أربعة اصناف رئيسة من الملكية وهي :

١ ـ اراضي الدولة او الاراضي الاميرية او الميرية ، وكانت تعتبر ملكا للسلطان (امير المؤمنين) .

٢ ـ اراضي الاوقاف ، وهي التي حبست على وجوه خيرية عديدة ، كان منها الاسلامي والمسيحي واليهودي ، كما وجدت أوقاف ذرية ، حبست على ذرية الواقف.

٣ ـ اراضي الملكية ، وكانت قليلة اذا ماقيست بسابقاتها من الملكيات ،ولصاحبها حق التصرف بها بيعا وشراء واهداء ، وكانت الدولـة تتقاضى عنها ضريبـة العشر والخراج ، وتجبى الضريبة منها على اساس الغلة ، وتسمى في مثل هذه الحال (خراجا مقسما) ، اوعلى أساس المساحة وتسمى (خراجا موظفا)(٦) .

٤ ـ والنوع الرابعمن الاراضي هو (ارض الحوز) وهي غير عشرية ولا خراجية وهيالتي توفي اربابها عنها بلا وارث وآلت الى بيت المال ، ويجوز للامام دفعها للزراع باحدى طريقتين اما باقامتهم مقام الملاك في الزراعة وبالتالي يدفعـون الخراج عنها ، او بتأجيرها لهم بقدر الخراج ، فيكون المأجور من حق الامام خراجا ، فان كان دراهم فهو خراج موظف ،وان كان بعضه ثمرا فهو خراج مقاسمة(٧) . وينتج عن تأجير مثل هذه الاراضي اقامة المستأجرين بيوتا عليها ، او زرعهم شجرا فيها بقيت أصولـه ، واطلق على ذلك تعبير (القمامة والكراب) ولقد استفتي في شأنه عدد من مفتي دمشق في هذه الفترة(٨) .

الا أن أوسع المساحات من الاراضي الزراعية كانت تنضوي تحت نظام الاقطاع. ولعجز الاقطاعيين عن تلبية حاجات الدولة في المجالات العسكرية اصروا على الاعتماد على صنف جديد من الجند خصصت لهم الرواتب . وكان لابد من توفير المال لهؤلاء، لذلك فرض العثمانيون نظام الالتزام للضرائب الميرية بتحصيلها من الاراضي . الا ان هذا النظام فسد بدوره نظرا لما سببه من مظالـم للفلاحـين ، ونتـج عنه تقلص في المساحات المزروعة بسبب هجرة الفلاحين منها ، فتناقص الانتاج الزراعي وتناقصت معه واردات الدولة ، مما اضطرها لاتباع نظام ثالث جديد في هذا المجال وهو نظام « المالكانة » بحيث تعطي للاقطاعي حقا في استثمار الاراضي الميرية مدى الحياة وذلك من اجل رفعالمظالم عن الفلاحين والسعي لاستزراع الاراضي وزيادة الانتاج . ويلاحظ ان المالكانات في دمشق قد خصصت لزعماء الجند والسباهية ورجال الدين وغيرهم ،

فمثلا حسين الموصلي المتوفى سنة ١١٥٢ هـ / ١٧٢٩ م كان من زعماء السباهية وله عدة اقطاعات في القرى(٩) ، ثم درويش اغة اليرلية في دمشق المولود سنة ١١٢٦هـ / ١٧١٥ م تولى بطريقة المالكانة قرية معلولا النصارى وقرية غزة وقرية قب الياس(١٠)، كما ان غيضة السلطانية بناحية المرج من غوطة دمشق كانت مالكانة لمحمد خليل افندي الصديقي(١١) . وكان اعلي العجلاني (وهو من اشراف دمشق) اقطاعات وقرى بطريقة المالكانة(١٢) ، ثم شاكر العمري الحنفي المذهب الدمشقي المولود ١١٤٠ هـ / ١٧٢٧ م والذي كان مدرسا ، حصل على رتبة التمثلي وتولى قضاء جبلة بطريق الاربلق كما تولى القسمة العسكرية ونيابة محكمة الباب في دمشق مرارا رست عليه قرية بسيمة من نواحي دمشق بطريقة المالكانة(١٣) .

وكان اصحاب المالكانات يقيمون في دمشق او في الاستانة ، ويلزمون مالكاناتهم لاناس اخرين مقابل مبلغ من المال وعقد يكتب في احدى محاكم دمشق . وعلى سبيل المثال كان لاحمد بيك بن حافظ علي باشا مالكانات كفر بطنة وحرزمة ، وكانت هذه المالكانات بتلزيم حافظ آغا بموجب شرطنامة مؤرخة في ١٢٥١ هـ / ١٨٢٦ م . ولما توفي الملتزم المذكور لزمت لحسين آغا كمخلي الشهير بالبلطجي من طرف الشرع الشريف ، ودفع بدل الالتزام على المنوال السابق لتركة المرحوم حافظ آغا وقدره /٦٥٠٠/ قرش وجمعت اليه جميع ما بتصرف حافظ اغا من ملك المالكانة على جري العادة والقانون (١٤) . وكانت مالكانة عين التينة للحاج سليمان افندي العلمي « كلار اميني » الذي كان يقيم في الاستانة ، وكان وكيله عليها في دمشق عبد الرزاق قباقيبي (١٥) .

وعينت الدولة على القرى موظفين مثل الصوباشي والاستاذ . اما الصوباشي فكان له على كل قرية عدد من غرائر الحنطة والشعير نظير مكيول الشوبصة ، ففي سنة ١٢١٧ هـ مثلا كان على قرية العمارة نظير مكيول الشوبصة ٨ غرائر حنطة و ١٧ غرارة شعير(١٦) . اما منصب الاستاذ فكان موروثا من عهد الاقطاع في زمن المماليك وبقي في العهد العثماني سائدا ، الا اننا لا نعرف مهامه بدقةوجل ما علمناه انه كان يقيم في دمشق بدلا من قرى المالكانات ، وتجري المعاملات المتعلقة بالمالكانة بمعرفته وبحضوره في محاكم دمشق . ومن اساتذة هذه المالكانات التابعة لدمشق استاذ قرية الجعيدية(١٧) وعين التينة (١٨) واستاذ جبعدين(١٩) والبلاية (٢٠) واستاذ حوش عرب(٢١) بالقرب من قرية العال بالجولان . ثم استاذ قرية سكا واستاذ زبدين واستاذ الصنمين واستاذ قرية حلبون(٢٢)، ثم استاذ قرية الخناصر وكامد اللوز بالبقاع (٢٣) .

طرق المزارعة : تنوعت طرق المزارعة واختلف استغلال الفلاحين من منطقة

لاخرى ، فكان على الزراع منهم خدمة الارض وحرثها وزرعها وحصد محصولها ودرسها وذريها ، ولهم على ذلك ثلث المحصول(٢٤) . وكانت طريقة المرابعة اكثر اشكال المزارعة انتشارا وفيها يقدم الاقطاعي او المعلم « البقر والبدارات والميري وجميع المصاريف والفلاح يقدم تعبه فقط وياخذ ربع الرزق من جميع الاشياء من حبوب وتوتون وحرير وقطن وذرة وسمسم وغير ذلك ولهذا اسمه مرابع ويعني شريكه في الربع»(٢٥) . ومن اشكال المزارعة أيضا طريقة الشراكة الحموية وهي على أنواع أولها : ان يقدم المالك السكن والارض في حين يقدم الفلاح العمل ، وتقسم النفقات الاخرى من بذار وغيره مثالثة ، وبعد دفع الضرائب وغيرها من النفقات يقسم المحصول مناصفة. والطريقة الثانية « يضع المعلم النصف والفلاح النصف الاخر من جميع الامور من الميري الى كل مصروف ويقتسم الرزق مناصفة وبعد القسمة يأخذ الفلاح الربع من حصة الشركة نظير اتعابه عليها »(٢٦) . اما الثالثة « المعلم يحط كل شيء من كيسه من غير الميري الى شيخ الضيعة عليها مبلغ معلوم يطلب من الشيخ . والشيخ بدوره يطلبه من الرعية . وقبل تقسيم الرزق فيما بين الفلاح ومعلمه يأخذ الشيخ الحاصل من جميع الذي يطلع من الستة واحد وفي محلات اخرى من الخمسة واحد وهذا يتبع الاراضي الجيدات والخسعات ». والنوع الرابع والاخير في الجبال والمقاطعات المحيطة بدمشق « فاذا اراد احد يضمن ضيعة من المقدم فلا يتكلف الى شيء كليا ولا يحط الفلاح شيء كليا ، فقط عليه ان يدفع الميري المرتب على الضيعة من الفلاحين ويأخذ من الحنطة والشعير وكامل الحبوب الربع ومن الحرير والتوتون النصف ، ومن الزيتون والفواكه كلها وله على الفلاحين اشيا راتبة أربعة مرات في السنة زخاير معلومة كبار من فحم وحطب وخواريف وجاج وبيض ولبن وحليب وهكذا اشيا فهذه ظاهرة لكن دائما متصلة الزخاير الخدمات الى بيت الضامن ، ولكن لا يقدر الضامن يعمل حركات مثلما يصير في الضيع الساحلي ، مثل حكاية العرايس خوفة من المقدم، بل يقتضي يمشي بكل ضبط مع الفلاح »(٢٧) .

وكانت نسبة الميري في قرى الغوطة ٥ر١٢ ٪ ، في حين كانت في قرى حوران تقدر بحسب الفدان . وهكذا كانت القرية تدفع اثنى عشر كيسا للميري ، فاذا كان هناك ثلاثون زوجا من الثيران فان صاحب كل زوج من الثيران يدفع جزءا من ثلاثين . وكل قرية مسعرة بالنسبة لضريبة الميري في سجل ضريبة الارض الموجودة لدى الباشا او الدفتر دار بمبلغ محدد ، يتناسب مع عدد سكان القرية ، وفي كل ثاني او ثالث ربيع كانت اراضي القرية تقاس بحبال طويلة ، وعندما يترك أي فلاح القرية يوزع شيخ القرية المبلغ المترتب عليه على مجموع سكانها . وكان الفلاحون يتحملون الضريبة المترتبة على الافدنة المزروعة في ذلك العام كاملة . ويمكن ان تزداد او تنقص كمية المال فيما اذا كانت الثيران قوية او ضعيفة .اما اذا قلت كمية البذار المزروعة او الارض

التي زرعت بواسطة اصحابها ، فان كل ذلك لايؤخذ بعين الاعتبار ولهذا كان على الفلاح ان يحوي قطيعا قويا من الماشية وعليه ان يحرث مايستطيع من الارض ، فالبعض كان يزرع ٦ غرارات من القمح او الشعير في الفدان الواحـد ، والبعض الاخر يـزرع ٥ غرارات او ٧ غرارات . أما حدود الحقول فكانت تحدد بواسطة حجارة ضخمة .وكان الميري يدفع عينا او نقدا ، بحسب رغبة الباشا ، الا ان الفلاحين كانوا يفضلون دفعـه نقدا لانهم الرابحون بذلك .

واما قرى جبل حوران فكانت تدفع مغارم اكثر من فلاحي سهل حوران المحيط بهم ، لانهم كانوا يدفعون بالاضافة الى الميري الخوات للبدو . فمثـلا دفعت قريـة (عمارة) عن الفدان الواحد ١٥٠ قرشا ، وقرية ازرع من حوران دفعت ١٨٠ قرشا. وكانت بعض قرى سهل حوران تدفع ١٢٠ قرشا . وفي عام ١٨١٢ وصل ريع الفدان الواحد الى ٥٠٠ قرش[٢٨] .

ــ ولما كان الانتاج الزراعي في بلاد الشام جماعيا ، كان على الفلاحين ان ينتجوا ما يكفيهم لسد حاجاتهم اليومية من جهة ، ولدفع الضرائب للدولة ، والاتاوات لرجالها وللبدو في المناطق المتاخمة للبادية ، من جهة اخرى .

الري : تفاوتت اهمية ملكية الارض في بلاد الشام بحسب نوعيتها وطرق سقايتها. فقد اعتمد فلاحو دمشق في زراعتهم على مياه بردى وبعض الينابيع الاخرى ، في حين اعتمد الاخرون ، خارج منطقة الغوطة وفي المناطق الجنوبية على وجه الخصوص ، على ما تجود به السماء من الامطار . وفي الاراضي البعلية ، كأراضي حوران مثلا، كان لشح السماء في بعض السنين العجاف ،وانتشار اسراب الجراد والفئران الحقلية والامراض الوبائية ، والصقيع والسيول في بعض الاحيان ، اسوأ الاثر على الفلاح الزارع في تلك الاراضي ، واذا ما حاول الفلاح مجابهة تلك الافات والادواء ،فبأساليب لم تستطع في احسن السنوات ، على الصمود لحالات الطوارىء الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية التي كانت تجابهه .

اما في الاراضي المروية ، وهذا ينطبق على فلاحي غوطة دمشق ، فقـد اختلف حالهم بعض الشيء عن حالة بقية فلاحي صناجق الولايـة ، لكون اراضيهم مرويـة بمياه دائمة من بردى وفروعه المختلفة ومن بعض الينابيع ، الامر الذي مكنهم مـن زراعة المناطق الاخرى خارج الغوطة . ولقد زرع فلاحو الغوطـة ارضهـم مرتين في السنة واستخدموا في ذلك اساليب الزراعة الحثيثة الموروثـة منـذ اجيال ، ولعب التشجير المثمر دورا في رفع سوية دخل الفلاح المادية ، على عكس المناطق البعلية .

ومع ذلك فقد لاقوا كغيرهم من الفلاحين العنت والارهاق حتى اضطروا لبيع اراضيهم بابخس الاثمان* . وقد امتلك الفلاحون في غوطة دمشق مساحات محدودة من الارض، وكان منهم الحراس او الاجراء . واستخدم الفلاحون البغال والجمال والحمير والبقر في جر المحراث الروماني القديم ، وكانوا يسوقونها بعد الانتهاء من الحراثة الى المعالف الخاصة بها حيث يقدم لها التبن والكرسنة او الفول او الجلبان، والماء لسقايتها .وكان لبعض هؤلاء اجر سنوي على ذلك .

وكان من الفلاحين (الشداد) او المستاجر او المزارع للحرث ، ومنهم الخولي . وهذا الاخير عمل لدى شداد الفلاحة او مستأجرها وهو ذو خبرة ومعرفة بسائرامور الفلاحة ، وكان يلاحظ مزروعات سيده الشداد ، ويقوم بالتفتيش على اشجاره خوفا من التكسير ويراقب المرابعين كما يستأجرالفعلة ايام الزبر والعزق والتجبيروالتعشيب والتنكيش وينوب عن سيده في اجورهم ، ويستلم قطعة خشبية محفورة يطلق عليها اسم (الروشيم) منقوش عليها اسم سيده او كلمة ياكريم يا حافظ او بركة . فيرشم بها اكوام الحنطة او الحبوب الاخرى(٢٩) . فاذا ما سرق أي شيء من هـذه الكومة ينفرط عقدها ويختفي الرشم فيكشف ذلك ويعاقب الفلاح الذي قام بالسرقة .

انظمة الري : اتبع الفلاحون في غوطة دمشق نظاما دقيقا في توزيع مياه بردى ، فكان لكل قرية في الغوطة ايام مخصصة تحصل فيها على حصتها من الميـاه ،وتعرف بالعدان . ولتحافظ كل قرية على عدانها ، عينت اشخاصا لهذه الغاية ، وكان يسمى احدهم « الشاوي » (٣٠) ولهم اجرة معلومة يتقاضونها سنويا ، وكانت مهمتهم تسريب المياه بنسب معينة ومنع أي اعتداء على هذه النسبة ، وهم الذيـن يحددون ادوار سوق المياه من قرية لاخرى . وقد كلف شيخ البساتنة والشوباصي بتحديد البساتين وشهدا على بيعها في المحاكم(٣١) . وكان على كل نهر عدد من (الماصات) لصرف الميـاه الى مجار فرعية بنسب معينة تقدر بالقراريط ، لتروي بدورها البساتين من خـلال الطواريق . ويقسم الطاروق الى شعاب (مفردها شعب) (٣٢). ولقد استخدم فلاحو الغوطة الذين لا تقع أراضيهم تحت مياه الانهار ، أو الذين لا تصـل اليهم مياههـا في فترات التحاريق من السنة ،مياه الابار لري اراضيهم ، واستعانوا على رفع مياهها بالنواعير العادية أو الفارسية التي تديرها الحيوانات ، واستخدموا في تسميد أراضيهم

* يقول محمد كرد علي : حدثنا الشيوخ .. ان اهل الغوطة كانـوا يلقون من العنت والارهـاق الشيء الكثير . فاذا دقت الطبلة وجاءت سرية من الجند لتحصيل المال المطلوب منهم ، وربما اقـام الخمسون جنديا مع خيولهم في القرية بضعة ايام حتى يتيسر جمع مال الدولة وبذلك كره الناس امتلاك الارض فنزل ثمن الفدان الى بضع مئات من القروش ، وربما كان الحقل يباع احيانا بلوح من الصابون او اوقية من التنباك ..انظرلوتسكي ، ص ١٢٥ .

القمامة التي يشترونها من كناسي القمامة ومن بعض الخانات في دمشق . واستخدم فلاحو القلمون الاقنية القديمة في مناطقهم ، وهي عبارة عن ابار متتالية تفصل بينها مسافات محددة بحيث تسمح المسافة لمياه البئر الاولى بالتسرب الى البئر الثانية تحت الارض وهكذا ، الى ان تخرج في النهاية على شكل نبع ماء متدفق يروي الاراضي التي تقع تحت منسوبه بالراحة . وكان يشرف على هذه القنوات والابار في القلمون شخص يطلق عليه (السواط) ويتناول اجرا سنويا على ذلك(٣٣) .

الفلاحون والاوضاع السياسية : ارتبط وضع الفلاحين بالظروف السياسية لولاية دمشق . وعلى ضوء ذلك يمكن رصد مرحلتين متميزتين : تمتد اولاهما من بداية القرن الثامن عشر الى نهاية الستينات منه ، لتبدأ المرحلة الثانية ، والتي تمتد الى الاربعينات من القرن التاسع عشر .

ففي المرحلة الاولى كلف ولاة دمشق بامرة الحج (١١٤٠هـ / ١٧٠٩ م) وتجهيز قافلته بما تحتاجه من مواد تموينية ، وكان ذلك يعتمد على ما تغله ارض الولاية . ولضمان زرع الارض كان لابد من توفير الامن للفلاح وتوفير اسباب الاستقرار له . ولقد تمكن ولاة دمشق الاقوياء ، الذين كانوا بمعظمهم من ال العظم ، والذين طالت مدة بقائهم في مناصبهم ، ان يحققوا ذلك بعض الشيء ، وان يدفعوا غارات البدو واعتداءات الجند عن الفلاحين . ويقول البديري ان احد الولاة من هذه الاسرة ، وهو اسعد باشا العظم « أرهب الكبار والصغار وعظم هيبته في البراري والقفار »(٣٤) .

وتستهل المرحلة الثانية بانتهاء فترة ولاة دمشق الاقوياء الذين اعقبهم ولاة كان للاحداث الخارجية والداخلية دورها في عجزهم عن تحقيق ما حققه السابقون للفلاحين من الامن والاستقرار ، فسادت الفوضى وانعدم الامن وزاد تعدي الاقوياء من الجند والبدو والهيئة الحاكمة على الفلاحين ، وعجز الولاة عن التصدي للحركة الوهابية التي اشتد ساعدها في الجزيرة العربية وسيطرت على الاماكن المقدسة في الحجاز ومنعت الحجاج من الدخول اليها ، فانصب جام غضب الدولة العثمانية على ولاة دمشق الذين عجزوا عن تسيير قافلة الحج وحمايتها فقصرت لذلك مدة بقائهم في مناصبهم ، وعمت الفوضى وزاد التعدي على الفلاحين . ففي عام ١٢١٨هـ/١٨٠٤ م مثلا عندما خرج السكبان والدلاتية من دمشق نهبوا في طريقهم « قرى المزة والمعضمية والجديدة وعرطوز . . وهكذا جميع البلاد هلي في طريقهم من حمير وخيل واواعي وغيرذلك»(٣٥) . وفي العام التالي قام جند والي دمشق ابراهيم باشا بعد عودته من الحج بنهب القرى(٣٦) . وكان الجند يتصرفون مع الفلاحين كسادة مستبدين فيطلبون الخبز والقهوة والتبغ واللحم ويذبحون الدواجن ويرافق ذلك الاهانات والاذلال . فكان

سيفهم مسلطا فوق رقاب الفلاحين يجبرونهم على السكوت على مظالمهم(٣٧) ، وكثيرا ما اجبروا فلاحي الغوطة المحيطة بدمشق للجوء الى اسوارها خوفا من اعتدائهم . فمثلا عندما جرى الصدام بين والي دمشق ووالي صيدا في عام ١٢٢٥هـ/١٨١٠ -١٨١١م « انتقلت اهل القرى والميدان الى داخل الصور خوفا من النهب والحرق »(٣٨) .

ولم يكن مصدر المتاعب والمظالم التي تعرض لها الفلاحون من عناصر الهيئة الحاكمة وزبانيتها فحسب ، بل اسهم بعض تجار دمشق بدورهم في هذه المظالم ، فكانوا يستغلون وضع الفلاح وحاجته للمال لشراء البذار والحيوانات او لدفع غائلة الجوع عن اسرته في بعض السنين . ولم يخفف نظام المالكانة التي اقامته الدولة في نهاية القرن السابع عشر الاعباء التي ارهقت الفلاحين ، لان هذا النظام لم يبدل طبيعة العلاقات الزراعية القائمة على الاستغلال ، واجبر الفلاحون من جهة اخرى على دفع اموال الميري على الاشهر القمرية في حين تنضج محاصيلهم حسب الاشهر الشمسية ، الامر الذي دفعهم للاستدانة من تجار دمشق بفائدة تراوح بين ٨و١٠ ٪ . وكان ابرز تجار دمشق الذين سلفوا الاموال للفلاحين بالفائدة خليل اغا بن عبد الرزاق المسودن ، الذي قام في ١٢٠٣ هـ بتسليف أهالي قرية سكا ٩٦٨٦ قرشا فضة صحيحة معاملة شامية ، وجاء تفصيل ذلك في سجل المحكمة الكبرى بدمشق على الشكل التالي : ٨٣٣٠ قرشا دين شرعي ، ١٦٦٦ قرشا ثمن بن حجازي وتم ذلك في المحكمة المذكورة ، وشهد شاهدان على ذلك(٣٩) . وفي الحقيقة لم يكن الفلاحون بحاجة لمثل هذه الكمية من البن التي يدعي شراءهم لها ، بل كان ذلك حتى لا تذكر الفائدة امام القاضي او تثبت في سجلات المحكمة لانهامحرمة ، مما دفع المرابين لاتباع مثل هذه الحيل للحصول على الفائدة . وقد لعبت السنون العجاف دورها في اجبار الفلاح على الاستدانة بالفائدة ، فكانت تتلقفه ايادي المرابين وبعض افراد الهيئة الحاكمة الثرية ليسلفوه على مواسمه فلا يبقى له « بعد عذابه في الفلاحة والزراعة والحصاد والدراس وغير ذلك من المشاق العظيمة ودفع الضرائب للدولة من غلاله سوى النذر اليسير . وحتى الاوزان لم تسلم من تلاعب التاجر عندما يستلم الحبوب منه فتصبح عشرة الفلاح تسعة ، واذا ماشترى الفلاح الفلال من التاجر تصبح احدى عشر ، فيرجع الفلاح المسكين صفر اليدين بعد أتعابه طول السنة وتعاد الكرة مرة اخرى وهكذا »(٤٠) . ويذكر الرحالة فولني الذي زار بلاد الشام في مطلع القرن التاسع عشر ان المرابين كانوا يفرضون على الفلاحين نسبة من الفوائد تتراوح مابين ١٢-١٣ ٪ . فاصبحت حالة الفلاح « بائسة واصبح مأكله الذرة والشعير مع البصل والعدس .. واذا ما توفر له الزيت والشحم فيعتبر ذلك من المآكل الشهية »(٤١) . أما ضريبة الاعشار فكانت اشد الضرائب وطأة على الفلاح لما اضيف اليها من الزوائد للسماسرة والملتزمين وارباب النفوذ . وكانت الاعشار تجبى سواء اثمرت ارضه أم لم تثمر ، بالاضافة الى

دفعه ضريبة الخراج التي بقيت على الفلاحين المسلمين الى ان الغيت في ٧ ايار ١٨٥٥ م (٤٢) .

ولقد استطاع ضامنو الاعشار من الدولة ان يجمعوا من الفلاحين نصف حاصلاتهم(٤٣) . اما صيارفة اليهود فقد لعبوا دورا امر وادهى في ظلم الفلاحين ، اذ استطاعوا ان يملكوا حتى نهاية منتصف القرن التاسع عشر جزءا كبيرا من اراضي الغوطة والربوة والمزة(٤٤) باستخدامهم طرقا ملتوية للحصول على الاموال . فمثلا عندما كانوا يكلفون بتمويل قافلة الحج وجنود حراستها ، كانوا ينصبون حبائلهم لابتزاز اموال الفلاحين فيقومون بتخفيض سعر النقد قبل موعد خروج قافلة الحج وكان امر ذلك بيدهم بطبيعة عملهم ، ثم يسلفون جنود حراسة قافلة الحج على شكل سندات تؤخذ منهم على حساب الضرائب التي ستجمع من الفلاحين من اموال الميري بعد نضج محاصيلهم . ولحاجة الجنود الماسة الى المال يقوم سماسرة اليهود الذين كانوا يترصدونهم خارج السرايا فيشترون منهم هذه السندات مع اخذهم عمولة على ذلك ، على ان يحصل هؤلاء السماسرة على اموال السندات المشتراة فيما بعد من الفلاحين . ويقوم الصيارفة اليهود بالتواطؤ مع ابناء دينهم السماسرة برفع سعر النقد ، قبل جمع اموال الميري من الفلاحين ، فيضطر الفلاحون عند تسديد ما عليهم من اموال الميري للدولة للدفع بالسعر المرتفع ، ويجني اليهود بذلك الارباح الطائلة من هذه العمليات . ولا غرابة اذا ما اصبح بعض اليهود اغنى سكان دمشق (٤٥) واضحى الفلاحون اشقى فئات الهيئة المحكومة وارتضوا الاستعباد على ان يكونوا احرارا مالكين للارض وذلك تخلصا من الاعباء والضرائب الثقيلة التي لا تتحملها نفس بشرية(٤٦)، فهجر العديد من الفلاحين قراهم حتى اصبح تدهور الانتاج الزراعي مشكلة خطيرة مما دفع بالسلطات العثمانية في استانبول لاصدار اوامرها الى والي دمشق في سنة ١٢٤٤هـ / للاهتمام بالارض والفلاحين وعدم السماح لهم بالتسكع بالشوارع(٤٧) .

امام الظروف الخارجية المستجدة والضاغطة على الاوضاع في الدولة العثمانية، حاول بعض السلاطين (سليم الثالث ومحمود الثاني) اجراء بعض الاصلاحات بما يكفل للدولة الصمود في وجه المطامع الاوربية ، خاصة بعدما برز للعيان مدى ماسيكون للثورة الصناعية في اوربا من اثار على الاوضاع داخل الدولة العثمانية ، وبخاصة على الحرفيين فيها . فقام السلطان محمود الثاني بالغاء اوجاق الانكشارية في ١٨٢٦م ، والغي مع السباهية ايضا نظام التيمار في ١٨٣١م ، واعقب ذلك ترتيبات اقتصادية وثقافية تكفل قيام نظام جديد في المجال العسكري يقوى على الصمود في وجه المطامع الاوربية وينهي مفاسد الجند التي استشرت وانعكست سلبا على الاوضاع الداخلية. الا ان هذه الاجراءات لم تحسن اوضاع الفلاحين في بلاد الشام ، حيث قام الحرفيون

القادرون ماليا وبعض التجار ورجال الدين وغيرهم بالحصول على المالكانات من الدولة العثمانية في غوطة دمشق وحوران والبقاع(٤٨) والمرج والقلمون وغيرها . وجل ما طرأ على حال الفلاحين من تغيير ، نتيجة لذلك ، أن بدلوا اسيادا جددا باسياد قدماء .

الفلاحــون في ظل الحكم المصري :

عندما احتل المصريون بـلاد الشام في ١٨٣١ م ، كانت أوضاع الفلاحـين قـد وصلت الى حالة مزرية ، فاكتظت المدن باعداد كبيرة من هجروا القرى طلبـا للرزق في دمشق وغيرها من المدن الشامية ، الامر الذي ادى بدوره الى حصول خلل كبير في توزيع السكان واليد العاملة بين الريف والمدينة . واصبحت مدن بلاد الشام تختنق بسكانها ولا تقوى على توفير فرص العمل لهم(٤٩) . وأصبح الوافدون الجدد اليهـا يزيدون ازمتهـا ضغثا على ابالة ، وبالمقابـل تراجـع الانتـاج الزراعي في الريـف بشكل مريـع واصبـح شبح المجاعـة يخيم على سكان بـلاد الشام في الريـف والمدينـة . وكان ذلك من أهـم المعضـلات التي جابهـت الحكم المصري ، لذلـك سعى المصريون لاعادة التوازن بين سـكان المـدن والريف(٥٠) لضمان تموين قواتهـم من جهة ولتوفير الدخـل المالي لخزينتهم ، فشجعـوا الفلاحـين على العـودة الـى القرى المهجورة والاستقرار فيها وزراعتها ، واتخـذوا اجراءات عديـدة لتحقيـق ذلك ، فضيقوا على الاقطاعيين وخففوا من هيبتهم وسلطتهم وبسطوا الامن علـى الريف والمدن ، مما وفر الجو المناسب للفلاحين للاستقرار ، فعاد معظمهم الى قراهم التي هجروها في السابق(٥١) ، ووزعت عليهم « الاراضي البـور وقام الحكم المصري باعطاء الفلاحين الدارهم من اجل زراعتها وادى ذلك الى كثرة الخيرات في بلاد سورية مع كل ذلك ما كان يكلف البلاد شيء ابدا وكانت ذخاير دائما متواصلة من مصر ، من بكسمات وشعير وحنطة وعدس وفول وذرة وسمن وارز وغيرو ثم أوعد بتشغيل كامل اراضي البور وعمارة كامل ضيع الخربانة»(٥٢) . وقام المصريون بتجفيف المستنقعات فتوسعت المساحات المزروعة ، ولم يكتفوا بذلك بل قدموا للفلاحين التقاوى والبـذار « حتى لا يصير ولا يبقى غدر للفلاحين في امر الزراعة ويفي الفلاح بما عليه من اموال الميري واذا لم يستطع فلاحو قرية ما او اكثر من دفع اموال الميري كان يعرض شانها على المجلس ويدعى للمذاكرة»(٥٣) .

وقام الحكم المصري بنزع سلاح البدو وتشجيعهم على الاستقرار ،وترك حيـاة الترحال وزراعة الارض، فاعفى من اقام منهم في الارض من الضرائب . كماالتفت الحكم المصري الى ناحية هامة في الانتاج الزراعي وهي عدم اثقـال كاهل الفلاحـين الذين استقروا مجددا في الارض بالضرائب فاجل دفعهم للضرائب من سنة الى اخرى ، كما

حصل لفلاحي « قرية تلعران في ولاية حلب فكانت القرى المسجلة بدفتر الشواهي بثلاثة ارباع شاهيةوحيث انها عمار جديد وعمار الجديد يلزم له مساعدة لاجل ترغيب الفلاحين بالعمار فينبغي ان تتقيد القرية المرموقة بنصف شاهية يكون ترتيب المال عليها من ابتداء سنة ١٢٥٢ هـ »(٥٤) واستخدم الحكم المصري قواته ، وحتى الضباط منها في زرع الارض .

واتاح الحكم المصري للفلاحين ان يتقدموا بشكواهم الى الحكمدار فيما اذا وقع اي ظلم عليهم في مجال تقدير الفدن في القرى والضرائب على الاشجار المثمرة(٥٥). وكانت شكوى الفلاحين تلقى اذانا صاغية من قبل ذلك الحكم . وتساهل المصريون في جمع اموال الميري بحسب رغبة الفلاح الذي كان يفضل دفعها نقدا ، مما خفف عنه مسؤولية تموين الجيش (الشونة) قدر الامكان(٥٦) . ووضع المصريون متسلمين على الصناجق يرتبطون مباشرة بالسلطة المصرية في دمشق ويخضع لهم شيوخ القرى المجاورة. وتحت رئاسة كل متسلم ، شكلت السلطة المصرية مجلسا استشاريا او (شورى) من الملاكين والتجار والرؤساء الروحيين ، وعهدت الى هذه المجالس بوظيفة المحاكم الدينية(٥٧) ، وعينت موظفا خاصا لتحصيل اموال الميري من الفلاحين وهو (الناظر) او (اغاسي) ، وحددوا لناظر القرايا المبلغ الواجب اخذه من الفلاحين دون ان يظلمهم وكان ثمة دفاتر لشونة الجيش ، فاذا ما اضطرت السلطة لاخذ الشونة ، قامت بتوزيعها بالعدل على قرى الصنجق(٥٨) وعينوا ناظر نظار في الصنجق وقسام اموال الميري الذي كان يقوم بجمعها من الفلاحين . وكان ذلك بمثابة تحول كبير في حياة الفلاحين انذاك ، اذا ما قيس بعهود الظلام التي عاشها الفلاح في الفترة السابقة للحكم المصري . الا انه ، مع ذلك ، بقي الفلاحون يشكون من المظالم ، وكان على راسها ابتزاز اموالهم من قبل الجند وبعض عناصر الهيئة الحاكمة واجبارهم احيانا على تأمين مبيتهم وطعامهم وتامين عليق خيولهم والحراية .

وكان التجنيد عقبة في وجه الانتاج الزراعي ، مما دفع بابناء الفلاحين الشبان للفرار والاختفاء فافتقرت الارض لليد العاملة ، وطلب مشايخ القرى من السلطات المصرية ارسال الجنود من (القشلة) الى القرى لجني المحصول ليتمكن المشايخ من دفع اموال الميري المترتبة على قراهم(٥٩) . ومع ذلك بقيت شعاب الجبال والمناطق النائية بعيدة عن متناول السلطات المصرية . وتغير حال الهجرة فانعكس اتجاهها من المدينة الى الريف ، وربما اسهم في ذلك الفرار من الجندية . وبشكل عام اصبح حال الفلاحين والزراعة افضل منه في الفترة السابقة للحكم المصري ، فزادت المساحات المزروعة وعدد القرى المسكونة(٦٠) .

الا ان الحكم المصري لم يقض على اسلوب الانتاج الاقطاعي وسيطرة الاقطاعيين على الفلاحين ، وان كان قد عمل على تحديد سلطاتهم السياسية ، مما ادخله في صراع معهم ، كما حصل في مناطق حوران واللاذقية ولبنان . ودفع الفلاحون ثمن هذا الصراع . ومن جهة اخرى ، ونتيجة لسياسة الحكم المصري في تصدير المنتجات الزراعية ، زادت المساحات المزروعة من الزيتون والقطن والحرير على حساب الزراعات الاخرى ، فاضطر المزارعون الصغار لزراعة صنف واحد ، واثر ذلك على زراعة ما يكفيهم ويسد حاجتهم من المزروعات الاخرى التي كانت سائدة قبل دخول المصريين ، فعجزوا عن تامين كفايتهم الذاتية واضطروا لشراء السلع الاوربية والتعامل بالنقد بدلا من المقايضة ، واثر ذلك على مستواهم المعاشي(٦١) . وحاول المصريون تخفيف وطأة المتغيرات الاقتصادية على الفلاحين، فقام متسلمو الصناجق بالتخفيف من وطأة الجند المصريين على الفلاحين ، بأن خصصوا (قوناقات) في القرية لنزول الجند فيها عند الحاجة ، وصرفوا لهم العليق والجراية من مرتبات استحقاق الميري على القرية، وكلفوا ناظر الشونةبتسجيل ذلك في سجلات خاصة ، واذا ما حصل اي اعتداء من الجند على الفلاحين كان يوقع بهم « جزاء لايق »(٦٢) . وعلى الرغم من التغييرات التي اجراها الحكم المصري والتي انعكست فيبعض جوانبها ايجابيا على أوضاع الفلاحين ، الا انها من جهة اخرى كان لها تأثيرها السلبي عليهم فانعطف بذلك موقفهم وبشكل حاد ضد السلطة المصرية ، وكان من أهمها تسخير الفلاحين في اعمال التحصينات التي اقتضتها الاجراءات الدفاعية عن بلاد الشام وزيادة الغرامة عليهم للايفاء بتلك الحاجيات ، وتجنيد الفلاحين في صفوف القوات المسلحة المصرية ، الامر الذي لم يعتادوه من قبل، مما دفع الاقطاعيين المحليين لاستغلال ذلك ضد السلطات المصرية فقادوا الفلاحين في انتفاضات مسلحة كان ابرزها ما حصل في فلسطين ١٨٣٤ وفي حوران والجبل الشرقي ١٨٣٧ م . ناهيك عن ربط الاقتصاد الشامي بعجلة الاقتصاد الراسمالي الاوربي ،وما نتج عن ذلك من اضرار بالغة بمصالح الفلاحين ، وادى بدوره الى زيادة ديونهم وبالتالي الى اضطرارهم لبيع اراضيهم بابخس الاثمان ، فانتقلت ملكية اراضي قرى عديدة في الغوطة والمرج من الفلاحين الى اسر دمشقية غنية ،كقرية زبدين وبالا والحديثة والمحمدية والافتريس ، وتحول ملاكها السابقون الى متسكعين في شوارع دمشق .. وقامت تلك الاسر الدمشقية الغنية (المالكة الجديدة لتلك الاراضي) باستخدام وسائل عديدة لمنع الدولة العثمانية من مصادرة تلك الاراضي، فحولتها الى اراض وقفية،وقامت باخراجها من ملكية الوقف الى مالكها الخاص باستخدام اساليب ملتوية (كالتحكير والاحترام والامارتين والمرصد) .

وبخروج المصريين من بلاد الشام واستعادة الدولة العثمانية لسيطرتها قام

السلطان عبد المجيد باصدار فرمانات سلطانية لاعـادة الاراضي التي سيطر عليهـا المصريون الى ملاكها الاصليين ، الا ان ذلك لم يحسن من أوضاع الفلاحين بل زادت سوءا ، وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بما آل اليه حال فلاحي غوطة دمشق : جاء في احداث ١٢٥٩هـ / ١٨٤٤م ، ان اهالي قرية الشفونية قد اثقلوا بالديون، ومما جاء في طلبهم نتيجة لذلك الى قضاة دمشق ، تقسيط ما عليهم من الاموال والديون للدولة لعجزهم عن تسديدها دفعة واحدة(٦٣) .

الاسرة الفلاحيـــة :

ازاء الظلم والقهر اللذين مارستهما السلطة العثمانية من خلال أدواتها المتعددة ضد طبقة الفلاحين ، ازداد تكاتف الاسرة الفلاحية الصغيرة من خلال تنظيمات أكبر، كانت مبنية على اسس اسرية او عشائرية او قبلية . شملت قرية او قرى عديدة .

لهذا كان من المنطق ان يسود تنظيم الاسـرة الواسعة على حسـاب التنظيمات الاجتماعية الادنى ، « وسعت بعض الاسر لاكثار نسلها ، فلجأت الى استيلاد الزوجات بشكل مبكر ، ومجدت الخصوبة لديهن ، وزوجت افراد الاسرة في سن مبكرة ، وطلقت العاقرات »(٦٤) من الزوجات او اهملتهن ومجدت الذكورة لان الذكر عامل ومقاتـل وحافظ للنسل ، ولا يحتمل جلبه للعار كالانثى ، ولا يحتاج للحماية مثلها .

وفي مجال ملكية الارض والعمل عليها قامت الدولة العثمانية بسن القوانين لتنظيم انتقال حق التصرف بالارض وحصره ضمن نطاق الاسرة الواحدة لتضمن بذلك دفع ما يترتب عليها من الاموال والضرائب . فبقيت الارض مشاعة في الاسـرة . وسعت الدولة لتخفيف التأثيرات السلبية على الزراعة الناتجـة عن هجرة الفلاحين للارض والقرية فوقفت في وجه هجرتهم ، واعطت حق التصرف في الارض الواسعة لاهل القرية، وكان عليهم دفع الضريبة عنها مهما تناقص عددهم . وادت هذه السياسة الى ترسيخ الاسرة الفلاحية الواسعة .

ومن جهة اخرى خففت الروابط العائلية التي تربط افراد الاسرة الفلاحية مـن تأثير قوة القهر والظلم التي فرضت على الفلاحين من اصحاب الارض ورجال السلطة، فعاش الفرد ضمن مجتمع يقنعه بان النظام السائد هو افضل النظم رغم القيود التي كانت تغله(٦٥) .

وعرفت الاسرة الفلاحية تماسكا صلبا في داخلهـا مكنها من الصمـود لاقسى

الظروف التي تعرضت لهانتيجة لتكاثف افرادها وتوزيعها لقوة الضغط ، مما ساعدها على الاستمرار والامتداد والتفرع ، وشد افرادها من ازر بعضهم بعضا في السراء والضراء ، وزاد في تماسكها توجه افرادها في زواجهم الىداخلها(٦٦)، فكلما بردت حرارة القربى بعث فيهم زواج جديد دفئا جديدا . ولقد قسمت قرى الفلاحين الى حارات سميت الواحدة منها باسم احدى الجهات الاربع او احدى الاشجار المعمرة او احد الينابيع او المزارات ، أو احدى الاسر ، ووجد في القرية احيانا نجار وحداد وصانع فخار وبيطار وبناء ومجبر وكحال ، واحيانا داية ، وكلهم يقدمون خدماتهم لاسر القرية ، كما كان فيها بائعون وحراس ومسجد أو كنيسة أو كلاهما . ورغم سعي السلطات المصرية لتعمير القرى واعادة الفلاحين الى المهجور منها ، وتشجيعهم على الاستقرار فيها وتوطين البدو ، الا ان الاسر الفلاحية المسلمة تعرضت لهزات كبيرة فاقت معظم الهزات التي تعرضت لها في الفترة السابقة ، وبرز ذلك في فرض المصريين لنظام التجنيد الاجباري، وما ترتب عليه من سحب الشباب من قراهم الى مصر لاعدادهم وتدريبهم على فنون القتال . ولم يكن الفلاحون ، وابناء بلاد الشام بشكل عام، قد اعتادوا على ذلك من قبل ، وشعرت الاسر بان التجنيد سيفقدها ابناءها . وللتخلص من ذلك لجأت الى تشويه اعضاء ابنائها لتخليصهم من السوق الى الجندية ، فسملت احدى عيني الشاب او قطعت احدى اصابعه او كسرت رجله، فيصبح الشبان بذلك « سقطات غير نافعين للعسكرية واكثرهم يهربوا يتخبوا بالحروش ودغلات الاشجار» واذا ما القي القبض على الفارين يربطون مع بعضهم ويرسلون الى المدينة « مقيدين بالجنازير الى حين ارسالهم الى مصر » فمات الكثيرون من الشباب وفر الاباء « حتى لا يقروا على ابنائهم » اما في المدن فكانت الاسر تخبىء ابناءها تحت الارض سنين طويلة « من غير اظهارهم على وجه الارض وصار الكبار تخبىء اولادها في بيوت القناصل ومنهم من يسفر اولاده على خارج ايالة الحكم المصري مثل قبرص وكريد واضاليا وبر الترك واسلامبول وأزمير وغيرها لاسيما عند العرب للجول ، واستمر ذلك زمان طويل حيث ما هو مرة واحدة بل خمس مرات حيث عريت البلاد من الشباب فكلما صار عنده مبلغ من الشباب المملوكين يرسلهم الى مصر ويجيب عسكر مصري بدلهم الى سورية»(٦٧). ولم تقو الاسر الريفية على اعفاء ابناءها من التجنيد الاجباري كما فعلت بعض الاسر الغنية التي استخدمت الرشوة في تحقيق ذلك ، وانعكس هذا الوضع بشكل سلبي على الاسرة الريفية وانتاجها .

وعلى الرغم من ان الروابط العشائرية قد وفرت الامن والتعاون بين الفلاحين ، الا انها من جهة اخرى جرت الويلات عليهم في وقت غابت عنهم حماية سلطة القانون. فساد الاقوياء وذر قرن الخلافات العائلية والعشائرية والتي لم تكن بعيدة عن تأجيج نارها ، بين الفينة والاخرى ، عناصر الدولة العثمانية ، وذلك لاضعاف الطرفين

المتخاصمين وضمان احكام قبضتها الواهنة عليهما وابتزاز اموالهما . ويقول صاحب المقترب في حوادث الحضر والعرب : « كان ديدبان الحكام وكبار البلد القاء البغض وعدم الرفق والمحبة بين الفلاحين . ولولا وجود البغض بينهم لما كان احد قــدر شرب ماء من عندهم » (٦٨) .

لقد جرت الصدامات على الفلاحين الويلات والكوارث فازهقت الارواح وهدمت البيوت ونهبت المواشي والارزاق وقطعت الاشجار وحرقت البيادر وردمت ابارالمياه، وهجر العديد منهم قراهم ، ولم تقتصر الصدامات على فئتين تنازعتا في القرية الواحدة بل حدثت احيانا بين قرية واخرى، او بين عدة قرى في المقاطعة الواحدة . هذا ناهيك عن اعتداء البدو على فلاحي قرى منطقة المرج من دمشق او القرى التي كانت تقع على حوافي البادية ، ففرضوا الخوات على سكانها ورعوا كل اخضر ، خاصــة في السنين العجاف . وزاد الطين بلة ضعف السلطة العثمانية وعجزها عن دفع اذية البدو ممـا دفع بالفلاحين لهجر قراهم . ويقول الرحالة بوركهارت : « قليلا مانرى الفلاحين الذين ولدوا في قرية من حوران ، يموتون فيها لكثرة ترحالهم كالبدو تقريبا فلا يستقرون في قرية حتى يمارس عليهم نوع من الاضطهاد والعسف فيدفعهم ذلك للهجرة الى قرية اخرى وكثيرا ما لعب اضطهاد شيخ القرية دورا في هذه الهجرة ، وادى ذلك بدوره الى بروز ظاهرة عدم تشجير الاراضي الزراعية في حوران ، وغياب الارض المزروعــة بالخضروات حيث يقول الفلاحون : نحن لا نزرع هذه الارض من اجل الغرباء»(٦٩) اي انهم لن يقطفوا ثمار ما زرعوا لاضطرارهم للهجرة بسبب تلك المظالم او الخلافات .

انزل الفلاحون محاصيلهم الى المدينة وبدت علاقاتهم بها علاقة اقتصادية ذات منفعة متبادلة وتجري بالنقد المتداول(٧٠) ، في حين كانت علاقاتهم مع بعضهم البعض تقوم على النقد او على اساس المقايضة . ورغم المنفعة المتبادلة بين ابناء الريف والمدينة، فقد ساد البرود علاقة الفلاحين بالمدينة ، ولم يكن الفلاح ليحظى بالاحترام من ابنائها بل كان محط سخريتهم(٧١) . ومع ذلك فان فلاحي الغوطة شاركوا بعض فئات مدينة دمشق في الصراعات السياسية ، وانتصروا لهم بتأثير روابط العصبيــة الجاهليــة . فمثلا اهل الحقلة انتصروا لاهل العمارة في صراعهم مع اهل الميدان ، كما اعتمد ابناء دمشق على الفلاحين عندما ثاروا على محمد سليم باشا بســبب ضريبــة الصليــان في عام ١٨٣١ م ، حيث « نبهوا على أهل الضيع بان الذي ماعنده بارود يشتري والذي ماعنده سلاح يشتري وحينئذ جميع الناس صاروا يشتروا بواريد والسلاح صار عند جميع الناس »(٧٢) .

تموين الاسرة وغذاؤها :

ومن حيث التموين فقد اكتفت الاسرة ذاتيا وامنت لنفسها معظم احتياجاتها ،

نظرا لكثرة عدد افرادها ، فزودت نفسها باللحم والبيض والحليب والالبان ومشتقاتها، واهتمت بتربية المواشي والطيور الداجنة . ويذكر الصايغ ان الفلاحين كانوا يؤمنون لانفسهم « جميع الفحم والحطب والجاج والبيض والزبدة واللبن والحليب والعنب والتين وأكثر الفواكي من عندهم كذلك جميع الذي يفيض عنهم من حبوب بعد مونتهم يبيعونه الى اهل البلد والمدينة ، من كامل اجناس الحبوب حتى البصل والتوم وجميع الماكولات والعسل والشمع وكثير اشيا » (٧٣) . وزرعت الاسرة المحصولات التي تحتاجها في غذائها اليومي ، كالقمح والشعير لتامين الدقيق ، وصنعت من القمح البرغل الذي نادرا ما خلت منه وجباتها . وزرعت العدس وصنعت منه الحساء او اضافته الى البرغل (مجدرة)(٧٤) . وزرعت الحمص والذرة البيضاء التي كانت اساسية في غذائها .

وسعت الاسرة لتامين حاجة ماشيتها في فصل الشتاء من التبن والعلف، فزرعت بعض انواع من البقول ، وفي الغوطة زرعت الفصة والبرسيم لهذه الغاية ، والفول لتأكله اخضر ويابسا والخروع لاستخراج زيته اللازم للانارة ليلا ، واستخدمت في بعض الاحيان زيت الزيتون أو الشحوم وحتى زيت بذر المشمش للانارة . بالاضافة الى ذلك قام الفلاحون بتربية الحيوانات المختلفة للاستفادة منها ، كالجمال والخيول والحمير للركوب والنقل والحراثة ، والحمام والدجاج والاوز والبط للاستفادة من لحومها وريشها وبيضها . وملكوا الثيران للحراثة والجر ، واستخدموها في جر عربات النقل والتحميل ، لانها اصلح الحيوانات في جر العربات على الطرقات والاراضي آنئذ(٧٥) . وقاموا بتربية الابقار التي اختلفت انواعها ما بين الغوطة وحوران والجولان وجبال القلمون ، وعهدوا برعيها الى رعاة من القرية ، أو ربيت في بساتين الغوطة . أما الاغنام والماعز، فعهدوا بتربيتها الى رعاة او الى البدو او بعض الاكراد الذين اتقنوا هذ الحرفة وكان ذلك مقابل اجرة عينية كالحبوب ، او جزء من انتاجها (حليب ـ خراف ـ صوف) .

وقامت النساء بدعم الوجبات الغذائية للاسرة بالسعي في الحقول والبراري لقطف الاعشاب التي كانت تؤكل نيئة او مطبوخة ، لوحدها او مع الخبز والبرغل ، فشكلت جانبا من غذاء الاسرة ، اضافة الى ما انتجته الاسرة من الفواكه والثمار ، كالزيتون والعنب والتين والرمان والمشمش والاجاص والجنرك وغيرها(٧٦) . واختلف ذلك من مقاطعة الى اخرى . وكان فلاحو الغوطة أكثر غنى بالفواكه من فلاحي المقاطعات الاخرى نظرا لخصب تربة الغوطة وري بساتينها المستديم ، واعتدال مناخها . وحصل الفلاحون على ملح الطعام من جيرود (ما بين دمشق والقريتين) ومن الملاحات المحلية

الشامية (جبول وتدمر)، وحصل فلاحو حوران على ملحهم من عكا . واستخدم الفلاحون الملح في صنع الطعام والخبز وفي حفظ الجلود .

وقام فلاحو الغوطة بتأمين حاجتهم من زيت الزيتون مما زرعوه في اراضيهم . اما فلاحو حوران فاستوردوه من عجلون .وزرع الفلاحون البطيخ والمقاتي في حوران والمناطق المحيطة بدمشق(٧٧) ، وحصلوا على البلح من متاجر دمشق ومن القوافل التجارية التي عبرت مناطقهم ومن البدو الرحل الذين اندفعوا في فصول معينة من السنة باتجاه قراهم . ومن البائعين الجوالين في القرى .

اما السكر والقهوة والرز فكانت من الكماليات ، فاستوردت القهوة من اليمن عن طريق القوافل التجارية حتى القرن الثامن عشر ،وبعدذلك بدات الدول الاوربية (فرنسا انكلترا) تصدرها الى بلاد الشام . واستورد الرز من مصر وكان غالي الثمن*، بحيث كان ثمن الكيلو غرام الواحد يعادل ثمن ١٠ كيلو غرام من القمح ، وكان يقدم للضيوف وللفلاحين في مضافات الشيوخ خاصة ، ولا تاكله سوى الاسر الغنية لارتفاع اسعاره. ولما كان السكر معتبرا من اعظم المصادر الغذائية في توفير الطاقة للجسم ، فقد ظل تناوله حتى القرن السادس عشر في اوربا مقرونا بالترف ، واستمرت هذه النظرة اليه في بلاد الشام بعد ذلك بثلاثة قرون وظل معتبرا من الاصناف الغذائية الكمالية حتى النصف الاول من القرن العشرين . وعلى الرغم من ان بلاد الشام كانت مصدر زراعته ونقل عنها الى اوربا خلال الحروب الصليبية ، الا ان زراعته في بلاد الشام زالت ولم تعد للظهور الا في اواخر القرن التاسع عشر ، واعتمد اهلها في استهلاكه على ما تصدره بريطانيا وفرنسا وعلى ما استوردوه من مصر . واستخدم سكان ريف دمشق وفقراؤها بديلا عنه الدبس او رب العنب والخرنوب والعسل ، وكانت الاسر تبتاعه من اسواق دمشق او من الباعة المتجولين في الريف .

وكان احتساء القهوة محدودا حتى القرن التاسع عشر بالنسبة للعامة في المدينة والريف ، واقتصر على تقديم المر منها في المضافات ، وبقي احتساؤها في دمشق بشكل سري نظرا لتشدد بعض العلماء والسلطات العثمانية في منعها ، ودام الحال كذلك الى ان اصدرت هذه السلطات بلاغا باباحة شربها علنا(٧٨) ، فأصبح الناس يشربونها في متنزهاتهم ومجالسهم ، واصبح لشربها تقاليد اجتماعية معتبرة(٧٩) .

ولقد اتصف غذاء الاسرة الريفية بالرتابة وقلة التغيير في نوع المآكل . فكان اساس

---

* بيع اردب الارز في ١٨٤٠ في اللاذقية بمائتين وخمسين قرشا . انظر : الصايغ ، المصدر السابق ، ص ٨٨ . والاردب ثلاث قفات مصرية .

وجبات الفلاح الحبوب التي صنع من دقيقها الخبز (قمح ــ ذرة بيضاء ــ شعير ــ حمص ــ جلبان) وكانت تطحن في طواحين تدار بقوة الماء . وتولت المرأة عجن الدقيق وخبزه على الصاج او التنور ، ليؤكل مع البرغل او مع بعض الخضار والاعشاب المطبوخة . وطبخ البرغل وحده او مضافا اليه الحمص والعدس او الخضار او بعض الاعشاب البرية . وصنع الفلاحون الفريكة (خاصة في حوران) نظرا لكثرة انتاجهم من القمح، كما صنعوا الحساء من العدس المجروش او الكشك . وزودوا البرغل أو الحساء بالزيت والسمن او الزبدة ومقلي البصل احيانا . كمااعتمدت الاسرةالفلاحية في غذائها على الالبان بعد توالد المواشي ، فصنعت من الحليب السمن والزبدة والجبن واضافت الرائب منه الى مطبوخ الذرة او البرغل ، وصنعت منه الكشك ليؤكل في فصل الشتاء خاصة . وتمونت بالدبس والزيت والتين المجفف ، وبالمقددات والجبن والزيتون والمخللات والمكاديس وغيرها .

اما اللحوم فلا يرد ذكرها في وجبات الاسرة الريفية آنئذ الا في المناسبات ، كالاعياد ، وبعض الافراح وايفاء النذور ، فيتقاسم الاهل لحم الذبيحة ،ولهذا الغرض قامت بعض الاسر الفلاحية (في جبل لبنان والقلمون وغيرهما) بتربية بعض الخواريف وتسمينها لتذبح في تشرين وتحفظ على شكل (قاورما) وكان يفرز اللحم الاحمر ثم الدهن والشحم ويقلى ويوضع بعد ذلك في (مسامن) لتؤكل (مسمنة) بعد أخرى، عوضا عن اللحم الطازج الغالي الثمن والنادر الوجود في القرية آنذاك(٨٠) .

وقامت المرأة بدور رئيس في تموين الاسرة ، فهي التي كانت تشرف على تربية الدواجن وجمع بيضها وتحلب المواشي وتروب الحليب وتستخرج السمن والقريشة وتصنع الكشك وتنسج الصوف والقطن ، وتدبغ الجلود في بعض الاحيان ، وتنسج البسط والخيام .

وقايضت الاسرة بمنتجاتها للحصول على ما تحتاجه من البائعين ، وفي الاسواق الاسبوعية التي كانت تعقد في القرية او الخانات القريبة والبازارات ، ودفعت مايترتب عليها من الضرائب في بعض الاحيان عينا من منتجاتها(٨١) .

ولقد اجمع الرحالة الذين زاروا حوران على ان سكانها كانوا يعيشون حياة شظف وكانوا قانعين في شؤون مآكلهم ومشربهم . وحتى الاغنياء منهم كانوا يعيشون حياة فقرائهم ، ولا يتجلى ثراؤهم الا في اكرام ضيوفهم . ويقول بوركهارت لقداقتصرت الاسر الفلاحية الحورانية في غذائها على وجبتين من الطعام في اليوم وكان خبزها من دقيق الشعير بدلا من القمح ، كما اقتصرت في تناولها اللحم على مرتين فيالعام(٨٢) .

اما فيما يتعلق بتأمين مياه الشرب فقد اختلف الوضع من قرية الى اخرى، وبحسب وفرة المياه ومصدرها صيفا وشتاء (كالانهار او الينابيع والابار وبرك مياه الامطار وغيرها) . ولقد اوكلت مهمة جلب المياه من مصادرها الى النساء ،واستعملن في جلبه الاواني الفخارية وغيرها ، وكان الزير ابرز الاواني الفخارية التي استخدمت في حفظه ، وهو عبارة عن اناء كبير يوضع في ساحة الدار في مكان مخصص ويملأبالماء ويغرف منه بقصعات عند الحاجة(٨٣) كما في قرى حوران والقلمون . وكانت مهمــة الزير تبريد الماء عن طريق الارشاح والبخر ، ويرسب العوالق به . وكان فلاحو حوران يستوردون اوانيهم الفخارية من راشيا(٨٤) ، الواقعة في سفوح جبل الشيخ الشمالية الغربيــة .

ازياء ابناء ريف دمشق(٨٥) :

حافظ الريفيون على ازيائهم الموروثة أكثر مما فعل ابناء مدينة دمشق ، ربمــا يعود ذلك لعزلتهم النسبية عن المؤثرات الوافدة ، وقد لعبت عوامل عديدة دورها في رسم تلك الازياء وفي مقدمتها الظروف الطبيعية والمناخية والتاريخية المتعددة ،والنظرة للحياة والحس الجمالي ، والمعتقدات الدينية ، فلا غرابة اذا ما صمدت تلك الازياء في وجه طغيان المؤثرات الغربية فبقيت حتى القرن العشرين ، وما زلنا نراها في بعض قرى الشام . وقد تعددت تلك الازياء وقصرت المصادر عن ذكر تفصيلاتها ، ولهذا سنقتصر على اهمها لدى الجنسين .

زي الرجال في الريف : تألف لباس الجزع للرجال من القميص والصدرية والميتان والقطشية . ولا تختلف هذه الثياب في خطوطها العامة عما كان يلبسه المعاصرون من ابناء مدينة دمشق(٨٦) . وكانت السراويل لباس الوسط الى الكاحلين . وصنعت تلك الثياب من الجوخ او القطن . اما الجوخ فكان بلون غامق او اســود او ازرق او بني او (بيج) او ابيض(٨٧) .

وهناك الشال او الزنار الذي كان يلبسه اهــل القلمــون . والتسمية فارسية الاصل . وهو من قماش الموصلين أو الصوف ،وكان يبطن ويطوى بشكل مائل ويلف حول الخصر دوائر متعددة بحيث تبدو ثنياته من الامام متدرجة ومنسقة فوق بعضها بعدد فردي دائما ، وفي طرفيه شريطان يعقدان من الخلف ويلف حول الخصر بصورة اعرض كثيرا أو قليلا عما كان يفعله جنود الانكشارية ، وله قيمته الفنية والجمالية، مما جعله في مقدمة الثياب وجاهة ، فيلبس في المناسبات والافراح ، ويرتديه اغنيــاء الريف ، وبه رسوم نباتية وهندسية وحيوانية . اما لونه فكان احمر او اخضر او بنيا

أو أسود (٨٨) . وكانت بعض زنانير اهل الجبال تصنع من الصوف الناعم الرقيق (الكشمير) . وهناك الكمر الذي صنع من القطن وكانت له (أهداب) ، وتحزم به النساء ثيابهن(٨٩) . اما غطاء الرأس فكان يختلف ما بين مقاطعة واخرى . ففي جبل العرب كان رجال الدين يرتدون تربانا حوله شاش ابيض ، في حين كان أفراد العامة يرتدون الكوفية(٩٠) وتستخدم فوق العرقية او الطاقية وتثبت بالعقال . وتمايزت الكوفية احيانا بين قرية واخرى من حيث لونها واهدابها وتطريزها ، ففي جبعدين وحلبون وبعض القرى المجاورة لوادي بردى كعين الفيجة كانت لها أهداب (شراشيب) ، وكانت تطرز بالخيوط الحريرية الذهبية وتسمى حينئذ بالاغباني . وكان فلاحو الفوطة يضعونها مباشرة على الرأس لتقيهم من الحر والبرد . اما العقال الذي كان يثبتها على الرأس فكان عبارة عن طارة كبيرة بدائرتين متقاطعتين ، وله من الخلف دلاية تنتهي من الاسفل بطرتين صغيرتين على شكل هلال فتحته الى الاسفل ، ويرتبط وجودهما أما بعقائد سحيقة في القدم اوبتقاليد اجتماعية او طبقية .وكانابناء الجبال يرتدونه فوق الحطة(٩١) . واستعمل ابناء حوران عقالا من وبر الجمال (٩٢) . وحل الطربوش في غوطة دمشق بعد عهد التنظيمات محلها(٩٣) .

وكان من ثياب الفلاحين العباءة ، وجاءت فوق ثيابهم جميعها ومنها انواع ، كالعباءة الجبلية عند سكان المرتفعات وتسمى الزنارية او الحمراء او الدفية او المشلح او البشت ، وهي تختلف عن العباءة التقليدية الواسعة المعروفة عند اعراب البادية ، كما تختلف ايضا عما كانت لدى ابناء جبل حوران ، وتعود في جذورها الى اصول اشورية وفارسية قديمة . وكان قماشها خشنا وينسج من شعر الماعز المبروم أو من الصوف المحلي على انوال صغيرة يدوية من الخشب ، وقوامها قصير لايكاد يغطى ركبتي الرجل ، واكمامها قصيرة ايضا لاتتعدى المرفقين . وهي ضيقة التفصيلبحيث لا تتلامس أطرافها من الامام الا قليلا ، وخالية من العروات او الازرار ، ولهذا كانت تحزم من الوسط بشريطين صغيرين ، او بزنار رفيع لئلا تعيق صاحبها عن العمل ، وكانت تترك مفتوحة سائبة في الحالات العادية والاعياد والاحتفالات .

والاصل في هذه العباءة ان تكون مخططة بالابيض والاسود او البني باقلامطويلة متوالية ، وهذا النوع قديم جدا خصص للعمل لدى المزارعين والرعاة، وسمي لديهم بالعباية الدفية ، في حين كانت عباءة العيد والاحتفالات حمراء او زرقاء مطرزة بالابرة بصورة جميلة جدا بخيوط من القصباوبالالوان المختلفة وباشكال هندسية رائعة ربما رمزت الى معان تفاؤلية قديمة ، وتنحصر الزخارف على الكتفين والصدر ، واجملها على الظهر (٩٤) .

وتختلف عباءة جبل حوران عما ذكرناه ، كما تختلف عن عباءة البدو ، وكانت مصنوعة من الجوخ الاسود طويلةمتهدلة تصل الى القدمين بأكمام ضيقة وهي من النوع المتصالب الذي يردف فيه الطرف الواحد على الاخر من الامام ، ولها اشرطة امامية من نفس القماش تشبه السفايف في فروة البدو وتستخدم لتثبيتها على الكتفين(٩٥) .

وفي الجبال المحيطة بدمشق كان بعض الرعاة من الاكراد يتميزون بزيهم الخاص الذي كان أقرب الى زي البدو(٩٦) .

وكان ابناء الريف في الشتاء يلفون ارجلهم بقطع من القماش الطويل الصوفي، ويلبسون في اقدامهم حذاء عالي العنق يثقل السير الا انه يوفر الدفء . وكان الجنود العثمانيون يستخدمون النوع الاول من القماش او الجلد ويطلق عليه اسم « الطماق » . وتعددت انواع الاحذية الجلدية التي استخدمها الريفيون فكان منها الملون وغير الملون، واهمها : الخف والنعل والشاروخ والمداس والمركوب والبابوج والقندرة والجزمة اليمنية والسرموجة (الزرموجة) والمسبت والزربول او الزربون أحيانا . وتعددت بعض اسماء الاحذية للمسمى الواحد، واختلفت باختلاف المناطق والقرى . وصنعت الاحذية في أماكن مختلفة وفي مدينة دمشق كانت لها اسواق خاصة كالزرابلية والجزماتية ، وما صنع منها في ميدان الحصى كان من النوع الرديء ولون جلدهابرش اقرب الى الصفار ، وكان مفضلا لدى فلاحي حوران نساء ورجالا (٩٧) . ولعل احسن ما صنع من الاحذية هو مايسمىبالفارسية (السرموزة) . وكانت تسمىقديما المركوب ، وكان الرعاة يلبسوبه في أعالي الجبال . وكذلك الزربون (الزربول) وهو نوع من الاحذية المكسية الىما فوق مشط القدم ، حادة الراس شكلها كالجندول مرتفعة مع نعل كثيف يتحمل وعورة الارض وقسوتها(٩٨) . أما الصرماية فهي حمراء اللون بدائر دون كعب ، ومنها صنف سمي (بالحلبي) يلبسه أهل المدن في حين يرتدي الريفيون نوعا اخر يسمى (نصف كشفة) . واستخدم الريفيون أيضا القباقيب على نطاق ضيق وضمن البيوت او أزقة القرى ،وسار بعضهم حفاة كما فيقرىحوران(٩٩) . وكانت ثياب اهل حوران ، مسيحين ومسلمين ، متشابهة وقريبة من ثياب البدو وتتكون من قنباز ورداء مصنوع من قماش القطن الابيض الخشن ، ويعتمرون بالكوفية والعقال « بريم » وفوق ثيابهم العباءة يلفونها فوق الكتفين . اما صدورهم فكانت عارية ويطلقون لحاهم ، ويستخدمون الكحل لتزيين رموش العين رجالا ونساء(١٠٠) . وسجلات محاكم القسمة في دمشق مليئة بتركات عدد كبير من الفلاحين ، واكثر ما يسترعي إنتباهنا في تركاتهم قلة ما خلفوه من ثياب اذا ماقيس بتركاتهم من الدور والبساتين والاراضي والدراهم ، مما يدل على عدم اكتراث الفلاحين بهندامهم وثيابهم

من جهة ، وكي لا يصبحوا محط انظار الطامعين من رجال السلطة من جهة اخرى. مثال ذلك ما خلفهاحد فلاحي قرية شبعة وهو مصطفى بن عبد القادر المتوفى سنة ١١٩٨ هـ / ١٧٨٣ – ١٧٨٤ م وكانت تركته مكونة من « ٢٨٥٠٠ قرش في حين لم تتجاوز تركته من الثياب سوى العنترى ديما وقميص رفيق وشالة(١٠١). ثم احمد بشة بن عمر التلي من اهالي قرية زبدين المتوفى سنة ١١١٩ هـ / ١٧٨٤–١٧٨٥ م كانت تركته تقدر بعشرات الالوف من القروش اما ثيابه فكانت مكونة من جروال جوخ عنتري ولباس ازرق وخنجر بفضه وسكين وخاتم فضة »(١٠٢) .

الا ان شيوخ القرى كان وضعهم مختلفا وغالبا ما كانوا من اغنياء الفلاحين وشكلوا صلة الوصل مع السلطات العثمانية المحلية .وكانوا محط القرى، لهذا كان عليهم الظهور بما يليق بمقامهم ، فاقتنوا الثياب المتعددة والثمينة اذا ما قيست بماكان لدى الفلاح. وشاهدنا على ذلك مخلفات شيخ قرية الكسوة المتوفي سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٣–١٧٨٤م التي كانت مكونة من الاتي : « بنش فروة ناقة وجبة فروة ناقة وبنش جوج وجروال جوخ وعنتري الاجة وقميص وزنار وفاس وسيف وطبنجة» بالاضافة الى عدد من رؤوس الخيل والبقر والحمير والاحواش والاراضي(١٠٣) .

اما زي نساء الريف : فقد اتفق مع زي الرجال في بعض جوانبه واختلف عنه من حيث شكل لباس الرأس والزركشة والحلي ، كما اختلف زي النساء فيما بينهن مابين الغنية والفقيرة والعازبة والمتزوجة وبين منطقة واخرى . الا ان العام في لباسهن كان: **البدلة** التي صنعت من الجوخ او المخمل الاسود لدى نساء جبال القلمون وجبل حوران ، وتتألف من قطعتين منفصلتين : عليا ضيقة تبعث الدفء ، وسفلى وتسمى (التنورة) عريضة وواسعة لتساعد المراة على المسير . وتزين التنورة من الاسفل برسوم دائرية متوازية او بدروب من المطرزات المتموجة والمتكسرة وبخيوط من الوان تتماشى مع لون الثوب ، وعلى الصدر عدة ثنيات مستقيمة ومتوازية او دروب من المطرزات ذات مواضيع مختلفة كالورود والزهور واهمها شجرة الحياة .

وتضع المراة زنارا من الشال الصوفي(١٠٤) كشال الرجل الذي اشرنا اليه سابقا فوق البدلة ويسمى بالمحزم ، ولم تعن بهذا الشال عناية الرجل فيه وكانت تعقده من الامام او الجانب بدلا من الخلف. ولم يكن لهذا الثوب عموما فتحة عند الصدر كما في قرى القلمون ، في حين وجدت هذه الفتحة في وادي بردى مستديرة الشكل واسعة بحيث تبرز ثديي المرأة . وتغطي المراة ثوبها الرئيسي من الامام بواقية نصفية لها تسميات مختلفة بحسب المناطق ، منها مملوك او مريول او فوقية او حضنية او قدامية أو دراية ، كما في جبل حوران وحماه وحمص (١٠٥) .

الدراعــة وكانت المرأة ترتديها فوق البدلة عند الخروج بعيدا عن دارها . وهي عبارة عن معطف مفتوح على طوله من الامام له فتحتان جانبيتان في قسمــه السفلي بتراوح طولهما بين ٣٠ــ٧٠ سم وقلما تصلان الى الخصر ، وتطرز الدراعة بزخارف وموضوعات نباتية وهندسية على الكتفين والكمين والظهر بصورة عامة ، وهذا الثوب الاضافي قصير نسبيا ليسمح للبدلة الرئيسية بالظهور من الاسفل وضيق لا يتلامس طرفاه الاماميان الا بواسطة اشرطة او زنار او ازرار . اما قماشها فمن الجوخ كما في حوران او من الخام البلدي المصبوغ بالازرق المطرز بزخارف هندسية ملونة كما في قرية التواني (من القلمون) ، او من المخمل المطرز بالقصب كما في القلمون التحتاني (القطيفة والرحيبــة والمعضمية) وسميت الدراعة في القلمــون وارباض دمشــق « بالمدربية »(١٠٦) .

القطشية وكانت من ثياب المراة في ريف دمشق عامة بسهوله وجباله ترتديهــا فوق ثوبها الرئيسي الطويل . وهي من لباس الجزء الا انها نصفية من الامام عريضــة وواسعة وذات اكمام طويلة في غايــة الروعة ، ولم يكن لها ازرار فتبقى مفتوحة علــى الدوام ، وتزين بزخارف كثــيرة ومطرزات ، ويرتديهــا الجنسان باعتــزاز لا سيما (العرسان والشباب) .ولبسها المعذب في مضافة ابيه بكل تيه فوق سراويله وصدريته وميتانة وشالته وهو يقدمالقهوةالمرةوالنراجيل للحاضرين كاجمل لباسلاجملمناسبة. وكانت العروس في هذه المناطق تتزين بها فوق ثيابها لاسيما يوم زفافها .

وهناك قطشية العمل وهي بسيطة دون زخارف او تقتصر زخارفها على دروب من الخلف باشكال هندسية . وهي متوسطة الطول وذات لون اسود عموما .

القبعة او القباء او الكب او الشرش ، وكان من ثياب المرأة في حوران والجولان والمرج شرقي غوطة دمشق وفي البادية . وهي قديمة في المنطقة وتتألف من قطعــة قماش مستطيلة الشكل تثنى عند تفصيلها نصفين متساويين بحيث يغطى كل جــزء النصف الاخر تماما . ثم تخاط الاطراف الجانبية وتترك فتحتان جانبيتــان لتخاط فيهما الاكمام . ويفتح ضلع المستطيل من الاعلى على شكل دائرة ضيقة او على شكل العدد ٧ من الامام ، وذلكحسب مناخ وتقاليدكل منطقة ، ليدخل منها الراسوالعنق. وتطرز فتحةالصدر هذه بشريط من الزخارف الهندسية او من الورود والزهور الملونة، وكذلكالظهر والكتفانوالكمان وحوافيالثوب السفلى. ويطرزالظهر غالبابمثلث قاعدته الى الاعلى وراسه الىالاسفل او بالعكس. وقد يكون ضلعا هذا المثلث مسنسنين على شكل هرم مدرج . وكان هذا النوعمنتشرافيبلادالشام ولونه اسود،ومن نسيج القطن او الخام البلديالمصبوغ محليا ، أو من الحرير مع المبالغة فيالمطرزات الهندسية الملونة

كلما اتجهنا نحو الشمال السوري . اما الالوان المستخدمة في خيوط التطريز في القبعة ، فهي الاصفر والبرتقالي والاخضر والبنفسجي وغيرها . وكان القباء فيحوران والجولان من الحرير والاطلس اللامع او الجوخ او المخمل بلون اسود ، وقد يكون ازرق اللون قاتما مع اساور بيضاء من نفس القماش في أعلى الكمين على الطريقة الفرعونية القديمة . وتقتصر المطرزات الهندسية هنا على الياقة والحوافي السفلي للثوب وعلى طرفي الاكمام كما في بصرى الشام ، ويسمى هناك بالشرش او الثوب . وفي القلمون التحتاني كان هذا الثوب من الخام الابيض المقصور او الازرق مع اردان طويلة مثلثة الشكل ومطرزات على غاية من الدقة والاتقان وباشكال هندسية والوان غامقة تشغل مقدمة الثوب والاردان معا ، وكانت تطلق اثناء تفتيلة العروس وترسل على الكتفين وتعقد على الظهر ، وتطرز العروس هذا الثوب قبل الزفاف بابرتها ويستغرق ذلك مدة طويلة ، تعاونها فيه صديقاتها وقريباتها ممن اشتهرن بالدقة والمهارة . وتنسجم مواضيع المطرزات مع موضوع الزواج عامة اذ تتضمن معاني تفاؤلية او وفائية خدمة للعريسين في حياتهما الجديدة(١٠٧) .

وكانت المراة ترتدي فوقها اما قطشية عادية او مزركشة في الجبال او الدراعة كما في حوران وتسمى البيرمية (لفظة تركية تعني العيدية)(١٠٨) لكونها تلبس في المناسبات المفرحة كالاعياد والاعراس .

وهناك ثياب داخلية كانت ترتديها نساء ريف دمشق (في السهول والجبال) وهي كثرة وثقيلة منها ثوب عريض او ثوبان متشابهان بأتيان مباشرة بعد الاثواب الخارجية يليهما قميص نصفي عريض وطويل يدخل ضمن سروال طويل ضيق او عريض يصل الى اسفل القدمين ويعقد بتكة ويمسى (الشنتيان او الجنتيان) ، وهو كسوة الجسد من الوسط الى الكاحلين ويسمى سروالا او شنتيانا او شلوارا او جنتيانا او شخشيرا أو لباسا(١٠٩) ، تشبته المراة بدكة تربط من الخلف على وسطها ليوفر الدفء لها ويغطي ساقيها ، ويكون مطرزا في الاسفل في بعض الاحيان بموضوعات هندسية تتناسب مع لونه عامة كما في قرى القلمون .

الزنار النسائي : لتوفير الدفء والزينة ، ولحزم الثوب الرئيس من الداخل او الدراعة من الخارج . وهو على أنواع وله تسميات مختلفة : الشالة العجمية التي استخدمتها نساء القلمون كما في قريتي صيدنايا ورنكوس ، كمااستخدمت بعض النساء في منتصف القرن التاسع عشر الشالة الانكليزية كما في قرى الغوطة(١١٠) . والشالة الملونة وكانت من الحرير المقلم بألوان كثيرة طويلة استعملتها العروس والشابات آنئذ ، والكمر من الصوف بطول ٤ـ٥ أمتار وبعرض ١٠ـ١٢سم ، ويلون بأقلام افقية حمراء

وسوداء وخضراء وتنتهي اطرافه بهداب بالالوان نفسها ، كما في سهول دمشق (حران العواميد) . والحزام الفضي او الذهبي واختصت به العروس والمراة الفنية عموما ، وهو سلك فضي رقيق يتراوح عرضه بين ٥ـ٧ سم وله قفل جميل من الامام بزخارف متنوعة مصاغة بأسلاك رفيعة من الفضة الملتفة والمرصعة بالاحجار الكريمة المختلفة كالفيروز والياقوت(١١١) . ويعقد الزنار القماشي من احد الجانبين أو من الامام لتهتز هدابه اثناء السير(١١٢) .

اما زي راس المراة الريفية آنئذ فكان متنوعاوبأشكال مختلفة نتيجة لتنوع الموروث التاريخي ، فكان منه مايعود في أصوله الى الكنعانيين والاشوريين والحثيين ،والمصريين وبلاد مابين النهرين ، والفرس واليونان والرومان ، وقد اختلف من منطقة الى اخرى من حيث تزينيه واستخدام المجوهرات والمصاغ في ذلك ، ومن حيث شكل العمائم من اسطوانية ومخروطية . والنوع الاخير كان محببا للنساء لانه يزيد من طول المراة ورشاقتها فتلبسها بنوع من الزهو وتلف فوقها طرحة شفافة، كما في قرى القلمون وحوران .

الطاقية : وهي مستديرة الشكل بيضاء او حمراء وتسمى (عرقية) توضع مباشرة على الراس ويلف في طرفها السفلي عند الجبهة صف من الفوازي العثمانية الذهبية(١١٣) وتسمى (شك أو صفية) . وكانت الغاية من الطاقية تثبيت العمامة وامتصاص العرق . والتربان او الطرطور الذي استخدمته نساء جبل العرب وجبل لبنان ، وبعض القرى المحيطة بدمشق .

العصبة : وهي قطعة مربعة الشكل من القطن او الحرير ، ذات لون اسود او بني او خمري ، مطعمة بالخيوط الذهبية او الفضية في خطوط مستقيمة او بزخارف نباتية ولها هداب على جميع أطرافها ، تطوى باتجاه احد القطرين بصورة مسننة ، وقد تطبق بانتظام حول الراس دورين او اكثر بحيث تظهر صفية الفوازي متدلية على الجبين وخيوط القصب واضحة من الامام . ثم تعقد أطرافها من الخلف كأكثر مناطق دمشق او من الامام كما لدى نساء قرية زاكية ، او على احد الجانبين كنساء قرية يبرود وبخعة(١١٤) . ولقد سعت اكثر النساء لجعل العصبة عريضةمن الامام لتستوعب مجموعات المصاغ الفضي والذهبي ، الذي يعكس في بريقه الاضواء والانوار على وجوههن ، فيزيدهن سحرا وجاذبية . وكانت العصبة تبطن من الداخل بحيث يبلغ وزنها الكيلو غرامين وقد توضع ضمن ثنياتها بعض الحشيات من الخروق ليبدو شكل الراس أكثر كبرا وفخامة ، مما يزيدها جمالا ومهابة . وفي جبل العرب تحولت العصبة الى طربوش أحمر طري تثبت على أطرافه السفلى والعليا صفيات الفوازي ، وينتهي في

اعلاه بقرص ذهبي او فضي مصاغ بمواضيع زخرفية باسلاك فضية ملتفة حول نفسها بدوائر متناظرة ، وهذا مايسمى عند الصياغ بطريقة (كسر جفت) .

ويصف أحد الرحالة الاجانب وهو (لين Lane) الذي زار مصر سنة ١٨٣٦ م فيقول : « ان النساء المصريات يلبسن على رؤوسهن طربوشا يلف حوله قماش او شال من الكشمير ، ويثبت عليه احيانا قرص من الفضة او الذهب ، ربما يدل على ان بنات جبل العرب قد توارثنه من عهد الفاطميين » . وقد تطورت هذه العصبة الضخمة فيما بعد في قرى وادي بردى ووادي تل منين وبعض قرى القلمون ،كالنبك، الى شاشية رقيقة شفافة يعصب بها الجبين من الامام وعليها رسوم نباتية مختلفة(١١٥) .

الطرحة : وهي غطاء رقيق مؤلف من قطعة مستطيلةالشكل تسبل فوق العصبة فتغطيها كليا او جزئيا ، ويردف قسم منها الى الخلف ليلف به العنق وجزء من الوجه والكتفين . وقد تطول الطرحة عدة أمتار فتلف العنق وتردف الى الخلف حتى تصل الى الارض ثم ترفع الى الاعلى وتعلق بواسطة زنار المراة كما في بعض قرى القلمون مثل يبرود وبخعة . وهي بيضاء في جبل العرب ووادي بردى وبعض قرى القلمون كالنبك والقطيفة ، وقد يكون لونها خليطا بين الاسود والبني ، كما في معلولا وعين التينة ورنكوس وغيرها من ريف دمشق . وفي بعض الاحيان كانت المراة تكتفي بوضع لفاح اسود على الراس مباشرة يلف العنق وله طرر او هداب على أطرافه ، كما في جيرود وصيدنايا . وقد يكون من الصوف البلدي المشغول بسنارة واحدة ، ويسمى صوفية، كما في النبك ، وتكون سوداء او بلون الصوف . وقد تكون الطرحة من الحرير الطبيعي وتحاك بسنارة وتزين أطرافها وتسمى هذه بالقزية وتكون سكرية اللون(١١٦) .

الشنبر وهو منديل حرير اسود اللون مستطيل طوله متران او أكثر وعرضه بين ٥٠-٦٠ سم يطرح على الرأس مباشرة فيلف شعر الراس والعنق والصدر ، ثم يردف الى الخلف فيغطي النقرة وتنزل أطرافه ذوات اللون الاحمر تحت ثوب المراة الرئيسي المسمى (بالشرش) كما في حوران وغيرها .

العصبة كانت الغاية من لبسها على الراس حماية الراس من حر الشمس والعينين من الغبار الشديد ، لهذا تكون كثيفة وعريضة من الامام لتسمح بوضع قطع الحلي بصورة ظاهرة ، وتوضع العصبة فوق الشنبر مباشرة . وكانت في هضبة الجولان والجيدور بلون خمري مبرومة كالعقال ومقصبة بخيوط من الفضة ، وتسمى في حوران « بالعصابة » وتكون طويلة من القطن وذات لون اسود تعقد عند مؤخرة الراس بحيث يتدلى طرفها المثلث الشكل الى الاسفل(١١٧) .

الحلي : كان اهتمام نساء الريف بالحلي متفاوتا تبعا لوضعهم الاقتصادي والاجتماعي . صيغ الحلي من الذهب او الفضة وطعم احيانا بالحجارة الكريمة ، كما دخلت فيه قطع النقد المتداول آنذاك ، ذهبية وفضية . وقد تنوعت اشكاله واغراضه، فكان منه حلي الراس والاذنين والانف والعنق والصدر والمعصم والاصابع والوسط والكاحل . واهم الحلي التي ورد ذكرها في سجلات القسمة المختلفة هي :

العرجة وكانت زينة لراس المراة . وهي عبارة عن طاقية من الفضة ذات سلسلتين عريضتين متقابلتين بعرض يتراوح بين ٤ـ٥ سم ، تتدلى منها ثريات فضية تتارجح على جبينها بشكل اللوزة(١١٨) وترمز الى الماء والنماء والخصب والخير ، عسى ان تلاقيه في حياتها . وفي مؤخرة الطاقية شريط من القماش المزركش والمطرز بالالوان المختلفة مشغول بالابرة تعلق فيه قطع النقد الفضية ، وتغطى هذه العصبة عادة نقرة العروس أو المراة ، وتخرج من اسفلها دلاية من القماش المزخرف ايضا، شبيهة بالقطعة السابقة بعرض ١٠ سم تقريبا تتدلى على الظهر حيث تعلق فيها مجموعة من الريالات، العثمانية (المجيدي) ، وتكون عادة بعدد فردي ، ويحمل اخر ريال منها من الاسفل خمس قطع من النقود الفضية الصغيرة. يلي ذلك طرر حريرية ملونة ملتفة مرسلة، وكانت تستعملها نساء منطقة المرج شرقي الغوطة وحوران(١١٩) .

القلادة وهي طوق من الفضة تضعه المراة في جيدها ويتدلى على صدرها ، ويتألف من سلسلة واحدة او سلسلتين تعلق فيهما قطع مختلفة من النقود الفضية القديمة وتخرج من كل منها عدة دلايات تحمل كل واحدة بدورها قطعة نقدية صغيرة . وتحوى القلادة عدة سلاسل تحمل بدورها نقودا فضية بشكل القلب او اللوزة او الهلال او القرون او الاجراس ، وهي من حلي نساء القلمون بشكل عام .

الشكل وكانت من اجمل حلي الفضة آنئذ وتعتبر آية في فن الصياغة السورية ، وتعود في أصولها الى الاشوريين ، وكانت ترى في معظم مناطق ريف دمشق والمقاطعات التابعة لها .

الخلخال : زينت المراة به ساقها وعضدها احيانا ، وكان من الذهب أو الفضة وسمي (بالحجول) واضيف اليه اجراس للاطفال المدللين .

اما القرص المستدير فكان من حلي نساء جبل العرب يضعنه فوق طربوش احمر، وكان من الفضة او الذهب وبه زخارف من اسلاك الفضة ملتفة على نفسها بدوائر تؤلف في مجموعها موضوعا فنيا رائعا يعود في جذوره الى الفاطميين في مصر(١٢٠) .

وهناك بالاضافة الى ذلك ، الحجاب(١٢١) على الوجه من الفضة ، او الجدادة او الزيبقلية .

اما ما يتعلق بلباس القدمين فلم يختلف لدى المراة عنه عند الرجل بصورة عامة ، فنعله مزدوج ليقاوم وعورة الارض ووجهه من الجلد الاحمر او الاسود او المائل الى الصفرة قليلا . وكانت النساء ينسجن القلشين ليلبسنه في الشتاء .

ومن احذية الفلاحين الصرماية وكان جلد وجها احمر اللون بدائر ولا كعب لها. ومنها نوع لطيف الشكل يسمى (بنصف كشفة) ، وكذلك نوع أصفر لبسه بعض اهل العلم . وبقيت هذه الصنعة رائجة جدافي الشام (الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر) (١٢٢) . ثم البابوج وله وجه اصفر بلا دائر لبسه اهل العلم وفقراء الطلبة غالبا، وبعض النساء العجائز ، وكان على انواع ، فمنه نوع لنساء الفلاحين وهو انواع ايضا حسب عاداتهم بملبوسهم اذ كان لكل قرية طراز يخالف الاخرى(١٢٣) . ومن الاحذية التي لبسها الريفيون المست الاصفر والاسود(١٢٤) ، والجزمة ، وهي ما يلبسه الرجال وتستر الساق. وهي بدون كعب ، والعالي منهاكان مفضلا لدى امراءالعربووجوههم، جلدها احمر قان وبها طيات امام الساق ، وعلى رأس ساقها المطوي طرة حريرية طويلة لونها ازرق تلتف عليها خيوط من اللسيم ، وبأسفل قدمها حذوة من الحديد ، يلبسها البدوي ويفتخر بها وهي مثمنة ، والوسط دونها في القيمة والحسن ، والدون لها سوق مخصوص بميدان الحصا يقال له سوق الجزماتية يشتغلون بها الجزملت الدون لون جلدها أبرش والى الصفار اقرب ، يلبسها فلاحو حوران نساء ورجالا واهل تلك الجهات من البدو(١٢٥) .

ولابد من الاشارة الى ان قسما كبيرا من الفلاحين ، نساء ورجالا ، لم تمكنه ظروفه المادية من انتعال الحذاء .

التجميل وادواته : لم يسمح المجتمع آنئذ للفتاة أن تضع على وجهها المساحيق والالوان (الفندرة) حتى ليلة زفافها ، واذا ما فعلت احداهن مثل ذلك كانت تعتبر خارجة على مالوف عاداته وتقاليده ، ويستدعي ذلك ذمها وتأنيبها والشك برصانتها، مما جعل النساء لايعرفن أصول الفندرةحتى اذا ماجاءتمناسبة غندرة الفتاة ، وهي ليلة زفافها ، استخدمت في ذلك كميات كبيرة خرجت عن المعقول وشذت عن القواعد الجمالية . الا ان المجتمع أقر للمراة استخدام اساليب وادوات أعتبرب من الاسس الجمالية والصحية في وقت واحد ، كالوشم تزين به وجهها مبالغة في ذلك لما له عندها من مكانة هامة ، والمواضع المختلفة من جسمها ، فالنقطة الزرقاء في راس الانف مثلا

تسمى (دق) والمثلث المسنن من الخارج بين الحاجبين يدعى (حيجاب) والخـط المستقيم بنصف الشفة السفلى هو (رتمة) كما ان الرسوم على طرفي الفـم والعينين والذقن وراس الخدين والرسغين وعلى الزند والبطن والساق والظهر لكل منها اسمها ووظيفتها التجميلية او الوقائية او العلاجية .

الحناء ، وكانت المراة تخضب بها يديها وقدميها في مواسم معينة وفي مناسبات خاصة ، كحنة رجب والعيدين وعند الزواج . وكان للحناء اشكال معروفة تسمى كل نقشة باسمها . وشارك الرجل والاطفال النساء في ذلك احيانا ، وجلب هذا الصباغ المسحوق من الهند وهو نوعان الاحمر لليدين والاسود للعجائز يتخذنه صباغا للشعـر الشايب . ومن ادوات الزينة الكحل الذي استخدمه الجنسان على حد سواء وهـو الاثمد من نوع الالتموان او شحار زيت الزيتون الذي كان يسحق وينخل بشاشة ناعمة جدا ويمزج ببعض الاصبغة العضوية ويوضع بمكحلة فيها ميل رفيع تخططبه العينان والحاجبان ، وكانوا يعتبرونه ذا قيمة تزينية وطبية اذ يضاعف جمال العينين فيزيدهما اتساعا وصفاء او سوادا فوق البشرة البيضاء ، كما وان الحرارة والغبار الشديـد يجعلان منه ضرورة لازمة لانهم كانوا يعتقدون انه يطفىء حرارة الاجفان ويزيد الرجال وقارا ومهابة .

واستخدموا للزينة البراق الناعم (درور) بتثبيته على وجه العروس الريفية ، وكانت تقوم بذلك الماشطة ، وسمي بعرف العرائس، وكان يعطي لوجه العروس تموجات جميلة واستعمل في (بخعة وجبعدين) ، وهما قريتان سريانيتان ، وفي قرية حينة في جبل الشيخ ، وربما كان من اصول آرامية(١٢٦)

وكانت البنات والنساء يطلن شعورهن التي اعتبرت رمزا للجمال، ويجعلنها ضفائر محبوكة بجدائل من الصوف الازرق يرسلنها على ظهورهن . وكانت الثريات منهن يزين جدائلهن بقطع من النقد والفضة المتداولة آنئذ ودام ذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر(١٢٧) . وكانت المرأة الريفية تحمل في ثنيات ثيابها حاجات خاصة بها ، كالحجب وفيها آيات قرآنية او بعض الادعية والتعاويذ ، في غلاف معدني (فضة أو ذهب) ، وتحمـل في بعض الاحيان اطواقا من الخرز الازرق وقطع الشب ، تتوسطها احجار العقيق وناب الذئب وموسى صغيرة وجوزة وترس سلحفاة صغير ، ويحمل كل منها تاريخا لعقائد شعبية قديمة تعود لاقدم العصور ، اضافة الى انواع الخرز ، أو تحمل الاجراس الرمزية وحذوة الحصان ، ومنها ما يمت لمذهب Animisme بصلة الاعتقاد وبرمز الافعى (لباس جلود الحيوانات المفترسة القوية وكلها تعود الى عصر الصيد) وكانت المـراة تحمل في تلافيف زنارها دراهمها ومرآتها وابـرة الخياطـة والكشتبان ، ومفتـاح

صندوقها ومفتاح الدار الخشبي . واحيانا انواعا من القضامة والزبيب والتين وغيرها(١٢٨) .

وهكذا بقي المجتمع في بلاد الشام ، والريفي منه بشكل خاص، لم تتبدل اوضاعه في ظل الدولة العثمانية التي حافظت على انماط حياته السابقة دون أي مسعى لتغييرها ، فاناخت عليه بكلكها وابقته رهين عادات عصور الانحطاط ، وفرضت عليه نظاما اقطاعيا جائرا ، ورسخت فيه امراض العصبيات العائلية والعشائرية والاقليمية وغذتها لتحصد عرقه وجهده وماله ، مستخدمة في ذلك موظفيها الذين كانوا في معظم الاحيان غرباء عنه ، فعرقوا منه اللحم عن العظم ، ولم تبق له من المقومات ما يتيح له التطور الحضاري مما جعله لايقوى على مقاومة الاستعمار الغربي الذي سيظهر في الفترة اللاحقة ، ويطغى على ممتلكات الدولة العثمانية في المغرب العربي ومشرقه .

الحواشي :

(١) انظر مشاقة ، ميخائيل ، مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ص٢٠ ، مصر ١٩٠٨م .

(٢) يذكر صاحب « المقترب في حوادث الحضر والعرب » بان الاغا الملتزم يرسل « وراء كبار الضيعة ويقول له انا أعملك شيخ على الضيعة واعزل فلانا ماذا تعطيني ؟ فيرغب التعيس بهـذا الكلام ويدفع الف قرش ام الفين الذي يرتضوا عليه فيعزل الشيخ الحاضر وينصب الجديد . ومـن المعلوم ان الشيخ الذي انعزل من منصبه وترزل لا يسكت ولا يقبل عليه الذل والعار قدام أهـل الضيعة فينزل على البلد ويترامى على الاغا الضمان ويدفع اكثر مما دفع الشيخ الجديد فحينئذ الضمان يعمل ذنب الى الشيخ الجديد ويرجع القديم الى المشيخة ويكون كسب بهذه الحركة مقدار نصف الضمان ، ويوجد من الضمانة الطماعين الذين يعملون هذه الحركة مرتين في السنة». انظر : الصايغ ، فتح الله بن انطون ، ص ٦٧ آ وص ٦٧ب ، (مخطوط) .

(٣) السيوفي ، حبيب ، سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر ، ج٢ ، ص ٦٠ ، صيدا ١٩٤٨م

(٤) مشاقة . المصدر السابق ص ٣٠ .

(٥) انظر : حنا ، عبد الله ، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان ، القسم الاول، ص ١٢٨، ١٢٨ ، ١٢٩ ، بيروت ١٩٧٥ م.

(٦) انظر : لوتسكي، فلاديمير ، تاريخ الاقطار العربية الحديث (ترجمة عفيفة البستاني) موسكو ١٩٧١ ، ص ٩ .

(٧) ابن عابدين ، محمد امين ، رد المحتار على الدر المختار ، ج٣ ، ص ٥٣ ،٣القاهـ رة ١٢٩٩هـ.

(٨) يذكر محمد عابدين الذي كان انئذ احد امناء الفتوى في دمشق، ان المفتي محمد خليل المرادي قد استفتي اكثر من مرة بشان مثل هذه الاراضي ، واصدر فتواه في ذلك . انظر رد المحتارعلى الدر المختار ج٥، ص ٢١ . ووجد في غوطة دمشـق نوع من المزارعة في مثـل هـذه الاراضـي اسمها (شد السكة) وكانت الارض تبقى بيد المزارع مدى حياته ويسجل ذلك في سجلات المحاكم دمشق وكان تركها والفراغ عنهالفلاح اخر يتم مقابل مبلغ من المال وعن طريق المحكمة وهذا حق يورث للابناء انظر : السجل رقم ٣٣٦ ، محاكم دمشق .١٢٥٠-١٢٥١هـ ، ص.١٤٠ .

(٩) المرادي ، محمد خليل ،سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشـر ، مصر ، بولاق ١٣٠١هـ ، جـ٢ ص ٤٣ .

(١٠) المرادي ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٠٧ – ١٠٨ .

(١١) انظر : سجل رقم ٢٢١ محاكم دمشق ص ٣٨٢ .

(١٢) انظر : المرادي ، ج٣ ، ص ٢٠٦ .

(١٣) انظر : المرادي ج٢ ص ١٨٢.

(١٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠/ ١٢٥٠ – ١٢٥٢هـ ، ص ٥٣ القضية بتاريـخ ٢١ صفر سنة ١٢٥٢ هـ .

(١٥) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ١٢٥٩/٣٧٨ هـ ص١ .

(١٦) انظر : السجل رقم ٢٥٠/ص١٤ ، ١٣٧ / .وفي سنة ١٢١٧ هـ كان (صوباشيا) على قرية برزة السيد ناجي جوربجي .

(١٧) انظر : السجل رقم ١٢٠١/٢٢١-١٢٠٢ هـ ، ص ، ٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩، ٧٢ .

(١٨) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/ ١٢٢٢ - ١٢٢٣ هـ ، ص ٣٩ ثم سجلها رقم ٣٤١ ، ص ٣٨ .

(١٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢١٦ - ١٢١٧هـ ، ص ٢١٧ .

(٢٠) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٤١/١٢١٢ - ١٢١٣هـ ، ص ٤٢.

(٢١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢١٦-١٢١٧هـ ، ص ٧٩ .

(٢٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢١ - ١٢٠٢هـ ، ص٧٢،٢١٢،٣٤٣،٣٦٩،٣٧٠.

(٢٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/١٢٢٢-١٢٢٣هـ ، ص١٤٩ .

(٢٤) القاسمي ، محمد سعيد ، وجمال الدين وخليل العظم ، قاموس الصناعات الشامية ، تحقيق ظافر القاسمي ، جزان ، باريس ١٩٦٠، ج١ ص٩٦.

(٢٥) المصدر المسابق ج١ ص ١٢٨ ، ١٥٥ .

(٢٦) حنا ، المرجع السابق ص ١٢٠ ، ثم القاسمي ، قاموس ، ج١ ص ١٥٦ ، ٣ح١ ، ١٦٨ .

(٢٧) انظر الصايغ ، المقترب ، ٧٠ب ، ٧١ آ .

(٢٨) Burckhardt, J.I., **Travel in Syria and Holyland.** London 1822, pp. 299-301 .

(٢٩) انظر : خنشت ، يوسف موسى ، طرائف الامس غرائب اليوم ، أو صورة من حياة النبك وجبل القلمون في اواسط القرن التاسع عشر ص ٤٨ .

(٣٠) انظر سجل محكمة الميدان رقم ١٩٨/ص ٣٢ . وكان هناك نوعان من العدان عدان كبير وعدان صغير فمثلا قرية الخيارة كانت ترتوي من نهر الزلف لها عدانان كبير وصغير ، الكبير كل ١٤ يوم نهار الخميس وليلة الجمعة كامل النهر اما عدانها الصغير فكان يوم الجمعة الثانية وليلة السبت نصف النهر ، وكما ترى فقد حدد العدان باحد ايام الاسبوع وساعات من اليوم ، مثال ذلك بستان الزافة من اراضي القنية والحمرية شربه من نهر المعلقات من ماء الخرق ومن الخلخال يوم الاثنين من الفجر الى غروب الشمس في كل اسبوع ومن المعلقات والكلاب نهار الجمعة من الفجر الى غروب الشمس وليلة الاربعاء في خمسة عشر يوما من غروب الشمس الى فجر نهار الخميس انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٣ ، ص ١٢٩ .

وكذلك اراضي التطابع بالجورة بها اراضي فواكه وزيتون تروى من نهر الانباط عدانان في كل سبعة عشر يوما على نوب آهله وفي كل اربعة وثلاثين يوما خمس ساعات من نهر الانباط والشاغور على نوب اهله وفي كل اربعة وثلاثين يوما خمس ساعات من نهر الانباط والشاغور على نوب اهله اربعة ايام وثلثا يوم مع لياليها وفي اوائل تشرين السبت من نهر الانباط والاحد من نهر بانياس . انظر : السجل رقم ٣٣٦ محاكم دمشق ، ص ٧٢ كما كان مستاجرو بساتين الوقف في دمشق

والتي كانت تروى من فروع بردى يدفعون للدولة مبلغا من المال مقابل ما يدخل الى بساتينهم من الماء من ماصيـــة النهر .

انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ ١٢٠١–١٢٠٩ هـ ، ص ٤٩ .

(٣١) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/ص١٨٩ القضية ٨ محرم ١٢١١هـ ثم ص ٥ مـــن السجـــل نفســــه .

(٣٢) وهي فروع من بردى مثل : يزيد ، قنوات ، بانياس ، الداراني ، تورا ، العقرباني ، الداعياني ، المليحي ، الزبديني ، الزابون ، البيلاني ، الملك ، الشعراني ، الابيض وغيرها . وكان كل واحد من هذه الفروع يروي جهة معينة من غوطة دمشق اما تقسيمها فكان يعود الى عهود قديمة وكان لكل قرية ايام مخصوصة تعرف بالعدان ، انظر : القاسمي ، قاموس الصناعات الشامية، ج٢، ص ٤٢٩ .

(٣٣) القاسمي ، قاموس الصناعات الشامية ج٢ . ص ٢٤٢، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٣٤) انظر : البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، تحقيق احمد عزت عبد الكريم ، القاهـــرة ١٩٥٩ ، ص ٧١ .

(٣٥) العبد ، حسن اغا ، تاريخ حسن اغا العبد ، ص ١١٢ ، تحقيق يوسف نعيسة ، دمشق ١٩٧٩ .

(٣٦) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٣٧) المصدر السابق . ص ١٢١ .

(٣٨) انظر : العبد ، المصدر السابق ص ١٥٢ .

(٣٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ ، ص ٢٨٨ .

(٤٠) القاسمي ، المصدر السابق ، ج١ ص ٥٥ ص٥٦ .

(٤١) Volney, C.F. **Voyage en Egypt et en Syrie,** 3 vol., Paris 1823, p. 378.

(٤٢) الرافعي ، مصطفى ، الاسلام نظام انساني ، ص ١٢٥ ثم : حنا ، القضية الزراعية ، قسم١، ص ١١٠ .

(٤٣) القاسمي ، المصدر السابق ج٢ . ص ٣١٠.

(٤٤) حنا ، المرجع السابق ، ص ١٠١ – ١٠٢ .

(٤٥) انظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق العدد ٩ ، ١٩٢٩م ، ص ٦٤٥–٦٤٦ .

(٤٦) انظر : كرد علي ، محمد ، جباية الشام في الاسلام ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق العدد١ ، ١٩٢١م ، ص ٢٦٥ .

(٤٧) انظر : الوثائق التاريخية في دمشق ، المجلد الثاني ، ص ٣٦–٣٧ ، الوثيقة رقم ٣٠/سنة ١٢٤٥هـ دار الوثائق التاريخية – المتحف الوطني بدمشق .

(٤٨) خوري ، فيليب ، مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني ج١ ص٤٥٤ ، ١٩٧٨م .

(٤٩) نفس المرجع ج١ ص ٤٤٩ .

(٥٠) Polk, W.R., **The opining of South Libanon,** 1788-1840, Harvard univ. Press, 1963, p. 180.

(٥١) **انظر: رستم ، اسد ، الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، بيروت ١٩٣٠-١٩٣٤ المصدر السابق ٣و٤ ص ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٨ .**

(٥٢) **انظر : الصايغ . فتح الله ابن انطون المقترب في حوادث الحضر العرب . ص ٧٦ب ص ٢٧٧-٢٨١ ثم انظر :** Polk, op. cit., p226

(٥٣) **انظر : رستم ، المصدر السابق ، ص ٨١ .**

(٥٤) **رستم ، اسد المصدر السابق ، المجلد ٣-٤ . ص.١٥٠-١٥١ . ولقد سكنت /٧٤/ قرية في منطقة حلب وزادت مساحة الاراضي التي غرست بالاشجار او زرعت اراضيها وزاد عدد القرى من ٢٣٨ الى ٦٨٣ ماب ين عامي ١٨٣٦-١٨٣٨م ، انظر :** Polk. op. cit. p. 168

(٥٥) **انظر : رستم ، المصدر السابق ، المجلد ٣-٤ ص ٢٢٦ . ثم انظر :** Polk, op. cit, p. 223

(٥٦) **رستم ، المصدر السابق ص ١٦٦ .**

(٥٧) **حنا ، القضية الزراعية القسم الاول ، ص ١٠٠ .**

(٥٨) **رستم ، المصدر السابق ص ١٦٨ .**

(٥٩) **انظر سجل محكمة حماه رقم ٥٠/١٢٥٠ - ١٢٦٣ هـ ص ١١١ .**

(٦٠) Polk, op. cit , p. 169

(٦١) **Ibid.,** p 223.

(٦٢) **انظر : رستم ، المصدر السابق ، المجلد ٣-٤/ص ١٨٥ .**

(٦٣) **انظر : حنا ، القضية الزراعية ، ص ١٠٠ . وجاء في مراسلة اهالي قرية الشفونية الى القاضي العام مايلي : « اعلاما به لكل واقف عليه وناظر فيه ومستمع اليه من اسباب الديون المرتبة بذمة اهالي قرية الشفونية بوجه العموم يحيطون علما ويدركون اذعانا وفهما انه ثبت لدينا وتحقق عندنا كثرة ديون اهالي القرية ووفرة مطلوباتهم واضمحلال احوالهم وتلف مزروعاتهم وموت بقرهم وآل حالهم الى الدثور والاضمحلال ولخراب قريتهم وتعطيل الاموال الميرية الترتبة عليهم وان عليهم ديون كثيرة ومطالب وفيرة لاقدرة لهم على ادائها الا على حكم التقسيط بان يدفعوا اولا الاموال الميرية الذي عليهم وثمن مزروعاتهم وبقرهم ومصارف تمشية احوالهم وبعد ذلك يدفعوا عليهم من الديون لاربابها في عشرة اقساط متساوية كل سنة عشر الديون الذي بذمتهم لاربابها لكل صاحب ماية غرش عشرة غروش من فاضل كسبهم بعد اداء مصاريفهم اللازمة وبعد اداء الستة الاف الذي بذمتهم لايتام الشيخ محمود وبعد ما ابرزوا ما في يدهم عرضحال مشروح عليه لنا من قبل حضرة كتخدا افندينا ولي النعم والي الشام حالا » .. عرض ذلك القاضي العام وقام بدوره برفعها الى الوالي .. تحريرا في تاسع عشر من شوال / سنة ١٢٥٩هـ.**

الداعي السيد محمد نظيف القاضي بدمشق

انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم /١٢٥٩/٣٧٩هـ ، ص ٣٧ وما بعدها .
كما ترى مثيلا لهذه العريضة في ١٦ شهر شوال ١٢٥٩ هـ وختام ذو الحجة ١٢٥٩هـ وثلاثة عشر ربيع الاول سنة ١٢٦٠ هـ .

(٦٤) الصباغ ، ليلى ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، دمشق وزارة الثقافـة ١٩٧٣ ، ص ١ ٥٠.

(٦٥) Gibb, H.A.R. and Bowen, Harold , **Islamic society and the west**, 2vol. in 4 Parts, London 1954, vol. 1, pp. 212-246.

(٦٦) حطب زهير ، تطور بنى الاسرة العربية ، لبنان ١٩٧٦ ، ص ١٥٩ .

(٦٧) الصايغ ، المقترب ، ص ٢٧٨ ، ٧٨ب ، ٧٩ب ، ٢٨٠ ، ٨٠ب .

(٦٨) الصايغ ، المقترب ، ص٦٠ ب ، ٢٦١ .

(٦٩) Burckhardt, op. cit. p. 299

(٧٠) جيب وباوون ، المجتمع الاسلامي والغرب ، (الترجمة) ج٢ ،ص ٨ ، ٢٣.

(٧١) المرادي ، سلك الدرر ، ج٣،ص ٢٧٦ .

(٧٢) مجهول ، مذكرات تاريخية ، ص٣٥ .

(٧٣) المقترب في حوادث الحضر والعرب ص ٤٥ب ، ٢٤٦ .

(٧٤) الصباغ ، المرجع السابق ، ص ٥٨،٥٩ .

(٧٥) البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ص ١٤٤ .

(٧٦) باسكوال ، جان بول، المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام . مقالة بعنوان (البيئة والتغذية في حوران في القرن التاسع عشر) ج١ ، ص ٤١٧-٤١٨.

(٧٧) باسكوان ، المرجع السابق ، ص٤١١، ٤١٧، ٤١٨ .

بيع اردب الارز في سنة ١٨٤٠م في اللاذقية بمائتين وخمسين قرشا . انظر الصايغ ، المصـدر السابق ص ٨٨ . والاردب عبارة عن ثلاث قفات مصرية .

(٧٨) الغزي ، كامل بن حسين بالي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ج٢ ، ص١٢ ، ١٢٦، المطبعةالمارونية ١٩٢٢ - ١٩٢٦م .

(٧٩) تقي الدين ، محمد اديب ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ٥٦٩ ، ٥٨٦ ، بيروت ١٩٧٩ م

(٨٠) خاطر ، لحد ، العادات والتقاليد اللبنانية ج٢ ، ص ١٠٤ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٨١) المقترب ،ص٢٧٤ .

(٨٢) انظر : باسكوال ، المرجع السابق ج١ ص ٤٢٣ .

(٨٣) المرجع نفسه ص٤٢١ ، ٤٢٢،٤٢٣ .

(٨٤) Burckhardt, op. cit. pp. 292-94

(٨٥) نقصد بريف دمشق سكان الريف نساء ورجالا الذين استقروا في المناطق التابعة لدمشق، في الغوطة وادي بردى وجبال القلمون وحوران وجبل حوران في هذه الفترة .

(٨٦) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ ص ١٧٥، ثم سجلها رقم ٢١٥ ص ١٨٠ .

(٨٧) حمامي ، حسن ، الازياء الشعبية وتقاليدها في سورية ص١٣٨-١٤٣ ، دمشق ١٩٧٢ حيث يقول ايضا : ان الجروال تسمية فارسية الاصل وقد انتشر هذا النوع في بلاد فارس والعراق وسورية وعلى طول سواحل المتوسط حتى اسبانيا حيث كان يسمى فيها (Guraguella) وكان قيد الاستعمال في العهود الاسلامية الاولى .

(٨٨) المرجع السابق ، ص١٥١-١٥٢ .

(٨٩) المرجع السابق ، ص ١٦٢.

(٩٠) Burckhardt, op. cit. pp. 294, 303, 306.

(٩١) حمامي ، المرجع السابق ص ١٥٣ .

(٩٢) Burckardt, op. cit., P. 294. and see : Russell,A., The Natural history of Aleppo, London 1794 , vol. l, P. 111.

(٩٣) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤/١٢٥٦ - ١٢٥٧ هـ ص ٢٥ : تركة شاكر محمد رجب من اهالي دوما المتوفى سنة ١٢٥٧ هـ .

(٩٤) ص١٣٢ - ١٣٤ ، ١٣٧ .

(٩٥) حمامي ، المرجع السابق ، ص١٣٨.

(٩٦) Porter, J, I., **Five Years in Damascus** , London 1855, vol. l,p. 337.

(٩٧) القاسمي ، المصدر السابق ، ج١ ص٨٢ .

(٩٨) حمامي ، المرجع السابق ، ص ١٦٧ ثم القاسمي، المدر السابق ، ج٢ ص٢٧٠.

(٩٩) Burckhardt, op. cit., p. 306.

(١٠٠) IBID ? p. 294 .

(١٠١) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ ص ١٨٠ .

(١٠٢) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ / ١١٩٧ - ١٢٠٠ هـ ، ص ١٨٠ ، القضية في محرم سنة ١١٩٩ هـ .

(١٠٣) المصدر نفسه ص ١٠٦ ، القضية في ختام شوال سنة ١١٩٨ هـ .

(١٠٤) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٢١٥ ص ٩ ، تركة نفيسة بنت علي بيضون من قرية كفرسوسية المتوفاة سنة ١١٩٨ هـ ، ثم ص ١٨٨ : تركة رحمة بنت الحاج محمدمن اهالي قرية دوما المتوفاة سنة ١١٩٩ هـ .

(١٠٥) حمامي ، المرجع السابق ، ص ١٧٣ ، ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٩٩ / سنة ١٢٣٧ هـ /٢١٥ :تركة المرحومة رابعة بنت السيد احمد الجابي من اهالي قرية حرستا .

(١٠٦) المرجع السابق ، ص ١٧٩–١٨٠ .

(١٠٧) انظر : يوسف نعيسة ، مجتمع مدينة دمشق ، رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، جامعة القاهرة ثم جامعة دمشق ، ١٩٨٣–١٩٨٤ ، ص ٤١٨ .

(١٠٨) حمامي ، المرجع السابق ، ص١٩٠،١٩٩ .

(١٠٩) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ ص٩ ، تركة نفيسة بنت علي بيضون من قرية كفرسوسية المتوفاة سنة ١١٩٨ هـ ، ثم ص ١٨٨ : تركة رحمة بنت الحاج محمد من قرية دوما المتوفاة سنة ١١٩٩هـ. ثم رقم ٢٦٥ ص ١٢٤ : تركة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفرسوسية المتوفاة سنة ١٢٤٣هـ.

(١١٠) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٣٦٥ ، ١٢٥٣ هـ ، ص ١٢٤ : تركة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفرسوسية .

(١١١) انظر : سجل القسمة العسكرية رقم ٢١٥ ص ١٨٨ : تركة الحاجة رحمة بنت الحاج محمد من اهالي قرية دوما ، القضية في ١٩ / ربيع الثاني سنة ١١٩٩هـ ، ثم رقم ٢١٥ ص ٦٨ : تركة كلسن بنت خليل عبدالله المتوفاة ١١٩٧هـ كان لديها زنار من الفضة وزنار من الذهب .

(١١٢) حمامي ، المرجع السابق ص ١٩٠ ، ١٩٩ .

(١١٣) استخدمت المراة انواعا عديدة من النقود الذهبية عثمانية وغير عثمانية في هذه الصفة وغيرها من أدوات الزينة ، وكان من هذه النقود : غازي قديم ، وفندقلي ، وعادلي ، ومجري وجهادي تاريخي اسلامبولي وافرنجي ابوشوشة ، وافرنجي ابو عامود وغيره . انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥ ص ٣٠ .

(١١٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٢٩/ ص ٢١٨ : تركة اسما بنت علي بن الشيخ عمر من كفرسوسية .

(١١٥) حمامي ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

(١١٦) كانت تسمى « شيكان فزي » انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٤ ص ٤ : مخلفات اسما بنت محمد شريف العطار المتوفاة سنة ١٢٥٦ هـ .

(١١٧) حمامي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٦، ٢٠٨ .

(١١٨) سميت في مدينة دمشق (بالسنوبرة) وهي من الذهب . انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢١٥ ص ٦٨ : تركة كلسن بنت خليل عبد الله المتوفاة سنة ١١٩٧ هـ في دمشق .

(١١٩) حمامي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(١٢٠) المرجع السابق ص ٢١١، ٢١٥ .

(١٢١) انظر :سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٦٥ ص ١٢٢ : تركة الحرمة صفية بنت الشيخ محي الدين من قرية كفرسوسية .

(١٢٢) القاسمي ، قاموس ، ج ٢ص ٢٧٠ .

(١٢٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٧.

(١٢٤) المصدر السابق ، ج٢ ص ٤٤٣ .

(١٢٥) المصدر السابق ، ج١، ص ٨١ .

(١٢٦) حمامي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٥ .

(١٢٧)خنشت ، المرجع السابق ، ص ١٥ .

(١٢٨) حمامي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٦.

التجارة الدولية في مناطق شرق الاردن (من جنوب الشام) في العصر المملوكي

د. يوسف درويش غوانمه

جامعة اليرموك

كان لبلاد الشام دور متميز في التجارة الدولية منذ اقدم العصور ، ونالت منطقة شرق الاردن حظا وافرا من تلك التجارة ، منذ ان اصبحت الطرق التجارية تتجه نحو البحر الاحمر والجزيرة العربية عبر الاردن الحالي ، فازدهرت لذلك كل من ايلة (العقبة) ، والبتراء ، وعمان وجرش(١) . ولم تنته العلاقات التجارية بين الشام والغرب الاوربي بالفتوحات الاسلامية ، فالعرب لم ينكفئوا على انفسهم بل اعطوا التجارة والعلاقات الدولية عناية خاصة ، وفتحوا اسواق الشام وتجارته امام الغرب الاوربي بشكل واسع(٢) . وظلت اهمية منطقة الاردن قائمة طيلة العصر الاسلامي ، وظلت دروبها تخدم حركة المواصلات والاتصالات البريدية بين الحجاز وبلاد الشام ومصر .

ففي العصر الاموي يبرز ثراء مدينة دمشق التجاري والاقتصادي في وسط بلاد الشام ، وتبقى منطقة الاردن همزة الوصل بين العاصمة والجزيرة العربية(٣) . وفي العصر العباسي تنشط مدينة عمان ، ويتجلى دورها بخروج شبكة من الاتصالات والمواصلات منها ، لتربطها بالعراق والحجاز وبقية المدن الشامية(٤) . واتسع دور بلاد الشام في التجارة الدولية في فترة الوجود الفرنجي في المنطقة ، فالدويلات الايطالية قدمت المساعدات العسكرية لمملكة بيت المقدس مقابل امتيازات تجارية في الموانيء الشامية(٥) . وبقي هذا الدور قائما في العصر المملوكي ، فاستقر بالمدن الشامية وموانئها

عدد كبير من تجار البندقية ، وجنوا ، وامالفي ، وفلورنسا ، وقطلونيا ، وبرشلونة ، وفرنسا(٦) ، وبعض مواطني شمال اوروبا المرافقين للجنويين والبنادقة ، كما استقر فيها وكلاء الشركات الاجنبية الاوربية التي لها فروع في الشرق ، نذكر منها شركة باردي (Bardi) الفلورنسية ، التي كان لها فرع في مدينة بيت المقدس(٧) .

وسبب اقبال الاجانب على بلاد الشام بهذا الشكل يرجع الى اتصالاتها الوثيقة والمباشرة مع اسواق الشرق ، كما ان مدنها وموانئها كانت مهبط الحجاج المسيحيين الغربيين الى بيت المقدس(٨) . وكانت مواسم الحج الاسلامية والمسيحية فرصة للتبادل التجاري بين الشرق والغرب ومن هنا فان اسواقها فاقت اسواق مصر في تنوع السلع التي ترد اليها(٩) . وفي هذا المجال لابد ان نذكر قبرص التي كانت تستودر التوابل والسلع الشرقية عبر الطريق القادم من سورية وموانئها ، وقد اكتظت اسواقها بالسلع الشرقية ، حتى ان احد الرحالة الالمان قال : « ان التوابل في قبرص اكثر من الخبز في المانيا »(١٠) . وكانت دمشق وبيت المقدس وحلب وبيروت وعكا ويافا وطرابلس وصور وصيدا من المدن التي ازدهرت تجاريا في العصر المملوكي ، واستقر فيها عدد من التجار الاجانب(١١) .. ومما تجدر ملاحظته ان الدول الاوربية بنت علاقات تجارية متطورة مع مصر وبلاد الشام ، واعتمدت هذه التجارة على السلع المتبادلة بين الشرق والغرب ، فالسلع الشرقية تركزت بشكل رئيسي على التوابل ، والحرير والعاج، وبالمقابل تركزت صادرات الغرب الى الدولة المملوكية على الحديد، والاخشاب وادوات الملاحة ، والرقيق (١٢) .

وقد لعب طريق البحر الاحمر دورا متميزا في نقل السلع الشرقية الى المدن الشامية ، واعتبر البحر الاحمر احد شرايين التجارة الدولية منذ اقدم العصور (١٣) . ونهضت مكة في وسط الحجاز كمركز تجاري له اهميته، وارتبطت بعلاقات تجارية قبل الاسلام مع الهند والصين واليمن والخليج العربي، والعراق والشام والساحل الافريقي، واعتمد اقتصادها على التجارة بالدرجة الاولى، فقدرت بعض المراجع صادراتها السنوية من السلع الشرقية بمبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر١٥ دولار(١٤) ، ولكن التطور الكبير لتجارة البحر الاحمر يظهر في العصرين الايوبي والمملوكي ، حتى اصبح بحق أهم شريان دولي للتجارة الشرقية ، وذلك بعدما تعطل الطريقان الاخران : طريق الخليج العربي ، وطريق اواسط آسيا ، بسبب الظروف غير المستقرة سياسيا وعسكريا التي المت بالأقطار المحيطة بهما(١٥) . وقد استغل المماليك بذكاء هذا الطريق التجاري ، فسنوا الانظمة والقوانين التي من شأنها جلب التجار الاجانب الى بلادهم .. نذكر من ذلك المرسوم الذي اصدره السلطان قلاوون ٦٧٨هـ ــ ٦٨٩هـ/ (١٢٧٩ ــ ١٢٩٠ م) ، للتجار الاجانب في الشرق والغرب يدعوهم لزيارة بلاده وموانئه ، وجلب سلعهم ، حيث

سيلاقون المعاملة الحسنة ، والتسهيلات الخاصة ، بعيدا عن الجور والظلم ، فالعدل في بلاده سيحميهم . ومما ورد في مرسومه قوله :

« فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم ، فليأخذ الاهبة في الارتحال اليها ، والقدوم عليها ، ليجد الفعال من المقال اكبر ، ويرى احسانا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالاكثر ، ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور ، وفي سلامة من النفس والمال .. ومن احضر معه بضائع من بهار واصناف تحضرها تجار الكارم* فلا يخاف عليه في حق ، ولا يكلف امرا يشق، ابقى لهم العدل ما شاق ورفع ما شق .. الخ»(١٦) . ويرى لابيدوس (Lapidus) أن حسن الضيافة والتفهم الجيد والمعاملة الحسنة من المماليك ، شجعت التجار الاوربيين للاتجار معهم(١٧) . ثم ان التجار العرب المسلمين كونوا في العصر المملوكي مستوطنات ومراكز تجارية في وسط وشرق افريقيا وفي المدن الهندية والصينية الساحلية وجزر جنوب شرق آسيا(١٨) .

وحماية للتجارة اقام المماليك الدرك لحراسة الطرق التي تنتقل من خلالها المتاجر والسلع المختلفة ، وبنوا الخانات والفنادق خدمة للمسافرين ، واشاعوا الامن والاطمئنان فيها ، مما مكن القوافل التجارية من التنقل بحرية وامان في الدروب والمسالك الشامية المختلفة(١٩) .

وكان لميناء أيلة (العقبة) على الطرف الشمالي للبحر الاحمر دوره في حركة التجارة الدولية ، فأيلة اتصلت منذ القدم بالبتراء وبصرى بطريق اطلق عليه فيما بعد (الطريق السلطاني)(٢٠) . ولكن دور هذا الميناء يبرز واضحا في العصر المملوكي ، فقد كانت السفن التجارية ترسو فيه ، فابن اياس يذكر عن وجود « قصر في (ايلة) يسكن فيه قباض المكوس بسبب مراكب التجار التي ترد هناك من الهند واليمن والصين وغير ذلك من البلاد »(٢١) . ومن هذا الميناء تنقل السلع برا عبر الهضبة الاردنية الى دمشق وبيت المقدس وحلب(٢٢) . وساعد في خدمة حركة التنقل هذه خانات :

* الكارم والكارمية : اسم اطلق على ملاك السفن والتجار المترددين على بلاد الهند والصين ،والساحل الشرقي لافريقيا ، وبدأ نشاط هؤلاء التجار منذ العصر الفاطمي ، ولكنهم بلغوا اوج قوتهم ونفوذهم في العصر الايوبي والمملوكي ، وشكلوا اكبر قوة مالية انذاك . وقد عمل المماليك على الاطاحة بهذه القوة التجارية والتقليل من نفوذهم الاقتصادي والاجتماعي ،ومنعوهم من التمتع بالنفوذ السياسي، فلم يرغبوا بوجود قوة اخرى تناهض قوتهم (جوايتن ، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية ، ترجمة عطية القوصي، الكويت.١٩٨٠ ، ص ٢٧٩ (وانظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ج٤ ، ص ٣٢) .

العقبة ، والحسا ، وعنيزة ،و القطرانة ، وعمان ، فاقيمت البرك قرب هذه الخانات لسقيا المسافرين ، كما اوجد المماليك مركزا لقباض المكوس في جسر الحسا على امتار قليلة من الخان ، كان المتحصل منه عشرة الاف مثقال من الذهب سنويا(٢٢) ، بالاضافة الى مركز اخر اقاموه في (بويب العقبة) جنوب العقبة الحالية ، لتمكيس السلع التجارية القادمة برا من جدة في طريقها الى الشام ومصر عبر ايلة (العقبة) وسيناء(٢٤) .

وخدمة لحركة التجارة البعيدة المارة عبر منطقة شرق الاردن اقيمت الاسواق الموسمية وبالاخص في فترة مرور قوافل الحج الشامي والمصري في طريقها الى الحجاز . فقوافل الحجيج هذه خدمت حركة التجارة العابرة (الترانزيت) ، فكان موسم الحج فرصة للتجار للبيع والشراء وجلب السلع الشرقية من الحجاز ، ونقل السلع الشامية بالمقابل(٢٥) . ذكر ابو المحاسن ان مدينة جدة في اواخر العصر المملوكي كانت الميناء الرئيسي للسلع الشرقية(٢٦) ، لذا بنوا حولها سورا وزودوه بالابراج الحصينة والمدافع(٢٧) . وكان يصل الى مكة في مواسم وصول سفن الهند الى عدن ما لايقل عن ٠٠٠ر٨٠ جمل ، وفي العادة يوقت وصولها في معظم السنوات في موسم الحج ، وتستمر هذه القوافل في طريقها الى دمشق ، ومن ثم تعود بسلع الشام والغرب الاوربي الى عدن ومنها الى الهند(٢٨) .

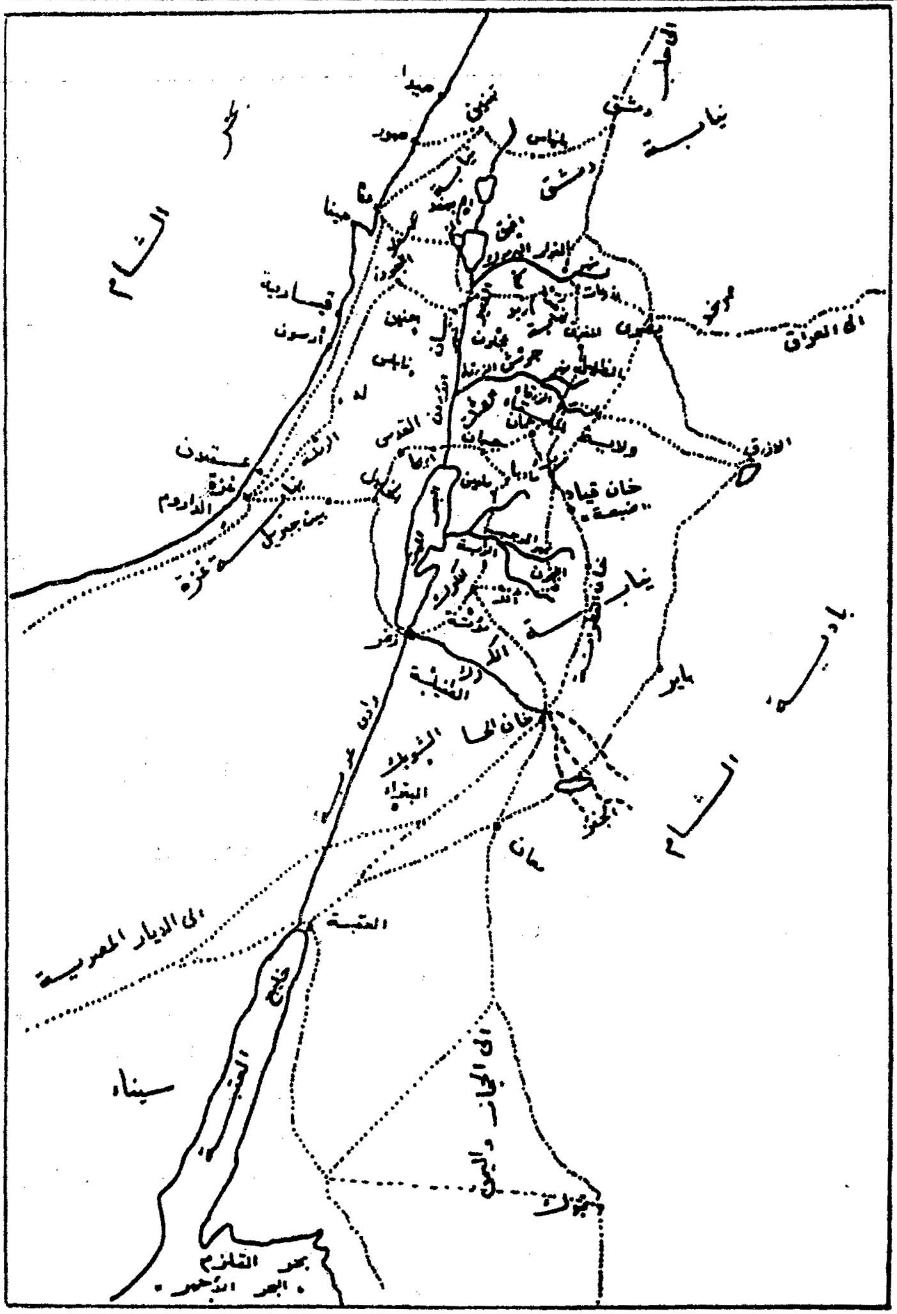
وكانت قوافل الحج الشامي تسير من دمشق وتتجمع في مزيريب قرب درعا ، ومنها الى الرمثا فتقيم فيها عدة ايام . وقد دلت الكشوف الاثرية التي اجرتها جامعة اليرموك في موقعها الدائم القريب من الرمثا وجود الاف القطع الفخارية المملوكية على مساحة كبيرة وفي اماكن متعددة ، مما يدلل على ان هذه القوافل كانت تقيم في هذا المكان للراحة وللبيع والشراء ، وكانت فرصة لتجار المناطق المجاورة ، ورجال القبائل العربية لبيع ما لديهم وشراء ما يحتاجونه . وتواصل هذه القوافل سيرها الى الظليل الواقعة بين المفرق والزرقاء ، ومنها الى الزرقاء وهي بلدة وافرة المياه ، فتقيم فيها عدة ايام لتواصل سيرها الى زيزاء قرب عمان ، ومنها الى اللجون ، ثم الى الثنية خارج الكرك ، فتقيم اياما ثم تواصل سيرها الى معان ومنها الى عقبة الصوان وذات حج في طريقها الى الحجاز(٢٩) . وقد تغير درب الحج الشامي اكثر من مرة منذ القرن الاول للهجرة (السابع الميلادي) (٣٠) ، ففي بعض الاحيان تسير القوافل من دمشق الى الكسوة ، الصنمين ، زرعه (درعا) ، بصرى ، ومن بصرى كانت تتجه في فترة الاحتلال الفرنجي لمنطقة جنوب الاردن الى الازرق ، باير ، الجفر ، الى ان تصل الى معان (٣١) ، أو تتجه من بصرى الى زيزاء راسا — وقد سلك هذا الطريق ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/ (الرابع عشر الميلادي) —ومن زيزاء الى اللجون ، ثنية الكرك ،

معان ، ومن معان الى عقبة الصوان ، ذات حج ، وادي بلدح ، تبوك ثم العلا فالمدينة المنورة(٣٢). واحيانا كان ركب الحجيج الشامي يتجه من معان الى ايلة ثم الى تبوك في طريقه الى الحجاز(٣٣) ويذكر ابن فضل الله العمري ان اسواقا كبيرة كانت تعقد في هذه المحطات وصفها بقوله : « وهي قرى عامرة ذوات ماء واسواق ومعايش وجلابة »(٣٤). وتذكر المصادر ان سوقا تجاريا متشعبا كان يعقد في مدينة ايلة (العقبة) في العصر المملوكي وصفه ابن فضل الله العمري قائلا : « وهو مكان مقصود تأتي اليه اجلاب الشام ، وتقام به الاسواق العظيمة الممتدة المتشعبة التي لا توجد في امهات الاقاليم وكبار المدن . ولعل انه لا يعدم فيها موجود من : الخيل ، والابل ، والغنم ، والدقيق والشعير ، والعلف وانواع المآكل والمشارب والمحامل والاكوار والرحال ، والسلاح والقماش والفرش والامتعة ، وغير ذلك ، وايام اقامة الحاج هذا ايام مواسم »(٣٥) .

ولا بد من الاشارة الى ان دمشق ارتبطت بالقاهرة بخط يسير عبر منطقة شمال الاردن في اربد مرورا بالاغوار وفلسطين . فالقلقشندي يذكر ان المنطقة الواقعة قبلي دمشق والتي عبر عنها (بالصفقة القبلية) ، هي طريق الابواب السلطانية الشريفة في القاهرة ، وممر التجار قاصدين الديار المصرية (٣٦) . وتشمل هذه الصفقة بلاد حوران والغور وما الى ذلك ، فالاغوار جميعها كانت داخلة فيها(٣٧) . وقد ربط المماليك بلاد الشام بالقاهرة بخطوط المواصلات البريدية : الطائرة والبرية والمنارات ، وكانت مدينة اربد احد هذه المراكز ، كما نقلوا الثلج على الجمال من دمشق الى القاهرة عبر هذا الطريق(٣٨) . وقد استخدم هذا الطريق لحركة الجيوش العسكرية المملوكية مرورا بالاغوار واربد(٣٩) . ولهذا السبب فقد بني في مدينة اربد الخانات والفنادق خدمة للمسافرين والتجار ، كما اقيمت لهم بركة لسقيا دوابهم(٤٠) . وتذكر المصادر ان القوافل القادمة من بخارى وسمرقند وشيراز وآمد وبلاد الارمن والعراق كان لابد لها من المرور عبر هذا الطريق مرورا بمدينة اربد في طريقها الى القاهرة ، وكانت هذه القوافل تحمل معها صنوف السلع المشرقية والشامية المختلفة(٤١) . وقد اقام المماليك الجسور فوق نهر الاردن خدمة لحركة المواصلات والاتصالات بين الشام وفلسطين والديار المصرية (٤٢) .

مدينة عجلون وعلاقاتها التجارية :

تذكر بعض المصادر وجود المنشآت والمرافق التجارية في المدن الشامية والمصرية خدمة لحركة التجارة الدولية ، نذكر منها : القيساريات ، ودور الوكالة . وخصصت هذه المنشآت للتجار القادمين الى تلك المدن ، فبعضها اختصت بالتجار الاوربيين(٤٣) ، واخرى بالتجار الوافدين من الاقطار العربية والاسلامية . وقد عكف الامراء المماليك



شبكة المواصلات وطرق التجارة في منطقة شرقي الاردن في العصر المملوكي
من اعـداد الباحث

على بناء هذه القيساريات للكسب واستثمار الاموال . والقيسارية (Caesarea) أو (Cesarie) كلمة لاتينية ظهرت في بلاد الشام قبل مصر ، وهي بناء مستطيل او مربع، مسقوف تعلوه الرباع ، وهي في العادة غرف تؤجر للتجار والصناع للاقامة فيهـا ، وتحتوي كل قيسارية على عدد من المحال التجارية التي تؤجـر للتجار والمصانـع الصغيرة ، بالاضافة الى انها تعرض السلع للبيع بالجملة(٤٤)، ولكل قيسارية حارس يحرسها ، وباب ضخم يغلق ليلا(٤٥) .

ومن المرافق الاخرى التي خدمت حركة التجارة الدولية دور الوكالـة . ويـرى المقريزي ان لا فرق بين الوكالات والخانات والفنادق والقيساريات ، فهي جميعهـا ابنية ومؤسسات تقوم ، الى جانب مهمة البيع والشراء ، بمهمة اقامة التجار الوافدين من الخارج ، وحفظ اموالهم وخزنها ، بالاضافة الى انها تؤدي مهمة البيع بالجملة والتجزئة(٤٦) . ولكل دار من دور الوكالة هذه وكيل يسمى (وكيل دار الوكالـة) ، يقوم بخزن سلع زبائنه ومن ثم بيعها ، وتأمين ثمنها لاصحابها . فيقوم مقام(الصيرفي)، والتجار الاجانب كانوا يودعون اموالهم عنده وهو بالمقابل يدفع لهم ما يقابلها من عملة بلادهم (٤٧) .

وقد اقام المماليك في منطقة شرق الاردن الخانات خدمة للتجار والمسافرين ، كان بعضها يقدم الغذاء وحذاء الخيل مجانا للمارين والمقيمين فيها(٤٨) . ووجد بجانب كل خان بركة ماء وحانوت ليتزود منه المارون بما يشاؤون(٤٩) ، اطلق عليها (فنادق مبيت القوافـل) Caravanserail حيث يستريح التجار ودوابهم فيها(٥٠) . نذكر منها : خان العقبة ، وخان عنيزة ، وخان معان ، وخان الحسا ، وخان القطرانة ، وخان ضبعة ، وخان عمان ، وخان الكرك(٥١) . ومازال ماثلا للعيان من هذه الخانات : العقبة، والحسا ، والقطرانة ، وضبعة(٥٢) ، وهي ابنية مربعة الشكل من طابقين بداخلهـا ساحة سماوية يتوسطها بئر ماء ، ويحف بهذه الساحة بوائك كبيرة لمبيـت الدواب وخزن البضائع ، اما الطابق العلوي ففيه غرف صغيرة اعدت لمبيت التجار والمسافرين. ووجد في كل خان مسجد صغير ، وفي زوياه الاربع ابراج للدفاع ومزاغل للمراقبة ، ولكل خان مدخل واسع ببوابة ضخمة تغلق ليلا ، فهي والحالة هذه خانات حصينة ، « يأوي اليها من الجاه المساء ، وينام امنا من طوارق الاعداء »(٥٣) .

وجدت هذه المرافق والمنشات التجارية في بعض المدن الشامية والمصرية كدمشق، وحلب وبيروت ، وعكا ، وطرابلس ، وبيت المقدس ، والقاهرة والاسكندرية ، فما هو دور المدن الاردنية من هذه المرافـق ...؟. من خلال رصدنـا للنصوص التاريخيـة ومشاهداتنا الاثرية ، وجدنا الخانات في بعض المدن، كعمان، والكرك، ومعان، والعقبة.

اما القيساريات والوكالات فلدينا نص يؤكد وجودها في مدينة عجلون ، فلماذا وجدت في هذه المدينة الداخلية ، وهل يعني وجودها ارتباط مدينة عجلون بعلاقات تجارية خارجية ..؟.

تقع عجلون في وسط جبال عجلون عند اقدام جبل عوف الذي يطل عليها من الغرب(٥٤) ، وتبعد عن عمان مسافة ٧٣ كم وعن اربد مسافة ٣٢ كم ، وعلى قمة جبل عوف اقام صلاح الدين الايوبي قلعة عجلون سنة ٥٨٠هـ / (١١٨٤م) في موقع استراتيجي جيد(٥٥)، فهل كانت عجلون مدينة بالمعنى المتعارف عليه في العصور الوسطى .؟، أم انها مجرد بلدة (Town) ، تقدم خدمات محلية بسيطة الى سكانها والمناطق المجاورة ، او انها لعبت دورا اكبر في بيع السلع والصناعات الى اسواق اخرى متعددة ، وكان لها اتصالها التجاري مع الاسواق المجاورة ..؟ فان كانت كذلك فهي والحالة هذه مدينة (City) (٥٦) . وباعتقادي ان عجلون كانت مدينة بالمفهوم الوسيط ، فهي مركز حكم ، وفيها مركز للقضاء ، وجباة للضرائب ، وقوات عسكرية تقيم في قلعتها ، بالاضافة الى دورها الاقتصادي والتجاري والثقافي المتميز في منطقة شمال الاردن ..

وعجلون مدينة جميلة في قلب منطقة خصبة ، تحف بها الاودية ذات الينابيع الغزيرة ، وغابات السنديان ، واشجار الزيتون والفاكهة المختلفة . وقد نالت حظا وافرا في العصر المملوكي ، فجعلوا منها نيابة تابعة لمدينة دمشق ، وفي احيان جعلوها نيابة مستقلة يكون التعيين فيها من قبل السلطان بالقاهرة . ومما يؤكد وجهة النظر هذه ، النص الموجود في النقش الكائن على ضريح الصحابي ابو عبيدة بن الجراح في غور الاردن ، وكان السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٨–٦٧٦ هـ / (١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) قد كلف نائب عجلون ببناء هذا الضريح ومما جاء في النقش :

... وذلك بنظر الامير الاجل الاعمال الكبير ناصر الدين منكلي الجاشنكير الظاهري السعيدي نايب مملكة عجلون المحروسة في شهر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمئة (٥٧) .

وهنا نلاحظ ان الظاهر بيبرس ولى على عجلون اميرا برتبة جاشنكير ، وهي احدى وظائف ارباب السيوف ، ويتولاها أمير مقدم ، وهي من المراتب الكبرى في الدولة المملوكية(٥٨) . وقد فعل الظاهر بيبرس ذلك لان الدولة المملوكية كانت في طور التأسيس ، ولاهمية منطقة عجلون وقربها من دمشق العاصمة الثانية للدولة المملوكية ، التي كانت تمثل المركز الثاني بعد القاهرة ، ونوابها كانوا دوما طامعين بالسلطنة ، وفيها يثورون

على الدولة. وعجلون في هذه الحالة تستطيع الوقوف في وجه اي توسع لنائب دمشق، بالاضافة الى ان الخطر الفرنجي ما زال قائما في فلسطين والساحل الشامي. اضف الى ذلك عناصر المعارضة الايوبية في بلاد الشام الذين كانوا ينتهزون أي فرصة للانقضاض على المماليك . وقد قام السلطان المنصور قلاوون ، بنفس التصرف فيما بعد عندما جعل من الصلت نيابة مستقلة على راسها امير برتبة كبيرة ولديه قواته كي يقف في مواجهة السعيد والمسعود ابناء الظاهر بيبرس في الكرك الذين حاولوا التوسع شمالا حتى أن قواتهم وصلت الى صرخد في حوران(٥٩) . وهذا يدلل على الاهمية التي كان يوليها السلطان الظاهر بيبرس لمدينة عجلون ومنطقة شمال الاردن الحالي، بسبب مزاياها الاستراتيجية و الاقتصادية . وبعد وفاته أعيدت عجلون نيابة صغيرة تابعة لدمشق ، لتصبح في اواخر دولة المماليك الثانية (الجراكسة) نيابة مستقلة يتم تعيين نائبها من السلطان بالقاهرة(٦٠) .

وبسبب هذا الاهتمام بمدينة عجلون في العصر المملوكي نلاحظ انها بلغت اقصى درجة من التقدم العمراني والثقافي والاقتصادي ، فابن بطوطة مر بها في القرن الثامن الهجري / (الرابع عشر الميلادي) ووصفها قائلا : « وهي مدينة حسنة ، لها اسواق كثيرة ، وقلعة خطيرة ، و يشقها نهر ماؤه عذب »(٦١) . ومن هنا فقد اقام الامراء فيها القيساريات ، ونذكر منها قيسارية الامير سيف الدين بكتمر ، وقيسارية الامير تنكز ابن عبد الله نائب دمشق وقفها على البيمارستان الذي بناه في مدينة صفد ، والقيسارية القديمة (٦٢) .

وللتدليل على اهمية عجلون الاقتصادية والتجارية ، هناك ثلاث وثائق الاولى ذكرها مفضل بن ابي الفضائل في كتابه « النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » في الجزء الذي نشر في فرايبورغ بالمانيا سنة ١٩٧٣م ، ويتضمن الاحداث من سنة ٧١٧ – ٧٤١ هـ . ففي صفحة ٤١ ذكر ان سيلا عظيما دهم مدينة عجلون في سنة ٧٢٨هـ / (١٣٢٨م) ، واثبت صورة المحضر الذي ارسله نائب عجلون الى دمشق واصفا فيه ما فعله السيل في المدينة(٦٣) . والوثيقة الثانية ذكرها النويري في كتابه «نهاية الارب في فنون الادب » الجزء ٣١ (مخطوط) ، وهي نسخة المحضر المرسلة من مدينة عجلون الى دمشق يورد فيها ما احدثه السيل بالمدينة من خراب (لوحة ٩١) . اما الوثيقة الثالثة فهي نسخة الكتاب الوارد من عجلون والتي ذكرها الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه ونقلها عنه الشيخ علم الدين بن البرزالي ، واثبتها النويري في سفره لوحة ٩١ ، ٩٢ (مخطوط)(٦٤) .

ومن خلال استعراضنا للنصوص الثلاثة نجد تباينا كبيرا فيها من حيث الديباجة

وتفاصيل السيل ، فاكثرها ايجازا ما اورده مفضل بن ابي الفضائل ، ويأتي في المرتبة الثانية النص الذي ذكره النويري واسماه نسخة المحضر المرسل من عجلون ، اما النص الثالث الذي نقله النويري عن الجزري والبرازلي فهو اكثرها دقة ،و بـه معلومـات تفصيلية عن اسواق مدينة عجلون ، ونستطيع ان نجمل ما جاء في هذه الوثائق بمايلي:

اولا : القيساريات

١ ـ قيسارية الامير سيف الدين بكتمر ، ٢ ـ قيسارية الامير تنكز بن عبد الله، ٣ ـ القيسارية القديمة .

ثانيا : الوكالات

١ ـ دار الطعم .

ثالثا : الاسواق

١ ـ سوق الادميين ، ٢ ـ سوق القطانين ، ٣ ـ سوق الاقباعين ، ٤ ـ سوق الخلعيين ، ٥ ـ سوق الفرايين ، ٦ ـ سوق الفاميين ، ٧ ـ سوق الملافين ، ٨ ـ سوق الحصريين ، ٩ ـ سوق اللحامين ، ١٠ ـ سوق السقطيين ، ١١ ـ سوق الصاغة ، ١٢ ـ سوق البز العتيق ، ١٣ ـ سوق ام معبد ، ١٤ ـ سوق الامير سيف الدين ، ١٥ ـ سوق الامير ركن الدين ، ١٦ ـ حوانيت الخبازين ، ١٧ ـ حوانيت الطباخين، ١٨ ـ حوانيت البضاعة ، ١٩ ـ القاضي فخر الدين، ٢٠ ـ حوانيت الدق(٦٥) .

رابعا : المرافق الاخرى

١ ـ المصبغة (الدباغة) ، ٢ ـ العرصة (وتسمى احيانا عرصة الغلال ، ساحة واسعة لبيع الغلال) ، ٣ ـ المسجد الجامع واوقافه ، ٤ ـ الحمام السلطاني ، ٥ ـ الحمام الصالحي ، ٦ ـ مسلخ المعز والضان ، ٧ ـ مسلخ ام معبد ، ٨ ـ المدرسة اليقينية ، ٩ ـ الجسور والقناطر والاقباء المبنية فوق الاودية ، ١٠ ـ الطواحين .

فمن خلال الارقام السابقة نلاحظ عدد المنشات والمرافق التجارية وغيرها التي هدمها السيل ، وهي جزء من منشات ومرافق المدينة ، مما يدلل على تشعب اسواق هذه المدينة وكثرتها ، ويؤكد ما جاء في وصف ابن بطوطة لها ، والذي يهمنا هنا هو القيساريات ودار الطعم ، فالوثائق الثلاث اكدت وجود (دار الطعم) في مدينة عجلون، فما وظيفتها ..؟. ذكر القلقشندي وجود (دار الطعم) في مدينة دمشق وقال انها

« بمثابة الوكالة بالديار المصرية »(٦٦) . ووجدت في دمشق وظيفة (شاد دار الطعم)، وهو الموظف المسؤول عن جمع المكوس من السلع المبيعة في هذه الدار(٦٧) . فدارالطعم اذن هي دار وكالة بالمفهوم الذي كان شائعا في مصر ، اضف الى ذلك ان دارا للوكالة وجدت في بيت المقدس فيالعصر المملوكي ، ونعتتها بعضالوثائق (بالوكالة المرعية)(٦٨). وقد وجد مايسمى (بوكيل التجار) الذي كان يقوم بمهمة الخازن للسلع او المودعلها، وهو المسول عن التجار الاجانب الذين لا يستطيعون الاشراف على اعمالهم شخصيا. ويتقاضى وكيل التجار عمولة مقابل خدماته التييقدمها لزبائنه ، ويرتبط عادة بعلاقات مع القناصل الاوربيين المقيمين في بعض المدن الشامية والمصرية (٦٩) .. وعلى ذلك فهل كانت مدينة عجلون مكان جذب للتجار الاجانب ، بحيث اقيمت لهم فيها دار الطعم هذه (دار الوكالة) ..؟.

ان النصوص التي بين ايدينا لا تسعفنا بشيء عن وجود مثل هـؤلاء التجار الاوربيين صراحة في عجلون ، ولكننا نأخذ بعين الاعتبار تلك الوكالات التي انشئت في القاهرة للتجار الشاميين والعراقيين والشرقيين من المسلمين(٧٠) ، نذكر منها ، وكالة قوصون التي خصصت للتجار الشاميين لخزن الزيت والسمسم والصابون ، واللوز والجوز والحلويات وكل انواع السلع الشامية الاخرى(٧١)، وفندقعمارة ، وفندق دار التفاح ، وفندق الملك السعيد بدار الرمان(٧٢)، وفندق مسرور(٧٣) . وقياسا على ذلك فاننا نستطيع القول بان (دار الطعم) في مدينة عجلون كانت مخصصة للتجار الاجانب ، سواء كانوا من الاوروبيين ـلاسيما وقد سمح لهم بالوصول الى بعض المدن الداخلية كدمشق وحلب وبغداد ـ ام من التجار العرب ، أم التجار المسلمين القادمين الى عجلون من خارج بلاد الشام . وتذكر الوثائق ان شادا لدار الطعم كان موجودا في مدينة عجلون كي يجبي المكوس عن السلع والبضائع الواردة والمبيعة في هذه الدار(٧٤). ويعني ذلك ان تجارة عجلون في العصر المملوكيكانت تجارة كثيفة واسعة ، مما يؤكد اهمية هذه المدينة الاقتصادية والتجارية في العصر المملوكي ، فقد قدر المؤرخ الجزري قيمة الخسائر التي نجمت عن سيل عجلون عام ٧٢٨هـ (١٣٢٨م) بما قيمته ٥٠٠,٠٠٠ درهم ، عدا الغلات والمواشي والبساتين والطواحين ظاهر المدينة(٧٥) . وهذا مبلغ كبير بالنسبة لمدينة داخلية كمدينة عجلون .

خلاصـة :

وهكذا فاننا نستطيع التاكيد على ارتباط منطقة شرق الاردن بالتجارة الدولية ، سواء أكان ذلك عن طريق التجارة البعيدة والتجار القادمين الى دار الطعم في مدينـة عجلون ، شرقيين أو غربيين ، أو عن طريق القوافل التجارية المارة من خلالهفي طريقها

الى الحجاز ، او القادمة من الجنوب العربي عبر الحجاز وايلة (العقبة) في طريقها الى دمشق وحلب وبيت المقدس ، او تلك المارة من خلال العقبة برا في طريقها الى الحجاز والجنوب العربي ، أو القادمة من تلك المناطق في طريقها الى مصر والشمال الافريقي، او تلك القادمة من مصر الى بلاد الشام وبالعكس عبر مدينة اربد . ولنا ان نذكر احصائية على سبيل المثال لاحدى القوافل التجارية المارة عبر منطقة شرق الاردن في طريقها من مصر الى دمشق في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، فكانت كما يلي :

اولا : عدد الدواب فيها : ٩٠٠٠ جمل ، ٤٥٠٠ راس من الخيل ، ٤٥٠٠ راس من البغال .

ثانيا : الاموال : ٦٠٠٠٠٠٠ من الذهب العين

ثالثا : البضائع والسلع ما قيمته ٦٠٠٠٠٠٠ دينار (٧٦)

ولا شك ان لهذه القوافل العملاقة التي كانت تجوس دروب الاردن اثرها الاقتصادي الظاهر على البلاد ، بالاضافة الى قوافل الحج الشامي والمصري السنوية التي كانت فرصة للاهالي وتجار البلاد للاتجار معها ، وكانوا يرافقونها حتى الديار الحجازية ، اما التجار النصارى فكان يسمح لهم بمرافقتهم حتى العلا فقط ، فابن بطوطة يقول : « واليها تنتهي تجار نصارى الشام ، لا يتعدونها ويبايعون الحجاج الزاد وسواه » (٧٧)

الحواشي :

(1) Grant, **The Syrian desert.** London, 1937, P. 58, 59 .

ايلة (العقبة) : مدينة على ساحل بحر القلزم ، وهي اخر الحجاز ، كان بها زرع يسير، وهي على طريق حجاج مصر ، ذات تجارة هامة (ياقوت ، المشترك وضعا ، ص ٣١).

البتراء: وعرفت في المصادر العربية بالرقيم ، مدينة بالقرب من البلقاء ، بيوتها منحوتة كلها من صخر كانها حجر واحد (الاصطخري ، مسالك الممالك ،ص٦٤).

عمان : بلد في طريق الشام ، وبالقرب منها الكهف والرقيم ،تشتهر بالزراعة والتجارة وبهاجامع مفسس (ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٧١٩ .

جرش : مدينة في بلاد حوران ، كانت مركزا عمرانيا هاما ، وقد اضحت خاوية على عروشهـا (العمري ، مسالك الابصار ، ج١ ، ص ٢٣١).

(٢) Lopez, (Robert), **The Commercial Revolution of the middle ages,** London, P. 60.

(٣) — Grant, OP . Cit. P. 65.

(٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ، طبعة ليدن ، ١٩٠٦م ، ص ٢٥٠ .

(٥) Fulcher of Chartres, **A History of expedition to Jerusalem,** tran. by Rita Rayan, New Yark, 1973, P. 151-152.

(٦) — Grant,op.Cit . P. 71.

— Sapori (Amande), **The Italian merchant in the middle ages,** New York, 1970, P. 51,.

— Newton (Arthur) **Travel and Travellers of the middle ages,** London, 1926, P. 122, 124.

(٧) — Sapori, op. Cit, P. 51.

(٨) — Lapidus, **Muslims Cities in the later middle ages,** Harvard University, U.S.A. 1967, P. 24.

— Grant, op. cit. P. 70,.

(٩) نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، الهيئةالمصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ص١٤٧ .

(١٠) — Sapori, OP. Cit. P. 83.

(١١) — Lapidus, OP. Cit. P. 24.

(١٢) — Lopez, OP. Cit. P. 63.

(١٣) — Thompson, **An Economic and Social History of the middle ages**, London, 1928, P. 186.

(١٤) **Ibid** , P. 186.

(١٥) — Lapidus , OP. Cit. P. 52.

— Grant, OP. Cit. P. 70.

— Newton, OP. Cit. P.125, 126.

— Lopez, OP. Cit. P. 108.

(١٦) القلقشندي ،صبح الاعشى ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميركية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي القاهرة ، ج١، ص ٣٤٠، ٣٤١ .

(١٧) — Lapidus, OP. Cit. P. 23.

(١٨) — Newton, OP. Cit. P. 90, 100.

(١٩) النويري ، نهاية الارب ج ٢٨ ، لوحة ٢٣ (مخطوط دار الكتب المصرية القاهرة) .
القلقشندي ، نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، دار الكتبالعلمية ، بيروت، ١٩٨٤م ،ص٣٠٤
وانظر :
— Lapidus, OP. Cit. P. 18.

(٢٠) Grant, OP. Cit. P. 40.

(٢١) ابن اياس ، نشق الازهار في عجيب الاقطار ، لوحة ٨٧ (مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة).

(٢٢) — Grant, OP. Cit. P. 40.

(٢٣) ابن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، نشر بولس راويس ،١٨٩٤م، ص١٠٨ ، ١٣٢ .

(٢٤) ابن شاهين ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ .
وانظر : المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ،١٩٣٤م، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

(٢٥) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ص ٢٥٦ .

(٢٦) ابو المحاسن ، حوادث الدهور في مدى الايام والشهور ، تحقيق وليم بوبر ، كلفورنيا ،١٩٣١م، ج١ ، ص ٢٢٧ .

(٢٧) بن اياس ، بدائعالزهور في وقائع الدهور ، ط الشعب ،ا لقاهرة ،١٩٦٠،ص١٠٤٤ .

(٢٨) ابو المحاسن ، حوادث الدهور ، ج١ ، ص ٣٢٧ .نعيم زكي فهمي ،طرقالتجارةالدولية،ص ١٣٩.

(٢٩) ابن بطوطة ، الرحلة ، تحقيق على المنتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط٢ ،١٩٧٩، ج١ ، ص ١٢٩ .

(٣٠) — Grant, OP. Cit . P. 223.

(٣١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٩ ، ج١١ ، ص٥٢٩،٥٣٠ .

(٣٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

الظليل : وادي يقع شمال الزرقاء على الطرق القادمة من دمشق الى مصر والحجاز قديما ، وما زال يشاهد الى اليوم بين المفرق والزرقاء ويشتهر الان بمزارعه وبساتينه العديدة (الباحث).

زيزاء : بلدة كبيرة بالبلقاء جنوب عمان بها بركة ماء ، كانت محطة لقوافل الحجاج وبها تقام لهم سوق للتجارة (ابو الفداء تقويم البلدان ص ٢٤٧ ، ياقوت ، ج٢ ، ص ٩٦٦).

اللجون : منزلة في طريق المدينة قرب البلقاء وهي غير اللجون المعروفة في فلسطين (القرماني، اخبار الدول واثار الاول ، ص ٤٧٥) .

العلا : اسم لموضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام (ياقوت ، معجم البلدان ، دار احياء التراث العربي ، بيروت،١٩٧٩م ، ج٤، ص ١٤٤) .

(٣٣) — Grant, OP. Cit. P. 224.

(٣٤) ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار في ممالك الابصار ، ج١ ، ق١ لوحة ١٧١ (مخطوط دار الكتب المصرية).

(٣٥) ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار ، ج١ ق١ لوحة ١٧١ (مخطوط) .

(٣٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ،ج١٢ ،ص ٣١٤ .
وانظر : — Lapidus , OP.Cit . P. 12.

(٣٧) القلشندي ، صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ١٠٣ .

(٣٨) والمستقر في كل مركز ست هجن ، خمسة للاحمال وهجين للهجان ، تكون كل نقلة خمسة احمال، وهذه الهجن من الشام الى العريش على نيابة دمشق ما عدا جنين فهي على نيابة صفد . ومن الواردة الى القاهرة من المناخات السلطانية والكلفة على مصر . ولا تستقر هذه الهجن بهذه المراكز الا اوان حمل الثلج وهي من حزيران الى تشرين ثاني وعدة نقلاته ٧١ نقلة .
(القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١٤ ، ص٣٩٧).
اربـد : بالفتح‌ثم السكون ، مدينة بالاردن قرب طبرية ، تقع على يمين طريق مصر (البغدادي ، مراصد الاطلاع ج١ ،ص٤١) .
القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١٤ ،ص ٣٧٩،٣٨٠، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ .

(٣٩) بيبرس الداودار ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج٩ ، لوحة ١٥٠ (مخطوط مكتبة جامعـــة القاهرة) . النويري ، نهاية الارب ج٣٠ ، لوحة ٥٥ (مخطوط) .

(٤٠) ظلت هذه البركة موجودة في اربد حتى الستينات ، وقد شاهدتها اذ كانت تمتلىء بالمياه في فصل الشتاء ، وسمي الحي‌المحيط بها (حي البركة) ، ولكن البلدية طمرتها وانشات فوقهـا موقفا لسيارات الاغوار .

(٤١) المقريزي ، السلوك ، ج٢، ص ٥٩٢ .
ابن طولون الصالحي ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق محمد مصطفى ، المؤسســـــة المصرية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ج١، ص ١٨، ١١٠،١١٩ .

(٤٢) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والارشاد ، القاهرة ، ج٧،ص ١٤٠، ١٤١ .

(٤٣) Lopez, OP. Cit. P. 100.

(٤٤) نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ، ص ٢٩٥، ٢٩٦ .

(٤٥) ابن جبير ، الرحلة ،دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٢٣٦.

(٤٦) المقريزي ، الخطط، طبعة بولاق ، ١٩٠٧م ، ج٣ ، ص ١٤٤ . وانظر
— Dozy, Supplement aux Dictionries Arbes, Vol. 11, P. 432.
نعيم زكي فهمي ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

(٤٧) جوايتن ، دراسات في التاريخ الاسلامي ، ص ٢٧٢.

(٤٨) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في اعيان المائة العاشرة ، دار الجيل ، بيروت ج٢،ص ١٧٠.

(٤٩) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج١ ، ص ٣١ . القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١٤، ص٣٧٨،٣٧٩.

(٥٠)
— Lapidus, OP. Cit. P. 18 .
— Grant, OP. Cit.P. 154.

(٥١) عن خان الكرك انظر :
ابن حجر العسقلاني ، المصدر السابق ، ج٢، ص ١٧٠ . وعن خان عمان انظر :
Conder, The Survey of eastern Palestine, London, 1889, P. 59.
وعن خان معان انظر: سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان في تاريخ الاعيان ، نسخة مصورة بشيكاغو، امريكا ، ج٨، ص ٤٢٩.

(٥٢) هناك دراسة عن هذه الخانات المملوكية في : يوسف غوانمة ، التاريخ الحضاري لشرقي الاردن في العصر المملوكي دار الفكر عمان ، ط٢ ، ١٩٨٢م ، ص ٢٣٢-٢٤٩ .

(٥٣) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١٤، ص ٣٧٨.

(٥٤) سمي بجبل عوف لانه كان ينزله قوم من بني عوف من جرم قضاعة ، فعرف بهم (القلقشندي ، صبح الاعشى، ج٤ ، ص٨٦).

(٥٥) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامي الدهان ، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق القسم الخاص بتاريخ لبنان والاردن وفلسطين،ص٨٦.
القلقشندي، صبح الاعشى ، ج٤، ص١٠٥ .

(٥٦) — Hourani (A.H.) , The Islamic City in the light of recent research, from the Islamic city , University of Pensylvania, U.S.A. P. 9.

(٥٧) انظر نص النقش في بحث : المساجد والاضرحة الاسلامية في شمال الاردن(مركز الدراسات الاردنية - جامعة اليرموك - للباحث) .

(٥٨) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ٢١ .

(٥٩) بيبرس الداودار ، زبدة الفكرة ، ج٩ لوحة ١٤٨ (مخطوط) .المقريزي ، السلوك ،ج١ ،ص٦٦٥، ٦٦٩ .
صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من اعمال دمشق ، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، ينسب اليها الخمر . (ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٠١).

(٦٠) الخالدي ، المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الانشاء ، لوحة ١٤٨ (مخطوط مكتبة جامعـة القاهرة).
ونلاحظ هنا ان منطقة شرقي الاردن اشتملت اداريا في العصر المملوكي على نيابة مستقلة هي نيابة الكرك ، ونيابتـين صغيرتـين تابعتين لنيابـة دمشـق هما : نيابـة عجلـون ، ونيابـة البلقاء . ولكن منذ عام ٨١٤هـ (١٤١١م) اصبح في منطقة شرقي الاردن نيابتان مستقلتان هما: نيابة الكرك ، ونيابة عجلون ، فمنطقة جنوب الشام (الاردن وفلسطين) كان فيها خمس نيابات هي: نيابة غزة ، نيابة القدس ، نيابة صفد ، نيابـة عجلون ، نيابة الكرك .

(٦١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج١ ،ص٨٠ .

(٦٢) النويري ، نهاية الارب ، ج٣١ لوحة ٩٠-٩٢ (مخطوط) .

(٦٣) مفضل بن ابي الفضائل ، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، حوادث الفترة بين سنتي ٧١٧ و ٧٤١ هجرية ، فرايبورغ ، المانيا ، ١٩٧٣م ، ص ٤١ ،٤٢.

(٦٤) النويري ، نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ٩٠-٩٢ (مخطوط) .

(٦٥) سوق الادميين (الجلود) ، سوق الاقباعين (معد لبيع الاقباع ،وهي عمامة من حرير او جوخ)، سوق الخلعيين (السوق الذي يتعاطى بيع الثياب القديمة الملبوسة)، سوق الفامية (سـوق الحبوب من حنطة وحمص وعدس وغير ذلك)، سوق السقطيين (السوق الذي يباع فيـه احشاء الذبائح)، حوانيت الدق (والدق هو البقايا المتفحمة من بزور الزيتون والمشمش المحروقة في الافران وتستخدم للتدفئة والطبخ) .

(٦٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج٤، ص ١٨٧ .

(٦٧) القلقشندي ، المصدر نفسه ، ص ١٨٧.

(٦٨) وثيقة وقف رقم ٦ تاريخ ٧٥٢هـ من وثائق المتحف الاسلامي بالقدس .

(٦٩) — Goiten,
A Mediterranean Society, Economic Foundations, U.S.A. 1967, P. 187, 192 .

(٧٠) — Lapidus, Op. Cit. P. 18.

(٧١) المقريزي ، الخطط ، ج٣، ص١٥١ .

(٧٢) نعيم زكي فهمي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

(٧٣) وهذا الفندق منسوب الى مسرور الخادم من خدام القصر في الدولة الفاطمية ، وبقي هذا الخان حتى العصر المملوكي (ابو المحاسن النجوم الزاهرة ،ج٤، ص ٤٣) .

(٧٤) مفضل بن ابي الفضائل ، النهج السديد ، الجزء الخاص باحداث سنتي ٧١٧-٧٤١ هـ ،فرايبورغ، المانيا ، ١٩٧٣ ، ص ٤٢.
النويري ،نهاية الارب ، ج٣١ لوحة ٩٢ (مخطوط) .

(٧٥) النويري ، نهاية الارب ، ج ٣١لوحة ٩٢(مخطوط).

(٧٦) ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة ، ١٩٠٣م ،ص١٧٠،١٧١ .
سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان ،ج٨ ، ص ٢٦٦-٢٦٨.

(٧٧) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج١ ، ص ١٣١.

العلاقات الاقتصادية الاجتماعية
في منطقة ما بين النهرين السورية
(في القرنين الخامس والسادس)

د . نعيم فرح
جامعة دمشق

١ ـ في المصادر التاريخية :

لم تلق المصادر السورية (السريانية) حتى يومنا هذا الاهتمام الجدير بها لدى المؤرخين وعلماء الاثار . ويرتبط هذا الامر الى حد كبير بصعوبة الوصول الى هذه المصادر بأشكالها الاصلية وبندرة ترجماتها . ومع ذلك فالمؤلفات التاريخية السورية (السريانية) تعتبر من مصادر الدرجة الاولى حتى عصر ازدهار الآداب العربية في العصر العباسي . ان الاسفار السورية (السريانية) بالنسبة للقرنين الخامس والسادس تحتوي على مواد ومعلومات فريدة من نوعها ، وهذه المواد تعطي امكانية الكشف عن العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية في المقاطعات السورية التي كانت خاضعة لبيزنطة وايران . ففي العصر الفارسي الساساني لعب السوريون دورا هاما وبارزا في العلاقات المتبادلة بين الدولتين العظميين ، حيث كانت لغتهم السريانية اللغة الدبلوماسية للشرق الادنى . ورغم ان المصادر السورية (السريانية) ركزت على الاحداث السياسية الخارجية بالدرجة الاولى ، فهي تقدم جملة من المعطيات التي لها اهمية كبيرة بالنسبة لتحديد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي تكونت في سورية في تلك المرحلة .

في مجموعة من المصادر التاريخية التي تعتبر مادة للبحث الذي بين أيدينا ، فان اولى المراتب تعود لاسفار يشوع العمودي السريانية ، التي تمثل مصدرا ممتازا

بالنسبة لتاريخ العلاقات بين بيزنطة وايران (في عصر فيروز ٤٥٩ ـ ٤٨٤ وابنه قباذ ٤٨٨ ـ ٥٣١) ، كما تقدم طبيعتها المحلية مادة هامة عن حياة المقاطعات السورية التي رزحت تحت السلطة البيزنطية وكانت مقتطعة اصطناعيا من المقاطعات التي تقطنها قبائل موحدة عرقيا وحضاريا (عربية آرامية) وبقيت تحت سلطة الفرس الساسانيين. ان الصورة الكئيبة لاضطهاد الجماهير الكادحة السورية واستغلالها ، التي تكشف هذه الاسفار السريانية النقاب عنها ، تؤكد الوصف الذي وصفه انجلس للامبراورية الرومانية ـ البيزنطية اذ قال : « تحولت الدولة الرومانية الى آلة معقدة عملاقة ، وذلك لامتصاص خيرات رعاياها . فالضرائب الحكومية والجزية المتعددة الانماط قد اغرقت جماهير السكان في بحر من الفقر المتزايد ، وهذا الظلم ازداد واصبح لا يطاق بفعل ابتزاز الحكام وجامعي الضرائب والجنود » (انجلس ، اصل العائلة ونشوء الملكية الخاصة والدولة) . يتفق هذا الوصف الذي قدمه انجلس مع ما تذكره الاسفار السورية (السريانية)التي اعطت مثل هذه الصورة الواضحة لممارسات الابتزاز واعمال النهب ، وللفقر والجوع الذي عانى منه الكادحون السوريون .

ويكاد المؤرخون الرسميون لا يتطرقون الى هذه الجوانب من حياة الجماهير الشعبية الكادحة . ان حياة القسطنطينية الصاخبة عند جماعة من المؤرخين البيزنطيين البارزين قد ابتلعت كل قدراتهم الروائية . فخلف بهارج وزخارف البسة البلاط وضوضاء الدسائس الدموية الصاخبة ذهبت قضايا الجماهير الفقيرة الكادحة في زوايا النسيان . ومع ذلك تعود صفحات « التاريخ السري » (الذي كتبه بروكوبيوس القيساري في القسطنطينية) المطلية بالضجر والبؤس الى مجموعة الوثائق النادرة . فهو يكشف شرور العصر (القرن السادس) بشكل تبدو فيه القدرة الظاهرية والابهة لحكم جستنيانوس الاول باهته ذابلة لا تمثل شيئا امام العري والعوز والفقر الذي يتحدث عنه هذا التاريخ « السري » . لكن اسفار المقاطعات السورية ومؤرخيها يقدمون مادة اكثر غنى من التاريخ السري في هذا المجال . فمصالحهم تحمل طبيعة محلية ، كما انهم يتحدثون عن قضايا معيشية واقتصادية تتيح فرص تلمس حلقات جديدة في تطور اشكال الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية . وتقدم الاسفار التاريخية السورية (السريانية) مادة من هذا النوع. فهي تعطي صورةواضحة عنحيادة العاملين في الارض ، ومنهم العبيد (والكولون) والفلاحون الاتباع الذين يتحملون كل أعباء العمل في الحقول والبساتين والكروم ، ويئنون من وطأة الضرائب والفرائض وقرصنة الجنود المرتزقة والنهب الذي يمارسه موظفو الدولة . وقد أشار انجلس الى استغلال السلطات الرومانية ـ البيزنطية لسكان المقاطعات الخاضعة لها بالكلمات التالية : « كان نظام الدولة الرومانية ـ البيزنطية أسوأ من الفوضى اللدودة . أما (البرابرة)،

الذين بدأت الدولة تحمي المواطنين منهم ، فقد انتظرهم المواطنون كمنقذين »(انجلس، المرجع نفسه) . ونتأكد من صحة هذا الوصف في قصص البؤس التي تقدمها الاسفار السورية ، وفي النقد اللاذع في جملة من سطور كتاب بروكوبيوس «الحرب الفارسية» .

تتضمن مخطوطة يشوع العمودي (التي تحمل العنوان : « اخبار السنوات العابرة ») موضوعين اساسيين هما : تاريخ حملة « الطاغية البشري » الملك الفارسي قباذ ، وقصص المحن والمصائب التي حلت بمنطقة مابين النهرين السورية . الموضوع الاول يقدم مادة للتاريخ السياسي لمنطقة مابين النهرين السورية. والموضوع الثاني يقدم مادة لوصف نظامها الاقتصادي والاجتماعي . وتعتبر اسفار يشوع العمودي (باللغة السريانية) من المصادر التي يجب ان تقوم بصورة متميزة ، لان مؤلفها يتحدث عن الاحداث التي اشترك فيها وعايشها ، أو كان معاصرا لها . وصلت هذه الاسفار الى ايامنا هذه في قائمة وحيدة كجزء متمم لما يسمى : ب «أسفار ديونيسيوس التلمحري » التي يعود تاريخها الى القرن التاسع الميلادي (توفي سنة ٨٤٥ م) . لقد ضمت اسفار يشوع العمودي كلها الى اسفار ديونيسيوس التلمحري، فأصبحت كلا موحدا(١) . ان مخطوطة ديونيسيوس التلمحري التي تدخل فيها اسفار يشوع العمودي هي احدى الكنوز التي وجدت في مكتبة دير السريان بمصر، الذي يقع في برية اسقيط غرب القاهرة . والمعلومات حول هذه المخطوطة مزدوجة . ففي سجل المخطوطات الشرقية للفاتيكان يؤكد السمعاني بانها تعود الى المخطوطات التي جلبت من تكريت في سنة ٩٣٢ على يد رئيس الدير موسى النصيبيني (من مدينة نصيبين السورية) الذي جمع هذه المكتبة(٢) . وفي رواية اخرى للسمعاني ذاته يقول ان هذه المخطوطة قد نسخت مرة ثانيةفي دير السريان بمصر في القرن التاسع او العاشر(٣) ، وهذا الاحتمال اكبر . هذه الاسفار لم تكن معروفة لدى الكتاب السوريين في العصور الوسطى . فلا ميخائيل السوري (توفي سنة ١١٩٩م) ولا ابن العبري (توفي سنة ١٢٨٦) يعرفانها ، بل اعتمدا في كتاباتهما على الاسفار المنسوبة لزكريا الميتيليني (الملطي) . ولم يعرفها ايضا المؤرخ اغابيوس المنبجي (الذي كتب بالعربية)، بل اقتبس أخبار القرن السادس عن زكريا الملطي(٤) . واول من اشار الى مخطوطة يشوع العمودي وغيرها من كنوز الادب السوري (السرياني) هو السمعاني ، العالم الماروني الذي نظم في مطلع القرن الثامن عشر « المكتبة الشرقية » الفنية بمثل هذه الكنوز . فالفصل السادس والعشرون من المجلد الاول (من المكتبة الشرقية) يحتوي على مقتطفات من اسفار يشوع العمودي باللغة اللاتينية(٥) .ان اشارة السمعاني الى مخطوطة يشوع العمودي ، اضافة الى ترجمة بعض المقتطفات منها والتعليقات اصبحت معطيات تساعد على استخدام اسفار العمودي كمصدر هام لدراسة تاريخ حروب ايران مع بيزنطة في اواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس .

لكن عدم كمال النص لدى السمعاني وغياب النص السوري (السرياني) ، اضافة الى الثغرات الكثيرة ، قد دفع بولين مارتين الى نشر الاصل السرياني لمخطوطة يشوع العمودي مع الترجمة الفرنسية الكاملة له واجراء بعض التصويبات(٦) . ولما كان هذا النص المنشور والمترجم الى الفرنسية تنقصه الدقة التامة ، فقد اخذ العالم البريطاني رايت على عاتقه نشره مرة ثانية . لقد صحح رايت جملة من الاخطاء والنواقص التي ارتكبها سلفه مارتين ونشر النص السرياني مع ترجمته الانكليزية(٧). وتحدث رايت عن صعوبة الترجمة قائلا انه حاول نقل صورة النص الاصلي وروحه ، فترجمه بالاسلوب الانجيلي الذي يناسب هذا النوع من الاسفار التاريخية . وكانت الملاحظات القليلة التي وضعها رايت تحت السطور موضحا التسميات الجغرافية ذات اهمية كبيرة . لكن اسفار يشوع العمودي في طبعة رايت بقيت بصورة اجمالية دون تفسير . وفي سنة ١٩٤٠ قدمت الباحثة السوفيتية نينا فيكتوروفنا بيغوليفسكايا ترجمة روسية لمخطوطة يشوع العمودي من السريانية مع بعض الملاحظات والتصويبات(٨) .

تتضمن اسفار يشوع العمودي موضوعين اساسيين هما : الحرب البيزنطية ـ الفارسية ، والنكبات التي اصابت منطقة مابين النهرين السورية . لكن الموضوع الثاني اكثر صعوبة بالنسبة للتحليل ، لانه متداخل في موضوع الحرب ويغدو من وقت لاخر الموضوع الاساسي على حساب الموضوع الاول . بالنسبة للمعلومات عن العلاقات البيزنطية ــ الفارسية في الحقبة السابقة لعصره، فقد استطاع المؤلف استخدام «الكتب القديمة » التي يتحدث عنها معتبرا اياها احدى مصادره التاريخية . وبالنسبة للمعلومات عن الاحداث المعاصرة فقد اشار المؤلف الى الاخبار الشفهية ، فهو يعرف الكثيرين من اولئك الذين يعملون مترجمين في السفارات البيزنطية والفارسية ، ومعظمهم من السوريين . اما في مسائل الحياة الداخلية لمنطقة ما بين النهرين السورية ، فالمؤلف يتحدث بالدرجة الاولى عن الامور التي كان شاهدا عيانا فيها . وفي حالات اخرى يعتمد على الرأي العام الاجتماعي ويستشهد به ، انطلاقا من ان الحقائق المعطاة معروفة من قبل الجميع . فبعد ان يروي الحقائق المؤلمة والمكربة يؤكد المؤلف على صحتها من خلال اثباتها من قبل كافة السكان في مدينة الرها .

كتبت اسفار يشوع العمودي على شكل رسائل ، فهي جواب على عرض احد الاشخاص (يسميه المؤلف : الراهب الارشمندريت سرجيس) الذي توجه الى المؤلف طالبا منه وصف الاحداث التي حصلت خلال السنوات الاخيرة . ويقول المؤلف انه بدا الكتابة دون رغبة ، لانه غير واثق من قدرته على تلبية الطلب ، كما انه لا يملك موهبة حل هذه المسألة المهمة ، التي لم يوفق في حلها اولئك الذين هم « اكبر منه » . من

هو المقصود بهذا التلميح ؟ . الم يقصد المؤلف اثنين من معاصريه اللذين نالا شهرة المجد بفضل اتجاهما الادبي ، وهما يعقوب السروجي (ت : ٥٢١م) وفيلكسينس المنبجي (ت : ٥٢٣) اللذان يذكرهما في اسفاره . بالاضافة الى دوافع التواضع فالمؤلف يشير الى عدم قدرته على « خلط » النصائح بالروايات والقصص المحزنة التي يتحدث عنها. وهذه الصفة الاخيرة من صفاته تستوجب الشكر الجزيل من جانب المؤرخ . وبصرف النظر عن جميع التحذيرات ، فالمؤلف وفق الى حد ما في اداء مهمته . لقد حذا حذو المؤرخين البيزنطيين ورتب السنوات وبعض التواريخ ، « وذلك كيلا يسيء الى الرواية ويشوهها » . لقد بدا له ان الكتابة عن الاسعار وغلاء المعيشة في زمن المجاعة غير مفيدة . لكن الطلب الخاص الذي تقدم به مراسله سرجيس (رئيس الدير) دفعه للتنازل عن موقفه والاعلام عن هذا الموضوع « غير المقبول بالنسبة للادب الرفيع » (حسب راي المؤلف) . وفي حديثه عن القضايا البيزنطية والفارسية ، نجده يستخدم مفردات هذه اللغة وتلك . هناك امور كثيرة تشير الى انه كان يعرف اللغة اليونانية. اما اللغة الفارسية ، فان لم يكن يعرفها ، فهو على اية حال كان مطلعا على مصطلحاتها وعلى التقاليد ووجهات النظر والتيارات الاجتماعيــة المعاصرة في ايـران (كالحركة المزدكية على سبيل المثال) ، حيث اطلق كلمة « هرطقة » على التعاليم التي بشر بها مزدك .

من هو هذا المؤلف الذي رسم الصورة الواضحة للحياة التي عاصرها ؟. لم يتحدث عنه ولم يذكره بشيء احد من معاصريه . فالاسفار سميت باسم يشـوع العمودي حسب الملاحظة الموجودة في وسط النص الذي كتبه الناسخ اليشع (الذي كان راهبا في دير زوقنين ونسخ هذا الكتاب عن الاصل). وينسب الراهب اليشع هذا الكتاب الى يشوع العمودي الذي كتب « اخبار السنوات العابرة » عن النكبات التي حلت بمنطقة ما بين النهرين ، وعن الضرر الذي الحقه بها « الطاغيــة البشري » ــ القيصر الفارسي(٩) . لم يكسب النقد كثيرا اذا ما اعتبر هذه الاسفار بمثابة حاشية منسوبة الى مجمل التاريخ المنسوب الى ديونيسيوس التلمحري ، كما قال الباحـث الفرنسي نو(١٠) ، أو اذا نسبها الى شخص مجهول . ليكن المؤلف شخصا غير يشـوع العمودي ، لكن هذه الاسفار قد نسبت اليه .

تشير نصوص الاسفار الى ان المؤلف كان كاهنا او راهبـا . ان طريقة توجـه الارشمندريت (رئيس الدير) سرجيس نحوه ، واحترام المؤلف واصغائه له اثنـاء الاجابات ، والنزعة الكنسية التي تبدو في النصوص بكل جلاء ووضوح ، كل ذلك يدل على ان المؤلف كان من رجال الدين الصغار . فالمؤلف يؤكد دوما اسس ومنطلقـات النظام الكنسي . وهو من حيث المذهب مونوفيزيتي يؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح،

علما بانه لم يذكر في اي مكان مايدل على مذهبه . واطلق الباحث جيلزر على يشوع العمودي لقب « المونوفيزيتي السري »(١١) . وبالرغم من أن يشوع لم يخف عواطفه نحو المونوفيزيتيين ، فهو ينتمي الى المعتدلين ويقف موقفا محبا للسلم . فالمشاعر الطيبة التي أبداها المؤلف نحو الامبراطور البيزنطي انستاسيوس عبر صفحات الكتاب قد تبدلت في السطور الختامية ، لان هذا الامبراطور بدل سياسته الدينية في اواخر حكمه واتخذ موقفا عدائيا من المونوفيزيتيين .

ليست هناك معلومات عن ثقافة المؤلف ، لكن قاموسه واسلوبه يدلان على ان ثقافته كانت مدرسية . في سنة ٤٨٩م اغلق الامبراطور البيزنطي زينون «مدرسة الفرس » (مدرسة السوريين النساطرة) في مدينة الرها ، بسبب انتشار النسطورية فيها على نطاق واسع ، فهرب الاساتذة النساطرة الى المناطق التي يحكمها الفرس وواصلوا نشاطهم التعليمي في مدينة نصيبين السورية (قرب القامشلي) التي ازدهرت مدرستها طوال قرون عديدة(١٢). وكان على المونوفيزيتيين والملكيين الخلكيدونيين الباقين في مدينة الرها السورية بعد اغلاق مدرسة النساطرة ان يواصلوا تقاليد هذا المركز التعليمي . ويدل على ذلك ان الرها كانت عبر العصور مركزا ثقافيا تخرج منه المثقفون السوريون من ذوي الاتجاهات الدينية المختلفة . لقد نسخ في الرها عدد كبير من المخطوطات ، وهذا ما يؤكد مرة اخرى وجود المدارس التي كانت تعد كوادر الناسخين والكتبة . ومن المحتمل ان يشوع العمودي كان في عداد معلمي المدرسة ، الامر الذي يجعل مخاطبة الارشمندريت له مفهومة . ويتحدث المؤلف ايضا عن بعض الاشخاص فيسميهم « الاخوة من مدرستنا »(١٣) .

يمكن ان يطرح تاريخان بخصوص زمن تأليف هذه الاسفار : سنة ٥٠٧ ، او سنة ٥١٨ . كتبت الاسفار تحت تأثير انطباع مباشر « للنكبات والكوارث » التي ولت منذ فترة وجيزة ، واخر تاريخ لها كان ٢٨ تشرين الثاني سنة ٥٠٦ . اتى النص على ذكر جوستينوس الذي خلف انستاسيوس على العرش البيزنطي ، فمنحه لقب الدوق (الدوكس) دون اية اشارة الى وضعه المستقبلي كامبراطور . لكن الكلمات المتعلقة بسياسة الامبراطور انستاسيوس غير المرغوبة في نهاية حكمه (بسبب معاداته للمونوفيزيتيين) تعود الى سنة ٥١٨ التي توفي فيها ذلك الامبراطور . ويرى الباحث رايت ان هذا الجزء من الفقرة الاخيرة للاسفار عبارة عن حاشية اخيرة اضيفت مؤخرا للاسفار ، في حين ان الاسفار كتبت في سنة ٥٠٧ ، ويعتقد الباحث جيلزر ان الاسفار كتبت في سنة ٥٠٧ ، لكنه يعترف بان الحاشية مكتوبة من قبل المؤلف نفسه بعد موت الامبراطور انستاسيوس ـ اي عندما صمم على نشر مؤلفه . ووافق نولدكه على وجهة النظر هذه ، لكنه بدل رأيه فيمابعد وقال ان الاسفار كتبت في فترة متأخرة

عن سنة ٥٠٧ بعض الزمن(١٤) . وطالما ان المؤلف يتحدث عن رفاهية مدينة الرها وعن الهدوء والسلامة التي سادتها بعد النكبات والمصائب التي حلب بهـا ، نجد ان مـن الضرورة الافتراض بان ردحا كبيرا من الزمن مضى حتى تمكنت المدينة ومنطقتها مـن العودة الى صحوتها والنهوض على قدميها . وعلى اية حال ليس لدينـا اية مبررات نستند اليها في نسب كتابة الاسفار ونشرها الى فترة مابعد سنة ٥١٨م . ويمكن للمرء ان يأسف فقط لنقطة واحدة ، وهي ان مؤلف الاسفار يشوع العموي لم يحقق رغبته الحارة في الكتابة عن « أزمنة النعم والرخاء » في منطقة مابين النهرين السورية كما وعد مراسله سرجيس ، أو لربما ان مثل هذه الكتابة فقدت بالنسبة لنا كغيرها مـن كنوز الادب السوري .

ان الراهب او الكاهن ، او ربما معلم المدرسة ،يشوع العمودي لا يعتبر ممثلا للطبقة العليا في الكنيسة . فالاساقفة والبطاركة ورؤساء الاديرة كانوا ينتمـون الى المراتب العليا ، كما كانوا من كبار ملاكي الاراضي ويتصرفون دون أية رقابة بأموال الكنائس والاديرة . وعلى هذا فان مصالح هذه الجماعة ـ القمة ـ كانت ذات المصالح لدى الاغنياء والوجهاء الاخرين . ففي الاسفار لا نجد اية اشارة تدل على ان المؤلف يتبنى مصالح الطبقة العليا في المجتمع ، بل على العكس ، فعبر الكتاب كله نجـده يولي اهتمامه « للفقراء والبسطاء والتعساء » . لقد طالته هو نفسه الاسعار العاليـة التي فرضت على المواد الغذائية ، فهو يقول : اننا « نحن » عانينا من غلاء المعيشة . وهـو يغضب كانسان عانى من الرشوة ، ومن التوزيع الظالم لاقامة الجنود البيزنطيين في مدينته . انه اذ يتحدث عن الدعاوى والمخاصمات والمضايقات ، يقف الى جانـب الناس « الصغار » المعتدى عليهم والمهانين . ينتمي يشوع العمودي الى رجال الديـن الصغار . وكانت حياة الحرفيين والفلاحين اقرب اليه من حياة النبلاء الاغنياء ، لذا كان من السهل عليه فهم مصالح هذه الطبقات الكادحة من الشعب . لكنه يخشـى الاحتجاج والتذمر والتمرد . فهو يوبخ « المقدامين » و « الوقحين » الذين يفعلـون « ما لا يليق » بممثلي « الشعب البسيط » ، والذين صموا على كتابة احتجاجهم في « مواثيق » وتعليقها في الاماكن العامة داخل المدينة . ان العمل ضد « سلطة كبـار الملاكين » يبدو له غير مقبول . ففي كلماته نجده يحاول تسوية الصراع بين القائـد كيليروس وسكان الرها ، لكنه يفعل ذلك دون ثقة او معرفة . فهو لا يجرؤ على التعبير عن ذلك ، وخائف من اولئك الذين « يحبون اللوم والعتاب » سينشرون الشائعـات بانه يتكلم « ضد القادة » . انه مسلح بوجهة نظر انسانية تجاه الاحداث . فبصرف النظر عن انه من انصار بيزنطة ، كانت ممارسات جنودها في ايران تثير استنكاره . فإبادة جميع الذكور من السكان ، وحرق القرى واتلاف كروم العنب تبدو له اعمـالا شنيعة وشائنة . انه يتحدث برعب صارخ عن حقائق « أكل لحوم البشر » .

والمؤلف نفسه يعتبر اخباره صادقة وحقيقية . انه اذ يخشى من ان بعض الحقائق التي اوردها : كالمجاعة المرعبة بعد قدوم الجراد ، والطاعون الرهيب ، قد تثير الشكوك لدى اولئك الذين سوف يعيشون « بعده » لذا يؤكد حقيقة كلماته وصدقها بقوله : « ان الاخبار التي أقدمها في هذا الكتاب يشهد على صحتها جميع الناس في منطقتنا » . وبعد التحليل الدقيق لا تظهر لدينا اية شكوك بمصداقية هذه الاسفار .

ولا جدال في ان اسفار يشوع العمودي افضل مصدر بالنسبة لتاريخ الحرب البيزنطية ـ الفارسية في عهد انستاسيوس وقباذ . لقد حافظ هذا المصدر على النضارة الحية لبعض الحوادث التي لم تفقد العلاقة العامة وتسلسل الاحداث ، ولذا جلب اهتمام بعض الباحثين(١٥) . لكن هناك الكثير من الامور التي تحتاج الى عمل اضافي في هذه المعطيات ، كما تحتاج الى استخدام مصادر اخرى معاصرة لايضاح صورة البحث الذي بين ايدينا .

٢ ـ في الجغرافية التاريخية لمنطقة مابين النهرين السورية :

بعد ان احتل الفرس الاخمينيون بابل وعزلوا الاسرة الكلدانية عن عرشها (سنة ٥٣٩ ق.م) تشكلت في المنطقة العربية الممتدة من الخليج العربي الى منابع دجلة والفرات ولاية (ساترابيا) ادارية واحدة يحكمها وال فارسي وتدعى « ولاية بابل » . وعندما اسقط الاسكندر المكيدوني العرش الفارسي الاخميني قسمت تلك المنطقة العربية (في سنة ٣٣١ ق.م) الى ولايتين : الاولى هي ولاية مابين النهرين (ميسوبوتاميا) ، او ولاية اسيريا (اشور) في الشمال ، والثانية هي ولاية بابل في الجنوب . وفي البدء اطلق المكيدونيون اليونانيون على ولاية مابين النهرين اسم « سيريا ميسوبوتاميا » Syria - Mesopotamia اي سورية الواقعة في مابين النهرين (دجلة والفرات) . وفيما بعد اختصر اليونانيون التسمية المزدوجة « سيريا ميسوبوتاميا » ، فحذفوا اسم سورية وابقوا على اسم « ميسوبوتاميا » التي تعني ما بين النهرين ، وذلك تسهيلا لاستعمال اللفظ(١٦) .

وبعد موت الاسكندر المكيدوني (في ١٣ حزيران سنة ٣٢٣ ق.م) احدث خلفاؤه (في سنة ٣٢١ ق.م) بعض التعديلات الادارية ، فضموا منطقة اديابينا (الواقعة الى الشرق من دجلة والممتدة حتى مدينة اربيل) الى ولاية « سيريا ـ ميسوبوتاميا » اي الى سورية في مابين النهرين . وفي عهد الملوك السلوقيين (خلفاء الاسكندر في سورية) انشئت في المنطقة الشمالية الممتدة الى الشرق من نهر دجلة ولاية ادارية

سلوقية منفصلة عن ولاية مابين النهرين ، واطلق عليها اسم « بارابوتاميا » (أي ما وراء النهر) Parapotamia (ذكرها وعين موقعها المؤرخ بوليبيوس (٤٨،٥ ، ١٦ — ٦٩ ، ٥) (١٧) .

وكان اسم « أوسروينا » قد اطلق على ولاية ما بين النهرين الجنوبية (مركزها الرها) في سنة ١٣٢ قبل الميلاد . ومنشأ التسمية يعود الى ان الملك السلوقي في سورية قد عين في الرها حاكما اداريا على ولاية ميسوبوتاميا الجنوبية شخصا ايراني الاصل اسمه اوسرويا . ورغم ان اوسرويا هذا لم يحكم تلك الولاية سوى خمس سنوات (١٣٢ ــ ١٢٧ ق.م) فقد التصق اسمه بها في المصادر التاريخية قرونا عديدة . وكان من الاصح ان تسمى باسم « الولاية العربية » ، حيث كان معظم سكانها من القبائل العربية ، كما حكمها ملوك عرب منذ ذلك التاريخ (وقبله) حتى العهد البيزنطي . ففي سنة ١٢٧ قبل الميلاد استلم الحكم في الرها (تحت السيادة السلوقية) ابو بار مازور زعيم احدى الاسر العربية التي استأثرت بعرش ولاية اوسروينا بضعة قرون . وعندما كلف بومبي القائد الروماني كراسوس بخوض الحرب مع الفرس الباريثيين (سنة ٥٤ ق.م) وقف الى جانبه كل من الابجر الثاني ملك اوسروينا العربي الاصل ، والخودوني زعيم احدى الاسر العربية المسيطرة على القبائل العربية التي كانت تعيش حياة شبه بدوية الى الغرب من نهر الفرات(١٨) .

في عصر الاحتلال الروماني كانت الاراضي السورية الخاضعة للرومان في المنطقة الممتدة الى الشرق من الفرات مقسمة اداريا الى منطقتين : الاولى ، هي منطقة ما بين النهرين الشمالية ومركزها مدينة آمد ، والثانية هي منطقة مابين النهرين الجنوبية (اوسروينا) ومركزها مدينة الرها (اديسا) . وفي القرن الرابع الميلادي (بداية العصر البيزنطي) كانت تلك المناطق السورية كلها معا تعرف باسم « ولاية مابين النهرين واوسروينا » Mesopotamia et Osroena Provinciae (١٩) . ويسميها بهذا الاسم ايضا بروكوبيوس المؤرخ البيزنطي في القرن السادس الميلادي(٢٠) . في زمن الاحتلال الروماني ــ البيزنطي حافظت مدينة الرها على اسمها السوري «اورهاي» ذي المنشأ الاقدم والمرتبط بالعرب . وفي عصر الخلفاء المسلمين حرف اسم «أورهاي» الى « الرها » ثم الى « اورفة » بعد ان احتلها الاتراك . واشار المؤرخ بلينيوس الاكبر (في كتابه : التاريخ الطبيعي) الى ان نهر دجلة كان يمثل الحدود الشرقية للقبائل العربية التي يسميها « عرب الرها » Arabes Oraei (٢١) .

بصرف النظر عن ان يشوع العمودي قد نسب اسفاره التاريخية الى منطقة مابين النهرين السورية كلها ، فانه من الناحية الفعلية تحدث بالدرجة الاولى عن مدينة

الرها التي تقع في مركز اهتماماته . كانت الرها (اديسا حسب التسمية اليونانية) العقدة التي تلتقي فيها مجموعة كاملة من الطرقات ، بعضها يتجه من الغرب الى الشرق ، والبعض الاخر يربط بين الاجزاء الشمالية والجنوبية لمنطقة مابين النهرين السورية . وكان البيزنطيون والفرس معا ينظرون الى الرها بمثابة مفتاح للدخول الى عدد من مناطق ما بين النهرين . فالى الغرب من الرها تقع مدينة بيرجيك (افاميا). وفي الطرف المقابل ، على الضفة اليمنى لنهر الفرات تقع مدينة زيجما . من هناك كانت تمر احدى الطرق القادمة من سورية الوسطى والغربية باتجاه ما بين النهرين . الى الجنوب وعلى الفرات تقع بلدة معروفة في العصر الروماني وما بعده كقلعة وهي اوروبوس او دورا المشهورة اليوم باعتبارها مكانا لاثار القرنين الثاني والثالث الميلاديين (٢٢) . وعلى الفرات ايضا تقع مدينة سميساط . وعند مصب نهر ديصان (الذي تقع عليه مدينة الرها)في نهر غولاب (جلاب) تقع مدينة حران ، التي يتحدث عنها يشوع العمودي ، فيقول انهاتعرضت في زمن الحرب البيزنطية ـ الفارسية الى هجوم العرب (ربما يقصد عرب المناذرة) . الى الجنوب من حران ، وبالقرب من الفرات تقع مدينة كالينيكوس (الرقة) ، التي أحيطت بسور في سنة ٤٤٩م ،فأطلق عليها فيما بعد اسم اخر هو ليونتو بوليس (على اسم الامبراطور البيزنطي ليون الاول ٤٥٧ ـ ٤٧٤) . الى الشرق من الرها تقع مدينة نصيبين (بجوار القامشلي)، التي بقيت فترة من الزمن تحت السيطرة الرومانية ـ البيزنطية ، ثم انتقلت الى ايدي الفرس ، ومن ثم ظلت تمثل تفاحة الخصام بين ايران وبيزنطة . الى الشمال من نصيبين ، وعند الحدود الفارسية البيزنطية مباشرة كانت تقع مدينة دارا التي حصنها الامبراطور البيزنطي انستاسيوس الاول (٤٩١ ـ ٥١٨) وجعل منها مركزا عسكريا لحماية الحدود . وفي منتصف الطريق بين دارا والرها كانت تقع مدينة التلة المحاطة بالاسوار والتي تمثل مركزا عسكريا هاما للبيزنطيين(٢٣) . وكانت مدينة آمد التي تقع على نهر دجلة (الى الشمال من تلة) مسورة بأسوار صعبة المنال ، كما كانت مركزا تجاريا عظيم الشأن(٢٤) .

في مطلع القرن الخامس كانت الرها مدينة كبرى من حيث عدد السكان والتحصين الجيد . كان فيها المسرح والسرك والحمامات العامة وانابيب المياه والورشات الصناعية ومعامل السلاح الحكومية . وكانت توجد بوابات على نهر ديصان الذي يجري في وسط الرها . وبعد هجوم ملك المناذرة النعمان على الرها صنعت لهذه البوابات (في تشرين الثاني سنة ٥٠٢ ـ ٥٠٣) مزالج (ترابيس) ، والاصح انها صفحت بالحديد لجعلها عصية على من تراودهنفسهاقتحام المدينة عن طريق النهر ، ولم يتوفر الحديد اللازم لتنفيذ هذا العمل ، ففرض على كل بيت بصورة الزامية في مدينة الرها ان يقدم(١٠) ليتر (وزن يوناني) من الحديد(٢٥) . كان نهر ديصان يتحول الى سيل عارم عكر في

الربيع والخريف ، فيفيض من الضفتين ويغرق القطاع المنخفض من المدينة . وكانت الفيضانات المتكررة تسبب ضحايا بشرية . وفي عهد الامبراطور جستنيانوس (٥٢٧ـ ٥٦٥) كانت مياه « الفرس الاصيلة أو السريعة » (نهر ديصان حسب التسمية اليونانية) توجه باتجاه الشمال في مجرى خاص محفور في الصخر خلف سور المدينة(٢٦) . ويتحدث يشوع العمودي عن وجود انبوبين للمياه كانا ممدودين الى المدينة من قريتي تل زيما ومو داد الواقعتين الى الشمال من الرها ، وقد تم تجديد هذه المجاري المائية المارة على قناطر مرتفعة في عهد الوالي البيزنطي افلوغيوس سنة ٥٠٥ ميلادية(٢٧) . وكانت المياه خارج حدود الرها تصب في اقنية للري لتسقي البساتين وكروم العنب .

طبقا للوصف الذي يقدمه المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس ، كانت الاسوار المحيطة بمدينة الرها مؤلفة من صفين ، الاول يمثل جدارا عاليا ترتفع عليه الابراج . وامام الجدار ذي الابراج كان يمتد منخفض يفصله عن الجدار الثاني(٢٨) . وتعتبر القلعة واحدة من اروع الابنية الحصينة في مدينة الرها . تقع هذه القلعة في ساحة جبلية ترتفع عن مستوى المدينة بحدود مئة متر ، كما انها محاطة بخنادق عميقة ومحمية بأبراج مزودة بقاذفات وتروس(٢٩) .

كان الشارع الرئيسي في الرها يمتد من بوابة المسرح حتى بوابة المغارات وعلى امتداد كورنيش نهر ديصان . وكانت الاروقة على امتداد الشارع ، وفيها تواجد الحرفيون وورشاتهم . هناك كانوا يبنون حوانيتهم ومصانعهم التي تغطي كورنيش النهر كله . البناء الذي يسمى « انتيفورس » ويذكره يشوع العمودي يتوجب افتراض وجوده مقابل الساحة العامة (٣٠) . اما بروكوبيوس فيقول بان هذا البناء الذي هدمه الفيضان قد رمم في عهد الامبراطور جستنيانوس(٣١) . وكان في المدينة حمامات صيفية وحمامات شتوية (٣٢) . اما الحمامات الشعبية الجديدة فقد شرعوا ببنائها في عهد الحاكم الكسندر سنة ٤٩٧م في المكان الذي كان قد اقترح ان تبنى فوقه قبل مدة طويلة من الزمن ، وهو الى جانب مستودع الحبوب الحكومي(٣٣) اما المستودعات والعنابر الحكومية (التي بنيت الحمامات بجوارها) فيذكرها يشوع العمودي في روايات عديدة . وكانت تخزن في تلك المستودعات وغيرها المواد الغذائية التي ترد بمثابة ضرائب عينية(٣٤) . وكانت اقامة الوالي البيزنطي في البناء الذي يسمى «بريتوريون» ـ أي قصر الوالي . وخلف سور المدينة عند مدخل بيت شمش كان يوجد بناء عبارة عن مستشفى وبيت للعجزة Hospicium (٣٥) .

ومن المنشآت العامة في الرها ميدان سباق الخيل الذي كان موجودا في الحي الشمالي من المدينة منذ عصر استقلالها . ففي هذا الميدان كانت تجري مباريات سباق

الخيل والمصارعات بين الحيوانات المتوحشة . لكن تلك الالعاب منعت في عهد الامبراطور انستاسيوس الاول ٤٩١ ـ ٥١٨(٣٦) . أما المسرح الذي يقع في الجزء الشرقي من المدينة، فكان مكانا لمشاهد مفرحة خاضت الكنيسة المسيحية ضدها حملة قاسية، لكنها لم تتمكن من منعها . وكانت من روائع ذلك المسرح المسرحيات والتمثيليات التي ترتبط بالاحتفال بالعيد الوثني في مطلع شهر ايار ، الذي بقي قيد الممارسة الفعلية في الامبراطورية البيزنطية حتى القرن السادس الميلادي . ويتحدث يشوع العمودي عن هذا العيد الوثني باشمئزاز وغضب واستنكار ، لكنه يعطيه وصفا حيا . ذلك العيد كان محببا من قبل الاسلاف « الاباء » ، الذين يطلق عليهم يشوع العمودي اسم « الجهلاء». في سنة ٤٩٧ ـ ٤٩٨ كان الاحتفال بهذا العيد يجري على الشكل التالي: « ها هو وقت العيد يقترب من جديد ، العيد الذي تنشد فيه الاساطير الوثنية ، وكان سكان المدينة يبذلون جهودا اكثر مما مضى . خلال سبعة ايام كانوا يهرعون جماعات جماعات الى المسرح في اوقات المساء ، يرتدون الالبسة الكتانية والعمائم ويسيرون بارداف مباحة . كانت الشمعدانات (المصابيح) تضيء أمامهم ، ودخان البخور يتصاعد ، وهم في حركة دائمة طوال الليل ، يتجولون في المدينة مباركين الراقصين حتى الصباح بالاغاني والاناشيد وهتافات الغطرسة والشموخ(٣٧). ويتحدث المؤرخ يشوع العمودي عن الاحتفال بذلك العيد الوثني في سنة ٤٩٥ ـ ٤٩٦ فيقول : « ارتدت المدينة حلة من الزينات بمناسبة العيد ،كما اشعلت اعداد كبيرة من المصابيح. ولم يكن مثل هذا التقليد يمارس في المدينة من قبل . من بوابة المسرح حتى بوابة المغارات وضعت على الارض بمحاذاة النهر المصابيح المشتعلة ، كما علقوا بعضها في الاروقة والشوارع العليا واماكن اخرى كثيرة »(٣٨) .

في المنطقة المرتفعة من مدينة الرهابنيت قصور الاغنياء التي كانت مليئة بالمفروشات والسجاد والالبسة والاواني الثمينة . عن غنى وثراء الطبقة المستغلة في المدن السورية الواقعة على طرق القوافل التجارية في منطقة مابين النهرين يمكننا ان نحكم من خلال ما ترويه الاخبار التاريخية المنسوبة لزكريا الميتيليني (الملطي) حول الكنوز التي نهبت من مدينة آمد على يد الملك الفارسي قباذ . ويذكر الكاتب من تلك الكنوز : التماثيل، الساعات الشمسية ، المرمر ، البرونز ،الذهب والفضة ، الالبسة الثمينة(٣٩) . الى جانب صورة الترف والبذخ في قصور الاغنياء ، كانت هناك صورة تمثل الفقر المرعب للطبقات الشعبية الكادحة التي تقطن في الاكواخ والخيام المثيرة للشفقة . فالالبسة الفاخرة الثمينة التي كان يرتديها الحكام والاغنياء كانت تتميز على خلفية الثياب الرثة التي كان الفقر يغطي بها عورته . وهكذا كان التباين بين الطبقات الغنية والفقيرة صارخا وملفتا للانظار .

كان سكان الرها يتألفون من شعوب مختلفة . لكن السكان الاساسيين للمدينة ومنطقة اوسروينا كانوا من السوريين (العرب القدماء) ، كما كانت لغتهم السريانيـة هي اللغة السائدة في سورية العظمى كلها . وحتى منتصف القـرن السابع الميـلادي كان السوريون يسيطرون على خيوط العلاقات التجارية في الشرق والغرب ، كما كانوا في قطاع كبير من الميادين الصناعية دون منافس او مزاحم . وكان الرومان واليونانيون والفرس يشكلون بعض المجموعات في الرها وغيرها من المدن السورية في منطقـة مابين النهرين . اضافة الى تلك الاقليات كان ياتي مع القوافل التجارية ويخرج عبر الاف السنين الجورجيون واللازيون والكوديشيتيون والتيموريون والمصريـون والاحباش والهنود . وطبقا لذلك كان اللباس متنوعا ، والعادات والتقاليد مختلفة ومتباينة . وكانت خليطة ايضا اللغات واللهجات التي تتحدث بها جماهير المنطقة في ذلك العصر . وكذا كانت متباينة المعتقدات الدينية : الوثنية بكافة المظاهر والاشكال ، الزرادشتية، اليهودية ، المسيحية بكافة مذاهبها واتجاهاتها ـ كل هذه الديانات كانت موجودة جنبا الى جنب في منطقة مابين النهرين السورية .

تعتبر الرها في القرنـين الخامس والسادس الميلاديين مدينـة نموذجية مـن مدن الشرق الادنى . فهي مدينة صاخبة خليطة يتكلم سكانها بلغات عديدة . المظهـر الخارجي للمدينة (بأبنيتها المحصنة واسوارها والمباني العامة وانابيب الميـاه) كان رومانيا ـ بيزنطيا . لكن الحياة الصاخبـة كانت تشبه حيـاة كل المدن الشرقيـة بأسواقها ودكاكينها ومسارحها ومواكبها الطويلة . أعيادها واحتفالاتها التي تقام في الشوارع والساحات تذكر بالامواج المضطربة بعنفها وشدتها . الصناعة والتجـارة والترف والثراء والذهب والحجارة الثمينة ـ كل هذا كان يجذب الناس الى الرها ، كما كان مادة لاطماع جيرانها العسكريين الفرس ، ولكن لم يقدر لهم اغتصاب هـذه اللؤلؤة السورية من ايدي جيرانهم البيزنطيين .

٣ ـ العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية في المدن السورية :

آ ـ التركيب الطبقي في المدن السورية :

١ ـ الحرفيون والعمال :

كانت الغالبية العظمى من سكان المدن السورية في منطقة ما بين النهرين تتألف من الصناع والحرفيين المنظمين في جمعيات حرفية تشرف عليها الحكومة ، اضافـة الى عدد كبير من العمال المياومين والعبيد والمحررين من العبودية . وتطلـق أسفار

يشوع العمودي السورية على الصناع والحرفيين اسم « يوماني » ، وهذه التسمية السريانية تقابل التسمية اليونانية « تخنيتس » technites والتسمية اللاتينية « فابريكاتر » Fabricator (٤٠) . ويطلق هذا الاسم عادة على الصناع المهرة او الحرفيين المجربين . لكن مضمون المصطلح « يوماني » لا يقتصر على هذا المعنى ، حيث تطلق اسفار يشوع العمودي اسم « يوماني » أيضا على العاملين غير الفنيين وغير المؤهلين . وهذه المصادر السريانية لا تفرق في المصطلحات أحيانا . فعن الحمامات التي كانت تشيد تقول هذه الاسفار التاريخية ان عددا كبيرا من « الناس » كانوا يعملون فيها(٤١) . والقانون السوري يطلق على الحجارة الذين يبنون الابنية الحجرية اسم « يوماني » ويقصد بذلك الصناع أو الحرفيين(٤٢) . وعندما اقتضت الحاجة للقيام بحفريات قرب مدينة آمد السورية استدعي الحرفيون لهذا العمل من مدن اخرى ، كما ساعدهم في ذلك العمل « القرويون »(٤٣) . لم يكن « اليوماني » (الصناع أو الحرفيون) في القرن الخامس الميلادي يمثلون فئة واحدة ، بل كانوا مجموعة غير متجانسة من الناس الذين لا يمارسون العمل الزراعي . كان يطلق « يوماني » على العامل المياوم غير المؤهل الذي يتحمل أعباء ثقيلة مثل العبد ، كما يطلق أيضا على صاحب الحرفة الماهر الذي يملك مشغله وحانوته الذي يبيع فيه انتاجه الصناعي . ونعرف عن العمال المياومين انهم كانوا « يقفون في سوق العمال » منتظرين دعوتهم الى العمل . وكانت ظروف عملهم اشبه ما تكون بظروف عمل العبيد ، كما كانت أجورهم تؤخر ، وأحيانا لا تدفع ، او تدفع منقوصة(٤٤) . كان اصحاب الاعمال يسيئون الى العمال بشتى الوسائل ، مستغلين قدراتهم الاقتصادية وامتيازاتهم القانونية .

وتعطي الاسفار التاريخية معلومات عن دفع الاجور . فالتنافس الدائم بين عمل هؤلاء العمال الاحرار وعمل العبيد ، والظروف الحياتية البائسة ، والغش والخداع اثناء حساب الاجور ــ كل هذا كان يعاني منه هؤلاء الكادحون . ويمكن الاشارة الى معلومات عن الاجور في القرنين السادس والسابع . كان الحجار في مصر والمياوم يحصل على « كيراتيون » (عملة فضية صغيرة) واحد في اليوم(٤٥) . وتقدم الاسفار التاريخية السورية المنسوبة الى زكريا الميتيليني (المطلي) معلومات عن اجور عمال البناء في المدن السورية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، لكن هذه المعلومات تحتاج الى تحليل . لقد اختار الامبراطور انستاسيوس (٤٩١ ــ ٥١٨) مدينة دارا الصغيرة لتكون مركزا ستراتيجيا جديدا على الحدود مع الفرس . وعلى جناح السرعة اخذ الصناع والعمال يبنون الاسوار ويمدون الانابيب لجر المياه من الجبال الى صهاريج مصنوعة خصيصا لحفظ الماء . بني كذلك مستودع للحبوب وحمامات وغيرها من الابنية ذات الخدمات الاجتماعية . وكان الهدف من هذا كله تامين المعيشة في المدينة في حال وقوعها تحت حصار الاعداء الفرس . ألح الامبراطور انستاسيوس بالاسراع

في عملية البناء وكلف توما اسقف آمد بالاشراف على ذلك العمل . اخذ الاسقف توما يتردد كثيرا على مكان العمل ويرسل وكلاءه احيانا . هذه التفاصيـل التي أوردها زكريا الملطي لم يعرفها المـؤرخ البيزنطي بروكوبيوس ، الـذي اشـار في كتابـه De aedificiis بملاحظات موجزة عن دارا ، شأنـه في ذلك شـأن تيوفانس في حولياته التاريخية(٤٦) . أما المصدر السوري (زكريا الملطي) فيذكر المرسوم الخاص الذي أصدره الامبراطور انستاسيوس ، ويفيد بان النقد كان يسك بكميات كافية، كما وعد الامبراطور الاسقف توما بتغطية كافة النفقات المتعلقة بالبناء . تطلب جمع المواد ونقل الحجارة ايدي عاملة كثيرة ، ولذا استدعى الحرفيـون « يوماني » والعبيـد « عبدي » والفلاحون « بلا‍حي » الى مدينة دارا ، كما أرسل اليها عـدد كبير مـن الحجارين والنحاتين . وأمر الامبراطـور « بألاّ يسـاء لاحد في اجـرة عملـه الـذي انجزه »(٤٧) .

وبفضل « الكرم » بدفع الاجور انجز بناء القلعة خلال وقت قصير نسبيا . كان مراقبو العمل يحصلون على أموال طائلة ملأت جيوبهم (٤٨) . ومما ساعد في جـذب الناس الى العمل في بناء قلعة دارا أن دفع الاجور كان يتم دون تأخير ، في حين كان العاملون في أماكن اخرى يعانون عادة من التأخر والغش في دفع الاجـور . كان البناؤون والنحاتون قد ارسلوا خصيصا من المدن الكبرى . أما الباقون فكانوا من المياومين الذين من بينهم الحرفيون والفلاحون والعبيد المرسلون من قبل أسيادهم ليعملوا ، فيأخذ الاسياد أجرة عملهم . « امتلأت الجيوب » ، « أثرى الكثيرون » ، هكذا يقول المؤرخ السوري زكريا الملطي ، وكان محقا بالنسبة لمراقبي العمال وحدهم .

يجب فهم المعلومات التي يقدمها زكريا الملطي عن أجور العمل اليومي بحـذر . « كان العامل (بيالا) يحصل في اليوم الواحد على أربعة كيراتيـون ، واذا كان معـه حماره، فيحصل على ثمانية كيراتيون »(٤٩) . يثير هذا الاجر المرتفع بعض الشك ، لان الاجر اليومي للعامل لم يتجاوز عادة كيراتيونا واحدا . وتفسر اسباب هذه الزيادة في الاجور بضرورة الاستعجال في تنفيذ البناء ، وبضرورة اجتذات العمال لانجاز هـذا العمل الذي له أهمية ستراتيجية كبيرة . الى جانب ذلك يجب الانتباه الى ان سعر القمح (الذي ذكره يشوع العمودي في سنـة ٥٠٤ـ٥٠٥م) بلغ اربعة كيراتيون للمد الواحد (المد = ٢٠ . ٢كغ) . بدء البناء في قلعة دارا بعد عقـد الصلـح بـين الفرس والبيزنطيين . في ذلك الحين كان القمح ينقل من الرها الى آمد ودارا ، ولـذا كانت اسعار القمح في آمد ودارا بقدر ماهي عليه في الرها تقريبا او اكثر بقليل. وربما هبطت اسعار القمح بعد سنة ٥٠٥ ميلادية ، لكن من المحتمل ان اجور العمال المرتفعة التي افاد بها زكريا الملطي كانت نتيجة ارتفاع سعر القمح في ذلك الحين .

بنى الحرفيون في شوارع الرها وساحاتها مصانعهم وحوانيتهم(٥٠) ، وهم لم يسكنوا فيها ، بل كانوا يأتون اليها مع صناعهم للعمل فيها خلال النهار . في تشرين الثاني من سنة ٥١٣ حسب التقويم اليوناني (أي في سنة ٢٠١ ميلادية) حدث في مدينة الرها السورية فيضان كبير أغرق القسم المنخفض من المدينة(٥١) . لقد خرج نهر ديصان (الذي تقع عليه الرها) عن شطآنه ، فسبب كارثة كبيرة . وعلى هذا أمر ملك الرها العربي (الابجر الثالث عشر) « بأن يبعد حرفيو المدينة حوانيتهم عن النهر ، والا يبني أحد منهم حانوتا له قرب النهر »(٥٢) . والحانون (بالسريانية حانوتا، وباليونانية ارغستيريا) كان بمثابة مشغل لصنع المواد والادوات ومكان يجرى فيه البيع في الوقت نفسه . كان كورنيش نهر ديصان الشارع الرئيسي المفضل للصناع في الرها . ففي القرن الثالث كان هذا الشارع كثير الحركة والنشاط ، وبقى هكذا في القرن الخامس ، حيث كان يتجمهر فيه الشعب في ايام الاعياد ، كما كان ينار بشكل غير عادي(٥٣) . وتجنبا للضحايا البشرية عند تكرار الفيضانات امر الملك الابجر أيضا بأن « على كل من يجلس في الاروقة ويعمل قرب النهر ألا ينام في حانوته من تشرين الاول حتى نيسان »(٥٤) . هذا الامر أخذ بعين الاعتبار أولئك الحرفيين الذين مارسوا عملهم وتجارتهم في هذه المشاغل ، وأحيانا كانوا يقضون ليلتهم فيها . أما المنزل ، مكان العيش الدائم ، فكان في مكان اخر من المدينة ، وربما في مكان ما من الضواحي . واستخدمت الاروقة كمكان مسقوف يستطيع الصناع عرض انتاجهم وبيعه فيه . وقد أقيمت الاكشاك في تلك الاروقة المسقوفة لتجنب وطأة الشمس المحرقة والامطار . وغصّ الشارع الرئيسي بتلك الاكشاك ، مما اضطر حاكم المدينة البيزنطي الكسندر (في سنة ٤٩٦ـ٤٩٧) ان يأمر بخلعها وإزالتها بغية تنظيم المدينة(٥٥) . وكانت الاوساخ ونفايات الانتاج تلقى في ذلك الشارع ، فأمر الحاكم الكسندر باتخاذ مايلزم من اجراءات لتنظيف المدينة من تلك الاوساخ ، خاصة وان مرض الطاعون وغيره من الامراض السارية الجماعية ظلت تهدد مدينة الرها السورية باستمرار(٥٦) .

وعلى غرار الجمعيات الحرفية لعمال المخابز (التي توجد معلومات تفصيلية عنها في المصادر التاريخية) شكل الحرفيون الاخرون في المدن السورية جمعيات حرفية (نقابات) منظمة . وكانت تلك الجمعيات الحرفية تعمل بعلم وسماح من حاكم المدينة الذي يشرف على تنظيمها(٥٧) . وكانت لدى حاكم المدينة قوائم بأسماء الحرفيين من أجل تلبية احتياجات الخزانة بالضرائب .

٢ ـ الملاكون الكبار :

كان أباطرة روما ومن ثم بيزنطة يملكون في الولايات السورية اراضي خاصة بهم . وقد اشار الى تلك الاملاك القانون البيزنطي الصادر في سنة ٣٨٦ بالعبارة التالية :

« الاملاك الامبراطورية في ولايتي ما بين النهرين واوسروينا » Fundi Patrimoniales per Mesopotamiam et Osroenam Provincam (٥٨)

ان المصطلح اللاتيني « فوندي باتريمونياليس » Fundi Patrimoniales قد أطلق عادة على املاك الاباطرة الزراعية التي كانت ، كما اشير ،وراء الفرات. ومن المحتمل ان الاملاك الزراعية التي كانت تخص ملوك الرها العرب قد انتقلت ملكيتها الى الاباطرة الرومان بعد الاحتلال الروماني للمنطقة . وفي مطلع القرن السادس الميلادي امتلك الامبراطور البيزنطي انستاسيوس بعض الاراضي الزراعية قرب حصن دارا وجعلها تابعة للدولة .

اضافة الى الاملاك الزراعية التي تخص الاباطرة والدولة البيزنطية المستعمرة ، كانت هناك املاك كبيرة تخص « الاغنياء ورفيعي الشأن والمقام» من السكان السوريين. وتطلق المصادر السورية (السريانية) على هؤلاء الاغنياء والوجهاء والاعيان المحليين اسم « روبان » المشتق من الاصل العربي القديم « ربّ » . انهم وجهاء المدينة الذين يتألفون من كبار الموظفين وكبار رجال الدين وكبار ملاكي الاراضي والاثرياء . وكان هؤلاء الملاكون الكبار يشكلون الطبقة المستغلة في القرية والطبقة المسيطرة في المدينة ، كما كانوا يمارسون جملة من الوظائف في ميدان الادارة والحكم ، وهم مسؤولون أمام الدولة عن جمع الضرائب من المناطق التابعة للمدينة . عندما أصاب الاعياء الملك الفارسي قباذ وجنوده خلال حصارهم مدينة آمد السورية عرض على المدينة فك الحصار مقابل تقديم مبلغ محدد من الفضة . لكن وجهاءالمدينة (ومنهم ليونتيوس بن بابي عضو مجلس المدينة ، والوالي كيروس ، وأمين الخزانة « رب بيتا » بولس بن زينب) أرسلوا الى قباذ يطلبون منه ان يدفع هو نفسه الاموال ثمن خضروات البساتين التي أكلها جنوده ، وثمن الخمر والقمح الذي جمعوه ونهبوه من القرى المجاورة(٥٩) . لم يكن هؤلاء « الوجهاء » الذين طلبوا من الملك الفارسي تعويضات عن المحاصيل المسروقة يدافعون عن مصالح الفلاحين ، بل عن مصالحهم الشخصية واملاكهم الخاصة . وكان هؤلاء الاغنياء « الوجهاء » يحتكرون الحبوب ويتاجرون بها دون الاهتمام بمصلحة المواطنين . وفي اثناء الحصار الفارسي لمدينة آمد السورية لحقت الاضرار بمصالحهم الخاصة ، كونهم من كبار الملاكين الزراعيين واعضاء في المجلس البلدي للمدينة . وعندما طلب قباذ الفدية ايضا من مدينة الرها السورية ، رفض اعيان تلك المدينة دفع المبلغ الكبير المطلوب(٦٠) . هؤلاء الاعيان والنبلاء كانوا يعيشون عادن في المدن ، حيث كانت لديهم قصور فخمة مشهورة بهندستها المعمارية . عندما احتل قباذ مدينة آمد اقام في قصر النبيل بولس بن زينب ، فوجد عنده كمية كبيرة من الذهب فاغتصبها . وتطلق الاسفار التاريخية السورية

(السريانية) على فئة من نبلاء المدينة الذين مارسوا الوظائف الادارية اسم «ريشان» ويعني الرؤساء او القادة . ويمكن لهذا الاسم ان يكون بديلا عن لقب « كوريال » اليوناني .

خلال الحرب التي نشبت بين بيزنطة وايران اغرقت مدينة الرها السورية بعدد كبير من الجنود البيزنطيين الذين ارسلوا الى منطقة ما بين النهرين للوقوف في وجه الفرس . كان توزع الجنود البيزنطيين وتأمين اماكن السكن لهم بايدي الزعماء السوريين المحليين ، الذين يطلق عليهم يشوع العمودي اسم « ريشان بناي أترا »(٦١). وكان هؤلاء الزعماء المحليون يسيطرون على الادارة المحلية التي كانت لاتزال قائمة في المدن السورية في نهاية القرن الخامس الميلادي . لقد فرض هؤلاء الزعماء المحليون تأمين سكن الجنود البيزنطيين على الحرفيين في مدينة الرها وعلى الفلاحين في القرى المجاورة ، في حين اعفوا كبار الملاكين من ذلك العبء الثقيل . ويشكو يشوع العمودي في اسفاره التاريخية من هؤلاء الزعماء المحليين ورشواتهم التي لم تعرف لها حدود، اذ نهبوا الجميع واوصلوهم الى حالة لا تطاق . فهم يعدون الحرفيين والفلاحين باعفائهم من اقامة الجنود البيزنطيين في منازلهم مقابل الرشوات ، ومن ثم يفرضون عليهم اسكان هؤلاء الجنود في منازلهم ، بصرف النظر عن الرشوات التي قبضوها منهم . وجاء في قوانين الامبراطور انستاسيوس المتعلقة باستيراد الحبوب ، ان هؤلاء الزعماء المحليين كانوا يشاركون في اختيار مستوردي الحبوب لتأمين تموين المدن(٦٢)، كما كانوا يلعبون دورا حاسما في المفاوضات مع السلطة البيزنطية المركزية ، ومع العدو الذي يحاصر مدنهم . انهم ملاكون كبار تركزت مصالحهم حول الارض الزراعية ، في حين عاشوا في المدن وتركز نشاطهم فيها في اغلب الاحيان .

٣ ـ الملاكون المتوسطون « السادة القرويون » :

تطلق اسفار يشوع العمودي السريانية على الملاكين المتوسطين اسم « ماري قوريي » (السادة القرويون)(٦٣) . اما قوانين جستنيانوس البيزنطية اليونانية ، فتطلق على هؤلاء « السادة القرويين » أصطلاح « ديسبوتاي تون جيورجون » Despotai ton georgon (٦٤). كان يجب على هؤلاء « السادة القرويين » السوريين ، الذين يملكون الاراضي الزراعية في منطقة ما بين النهرين ، ان يقدموا للخزانة البيزنطية الضرائب المفروضة على املاكهم ، فهم اشبه بمضخة تضخ مباشرة الريع من الفلاحين المنتجين الذين يعملون بأراضيهم . وشارك هؤلاء الملاكون المتوسطون في حياة المدن . لقد عاش بعضهم في مدينة الرها السورية ، حيث كانت املاكهم الزراعية بجوارها . وكانت توجد في مدينة الرها منشآت اقتصادية (كالمستودعات والعنابر) تخص ملاكي

الاراضي المتوسطين . وعندما اسكن الجيش البيزنطي (الذي جاء لمحاربة الفرس) في منازل سكان الرها منح هؤلاء « السادة القرويون » أفضليات أثـارت الاحتجـاج والتذمر في اوساط « بسطاء المدينة » ، الذين أثقلت كاهلهم تلك الفريضة المزعجة . وفي بعض الحالات كانت السلطات البيزنطية تقدم تنالازلات « للسادة القرويـين » باعفائهم من دفع الضرائب في سني القحط والجوع . لكن مثل هذه التسهيلات لـم يستفد منها الفلاحون العاملون بالارض ، لان الانتاج الفائض الـذي اعتصره ملاكـو الاراضي من الفلاحين المنتجين كانوا يحصلون عليه ، بصرف النظر عـن تسديدهـم الضرائب لخزانة الدولة الحاكمة او عدم تسديدهم لها . لكن اوضاع الملاكين المتوسطين ينبغي الا نصورها وكأنها سلمت من الظلم . فعندما كان يطلب من ممثـل السلطـة المركزية البيزنطية جمع الضرائب ، كان يلجأ احيانا الى تدابـير صارمة بحـق هؤلاء الملاكين المتوسطين . ويشبـه المؤرخ البريطانـي رايت (في حاشية موجـزة) هؤلاء «السادة القرويين » السوريين بالملاكين المتوسطين الايرانيين (الدهاقين) في العهـد الساساني(٦٥) .

٤ ـ رجال الدين الكبار :

تتحدث الاسفار التاريخية المنسوبة الى زكريا الملطي عن القرى التي كان يملكها الاساقفة السوريون(٦٦) . كذلك تتحدث الانقاض الباقية عن الاديرة التي كانت بمثابة حصون محاطة بالبساتين والاشجار المثمرة . وتذكر اسفار يشوع العمودي مجموعـة من الكنائس والاديرة التي انشئت بالقرب من مدينة الرها السورية بين كروم العنب والبساتين المشجرة . فمنذ القرن الرابع الميلادي اخذ كثير من المؤمنين المسيحيين ، الذين لا وريث لهم ، يوصون باملاكهم للكنائس والاديرة . ومن جهة ثانية سعى كبـار رجال الدين الى زيادة املاكهم وثرواتهم الخاصة بشتى السـبل والوسائـل . ومما ساعدهم في تحقيق ذلك الوضع السيء الذي عاشتهطبقة الفلاحين ، التي كانت تفتش عن حماية لها من طلبات الخزانة الثقيلة وظلم جباة الضرائب ، فوقعت تحت حمايـة الدير او الاسقف . وكان الاسقف من كبـار الملاكين ويعمـل في صالح هـذه الطبقة المستغلة . وكانت مسائل ادارة المدينة تحل بمشاركة الاسقف . لقـد ارتبطت بـه الوساطات لدى السلطة البيزنطية المركزية لتخفيض الضرائب عن املاك كبـارالملاكين، كما كان يتم بمشاركته اختيار مستوردي الحبوب لتموين المدينة(٦٧) . ويذكر زكريـا الملطي ان توما اسقف مدينة آمد السورية ، بموجب اتفاقية خاصة مع الامبراطـور البيزنطي ، كان يدير مـع شمامسته (مشمشانا) كل شؤون البنـاء في قلعـة دارا المجاورة(٦٨) ، كما كان يملك عدة قرى بفلاحيها المستعبدين (توتيبي) .

كان الاسقف في المدينة يقوم بدور « المدافع » defensor Civitatis عن مصالح « الفقراء غير المالكين »(٦٩) . يتحدث يشوع العمودي قائلا : « في هذا العام (٥٠٤ـ ٥٠٥م) توجه الاسقف مار بطرس الى الامبراطور يطلب منه اعفاء المنطقة من الضرائب في ذلك العام ، فاجابه الامبراطور غاضبا موبخا اياه ، لانه ترك العناية بالفقراء المساكين في وقت كهذا وتوجه اليه(٧٠) . لكن الامبراطور الساخط أرسل امر الاعفاء من الضرائب مع شخص اخر متجاوزا الاسقف . ويبدو ان تدخل الاسقف في القضايا المالية لم يكن مرغوبا فيه بالنسبة للسلطة الامبراطورية المركزية ، رغم ان الاساقفة معروفون بقيامهم بدور المتوسطين لدى الاباطرة البيزنطيين في اكثر من سفر تاريخي من أسفار يشوع العمودي . فلقد سافر سابا الاسقف الاوروشليمي الى القسطنطينية بطلبات مماثلة كالتي حملها بطرس اسقف الرها(٧١) . ومما يلفت النظر ان الاسقف كان من الواجب عليه تقديم المساعدة للفقراء ، في حين كان دوره الفعلي مقتصرا على حماية مصالح كبار الملاكين الاغنياء ، لان مصلحته الشخصية جزء منها .

٥ ـ التجار :

مارس التجار السوريون نشاطا كبيرا في التجارة العالمية في زمن الاحتلال البيزنطي ـ الفارسي لسورية . فخلال عدة قرون كان عدد التجار السوريين الذين اقاموا علاقات تجارية مع روما وبيزنطة ومصر كبيرا جدا . وتاجر هؤلاء السوريون بالاقمشة والحرير والحجارة الكريمة والمصنوعات الذهبية والتوابل والعطور والادوية وغيرها . ففي قوانين جامعة نصيبين توجد فقرات ناظمة للرحلات التجارية التي يقوم بها اساتذة تلك الجامعة وطلابها الى بلاد الروم(٧٢) وكان التجار السوريون الذين عاشوا في نصيبين تحت السلطة الفارسية ينقلون البضائع الى الحدود البيزنطية . ان ارتباط المدن السورية بالتجار الوافدين اليها والمنافع الناجمة عن الارباح التي جلبتها التجارة الخارجية قد انعكس في أخبار الاسفار التاريخية المعاصرة . فحينما انتشر مرض الطاعون في مدينة الرها وشمل المناطق السورية من نصيبين حتى انطاكية ، أقام سكان الرها (في اذار سنة ٥٠١) صلوات وابتهالات خاصة كيلا يصاب التجار الوافدون بهذا المرض(٧٣) . مثل هذا الحرص على التجار الغرباء يدل على اهمية دورهم في حياة المدينة الاقتصادية . فاذا اصيب التجار الوافدون بمرض الطاعون تتضرر التجارة الخارجية ، كما سليحق الضرر بتجارة السنوات القادمة .

ب ـ الضرائب والفرائض المترتبة على سكان المدن السورية :

فرضت الدولة البيزنطية المستعمرة على سكان المدن السورية في منطقة مابين النهرين مجموعة من الضرائب والالتزامات ، بعضها حمل طابع الفريضة ، كتزويد حامية

المدينة بالماء وصنع الخبز للجيش ، ونقل الحبوب وغيرها من الحمولات . وكان أثقل تلك الفرائض الضريبة النقدية التي تسمى باليونانية « خريسار غيروس » وتعني الذهب والفضة . تلك الضريبة فرضها لاول مرة على سكان المدن الامبراطور البيزنطي الاول قسطنطين الكبير ، الذي امر (في سنة ٣١٤م) ان تدفع مرة كل خمس سنوات . وفرضت تلك الضريبة من اجل تامين احتياجات الدولة النقدية ، وبخاصة تغطية نفقات الجيش . كانت ضريبة « الخريسارغيروس » تجبى عند تنصيب كل امبراطور جديد ، ومن ثم تكرر عملية الجباية قبل مضي خمس سنوات على التنصيب. هذه المطالب غير المتوقعة وغير المتكافئة مع الدخل كانت شديدة الوطأة على دافعي الضرائب(٧٤) . ودفع تلك الضريبة الصناع والتجار ، في حين اعفي منها الملاكون الكبار، لانهم يدفعون ضريبة عن الاراضي الزراعية (الخراج) . وفرضت تلك الضريبة على كل حرفة وصنعة ، وعلى كل مشغل وحانوت ، وعلى كل تاجر وبائع ، كما فرضت على دواب النقل كالخيول والبغال والحمير ، فالزم صاحب الحمار بدفع نصف كيراتيون عن حماره(٧٥) . كذلك فرضت هذه الضريبة على المتسولين والداعرات اللواتي كانت اجسادهن مادة تجارتهن . ويتحدث المؤرخ زوسيموس بالتفصيل عن ثقل تلك الضريبة النقدية ، فيذكر ان بعض الناس اضطروا الى بيع ابنائهم عبيدا ، او جعل بناتهم داعرات من اجل تسديد ما فرض عليهم من نقود(٧٦) . ومن اجل ضبط حسابات الخزانة نظمت قوائم خاصة negotiaiorum matricula ادرج فيها اسم كل من يدفع هذه الضريبة . وتذكر ضريبة « الخريسارغيروس » هذه في قوانين تيودوسيوس في اكثر من مكان(٧٧) . واعفي من دفع ضريبة « الخريسارغيروس » الفلاحون الاحرار والفلاحون الكولون الذين كانوا يتاجرون بمحاصيلهم الزراعية والحيوانية في المدن، لانهم يدفعون ضريبة الراس وضريبة الارض (الجزية والخراج) . ولم يدفع هذه الضريبة الاطباء ولا المعلمون « الاطباء ومعلمو كل العلوم الموجودون في المدن معفون من اية ضريبة ، فهم لا يدفعون ضريبة النفوس (الجزية) ولا ضريبة الخريسار غيروس ، ولا يمكن ان يجبروا على ان يكونوا أوصياء على الايتام ، ذلك لان الاطباء يعالجون الاجسام ، والمعلمون يعالجون النفوس »(٧٨) .

الغى الامبراطور انستاسيوس الاول (٤٩١ ــ ٥١٨) ضريبة «الخريسارغيروس» المكروهة . ومن بين المؤرخين البيزنطيين يذكر هذا الموضوع بايجاز يوحنا مالالاس . اما ايفاغريوس الذي اولى هذا الموضوع اهتماما كبيرا ، فيذكر ان في عهد هذا الرجل (انستاسيوس) احرقت القوائم التي كانت محفوظة لدى موظفي الخزانة من اجل تحصيل الضريبة(٧٩) . وبفضل المصادر السورية (السريانية) يمكن تحديد تاريخ دقيق لالغاء هذه الضريبة . لقد جاء في اسفار الرها مايلي : « في شهر ايار من سنة

٨٠٩ يونانية (٤٩٨ ميلادية) ألفيت ضريبة الخريسارغيروس »(٨٠) . وحول العبء الثقيل الذي مثلته تلك الضريبة تتحدث افضل من غيرها اسفار يشوع العمودي التي جاء فيها مايلي: « في تلك السنة (٨٠٩ يونانية = ٤٩٨ ميلادية) صدر امر من الامبراطور انستاسيوس بالغاء ضريبة الذهب التي كان يدفعها الحرفيون مرة كل ٤ سنوات . ولم يشمل هذا الاعفاء مدينة الرها فحسب ، بل شمل ايضا كل المدن الواقعة تحت السلطة البيزنطية . وكان ابناء الرها يقدمون ١٤٠ ليتر من الذهب مرة كل اربع سنوات »(٨١) . فاذا كان ليتر الذهب يساو ٢٧٣ غراما ، فان الـ ١٤٠ ليترا التي كانت تدفعها مدينة الرها مرة كل اربع سنوات تشكل ٣٨و٢ كيلو غراما من الذهب ، وهذا المبلغ ليس قليلا .

ويذكر يشوع العمودي ايضا كيف كان الحرفيون يحيون ذكرى الغاء ضريبة الخريسارغيرس فيقول : « فرحت كل المدينة . خرج الجميع ــ الصغار والكبار ــ باللباس الابيض . خرجوا ينشدون الاغاني والترانيم الدينية ، حاملين الشموع المضيئة . وبعد ان وصلوا الى كنيسة مارسركيس ومار سمعان الواقعة خلف المدينة، عادوا الى المدينة واقاموا طيلة الاسبوع عيد الفرح والسرور ، كما قرروا انهم سوف يحتفلون بهذا العيد كل عام . استراح جميع الحرفيين (اليوماني) وفرحوا واستحموا واقاموا الولائم في ساحة المعبد وفي كافة اروقة المدينة »(٨٢) .

وفيما عدا دفع الضرائب الزم سكان المدن والقرى السورية بمجموعةمن الفرائض الاخرى التي تحتاج الى الايدي العاملة ودواب النقل . ومن هذه الفرائض تقديم الخدمات للجنود البيزنطيين . لقد الزمسكانالرها بنقل الماء للجنود البيزنطيين . ويذكر يشوع العمودي ان الامبراطور انستاسيوس اعفى سكان الرها من نقل الماء للجنود البيزنطيين في سنة ٥٠٠ ميلادية ، بناء على الرجاء الذي قدمه له بطرس اسقف الرها(٨٣) . وفي زمن الحملة على الفرس اصبح صنع الخبز المخصص للجنود البيزنطيين فرضا على جميع سكان الرها . لقد حشدت بيزنطة على حدودها الشرقية اعدادا كبيرة من الجنود من اجل الحرب مع ايران . وكان الانضباط مفقودا لدى هؤلاء الجنود ، الذين كان معظمهم من البرابرة . فهم ينهبون ويسرقون ويبتزون سكان المدن والارياف . ويؤكد المؤرخ بروكوبيوس ذلك بقوله عن الجنود البيزنطيينمايلي: « لديهم قانون منذ امد بعيد وهو : الخوف من الفرس وسلب الفلاحين المواطنين »(٨٤) . كان يجب اطعام الجيش البيزنطي الذي جاء الى سورية لمحاربة الفرس ، ففرض صنع الخبز على السكان السوريين . وكان هؤلاء السكان يصنعون خبز الجنود من الحنطة التي تعطى لهم من مخازن الدولة . ويذكر يشوع العمودي مايلي : « في ايار من سنة ٥٠٣ وصل الايبارخوس آبيون الى مدينة الرها كي يشرف على تموين القوات التي

كانت معه . ولما لم يتوفر له القدر الكافي من الخبز الذي يصنعه الخبازون المختصون ، فقد امر بتقديم القمح لكل بيت موجود في الرها والزم السكان بصنع خبز الجيش على حسابهم الخاص »(٨٥) وفي اخبار السنة التالية يذكر هذا المؤرخ السوري ما يلي : « في ايار من سنة ٥٠٤ اصبح كاليوبا الحلبي إيبارخوسا وجاء الى الرها ، فأعطى القمح لسكان المدينة كي يخبزوا خبز الجنود . في هذه المرة خبزوا ٨٥٠ الف مد من القمح. أما الايبارخوس السابق آبيون فقد ذهب الى الاسكندرية واخذ يصنع هناك ايضا خبز الجنود ويرسله الى الرها »(٨٦) . وفي مكان آخر يقول يشوع العمودي : « لقد صنع الخبز من ٦٣٠ الف مد من الحنطة في مدينة الرها بأمر من كاليوبا ، اضافة الى ما كان يخبزه القرويون في كافة انحاء المنطقة والجبازون الوافدون والمحليون»(٨٧).

وهكذا كان صنع الخبز للجنود البيزنطيين بمثابة فريضة ثقيلة على كل بيت سوري في منطقة مابين النهرين ، أكان ذلك البيت في المدن أم في الارياف . وكان ذلك العمل عبارة عن واجب قسري يتطلب اضاعة الوقت والعمل الشاق ، لان الحبوب كانت تطحن في المطاحن اليدوية ، كما كان صنع الخبز يتطلب جهودا كبيرة . ان استغلال جهود السكان السوريين بهذا الشكل المضني قد جاء نتيجة غياب الجهاز الحكومي المتخصص بهذا العمل لدى الجيش البيزنطي المحتل .

وكانت اقامة الجنود البيزنطيين وتأمين السكن لهم من اثقل الفرائض على السكان السوريين . حينما حاصر الملك الفارسي قباذ (في تشرين الاول سنة ٥٠٢) مدينة آمد السورية ، ارسل الامبراطور البيزنطي جنوده الى منطقة ما بين النهرين لحمايتها من الفرس . ولقد القيت مسؤولية اقامة الجنود البيزنطيين بكل ثقلها على كاهل الحرفيين السوريين في المدن وعلى الفلاحين في الارياف . اما طغمة الاغنياء والمتنفذين في المدن فقد أعفت نفسها من هذه الفريضة المزعجة والقت بها على كاهل الطبقات الشعبية الكادحة والفقيرة . وكان الجنود البيزنطيون يتألفون في غالبيتهم العظمى من البرابرة المرتزقة ، الذين يطلق عليهم يشوع العمودي اسم « القوط »(٨٨). وكان هؤلاء الجنود غير ملتزمين بالنظام العسكري ، خشنين قساة ، حققوا كل مايبغونه بقوة السلاح . ويروي المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس الكيساري الكلمات التالية عن لسان احد القرويين السوريين الذي جلب الى مدينة آمد لحم الصيد والخبز والثمار ليبيعها : « جلبت لك أيها السيد كل خير من القرية ، فصادفت جنود بيزنطة الذين كان ينهبون الفلاحين البؤساء أثناء تسكعهم على شكل عصابات صغيرة في هذه القرى. لقد ضربني قطاع الطرق هؤلاء دون رحمة او شفقة وسلبوني كل شيء كان معي . كان عندهم عرف قديم ـ خافوا من الفرس وانهبوا الفلاحين »(٨٩). هكذا يخبر المؤرخ بروكوبيوس عن تصرفات الجنود البيزنطين مع الفلاحين السوريين في منطقة مابين النهرين .

أما يشوع العمودي فيتحدث في اسفاره التاريخية السورية (السريانية) عن أعمال النهب والاغتصاب التي مارسها الجنود البيزنطيون أثناء اقامتهم الطويلة في المدن السورية « للدفاع عنها ضد الفرس » . وتطلق الاسفار السورية على الزعماء المحليين المسؤولين عن توزيع اقامة الجنود البيزنطيين اسم « ريشاني » . انهم الطغمة المتنفذة التي تضم كبار الموظفين والتجار وملاكي الاراضي . « وكان هؤلاء الرؤساء (الريشاني) المسؤولون عن توزيع اقامة الجنود البيزنطيين يمدون أيديهم طلباللرشوة. وبما انهم كان يحصلون على الرشوة من الجميع ، لم ينج أحد منهم ، حتى انهم كانوا يرسلون جنودا اخرين الى اولئك الذين سبق وارسلوا اليهم جنودا ليقيموا عندهم »(٩٠) . كذلك ارسلوا بعض الجنود ليسكنوا في بيوت رجال الدين ، الذين كانوا قد حصلوا على براءة تعفيهم من هذه الفريضة . وبما ان الطغمة المتنفذة في المدينة هي التي تقود عملية اسكان الجنود البيزنطيين ، فقد وجدت أن من الضروري الرأفة ببيوت الاغنياء والوجهاء والنبلاء . ويتابع يشوع العمودي حديثه قائلا : « جاء هؤلاء (الجنود البيزنطيون) كمنقذين لنا وبهدف مساعدتنا ، لكنهم حيثما دخلوا وأينما خرجوا سلبونا وسرقونا ، فلا فرق بينهم وبين الاعداء » (٩١) . هذا العتاب المر الموجه من السوريين الى المستعمرين البيزنطيين على لسان يشوع العمودي تتضح اسبابه في الوصف التالي الذي قدمه ذلك المؤرخ عن سلوك وتصرف افواج الجيش البيزنطي: « كان هؤلاء الجنود القوط يطردون الفقراء من فراشهم كي يناموا في مكانهم . أما أصحاب البيوت فكانوا ينامون على الارض حتى في الايام الباردة . وكان الجنوديطردون السكان ويرغمونهم على مغادرة منازلهم ، ثم يدخلونها ويسكنون فيها وحدهم . وكانوا ايضا يسوقون مواشي الناس بالقوة كغنائم او كصيد ، كما يخلعون الملابس عن اجساد الناس ويرتدونها . أما البعض الاخر ، فيضربونه ضربا مبرحا لاتفه الاسباب . وكان هؤلاء الجنود يتشاجرون مع أناس اخرين في الشوارع ويكيلون الشتائم لهم دون مبرر . لقد سرقوا كل شيء علانية ودون خجل او حياء ، بما في ذلك الرزق القليل المخصص للاكل والموجود لدى بعض الناس في القرية او في المدينة . هاجموا الكثيرين عند مفارق الطرق . أقاموا مع الحرفيين في حوانيتهم ، لان المنازل والفنادق في المدينة لم تكن كافية لاسكانهم . كانوا على مرأى من الجميع يغتصبون النساء في الشوارع والبيوت . وكانوا يسلبون النساء العجائز والارامل والفقيرات الزبدة والحطب والملح وغيره من المواد ، كما يبعدونهن عن أعمالهن كي يبقين في خدمتهم . وبصورة عامة كانوا يضايقون الجميع ـ الصغار والكبار ـ (الفقراء والاغنياء) ،فلم ينج احد من شرهم »(٩٢) . لا يحتاج هذا النص الى تعليق خاص ، حيث من السهل ادراك سخط السكان السوريين على الجنود البيزنطيين البرابرة من خلاله .

بهذا الشكل التعسفي كانت الدولة البيزنطية المستعمرة تبتز الضرائب من السكان السوريين ، وبهذه الصورة الوحشية كانت قواتها العسكرية البربرية تحصل على سكنها وطعامها . لكن الحكومة البيزنطية ، عندما يتهددها الخطر الخارجي كانت تسعى الى تهدئة غضب السكان السوريين بتعويضهم عن بعض الخسارة . ففي سنة ٥٠٣ عندما كان الملك الفارسي قباذ يهدد مدينة الرها السورية بالاحتلال ، اعطى القائد البيزنطي أريوبيند الى سكانها منحة مالية بمقدار ٣٠٠ دينار(٩٣) . لكن مثل هذه المنح المالية لم تهدىء من غضب السكان السوريين ، بل اضحى استياء الناس وتحفزهم للتمرد يثير القلق لدى السلطات البيزنطية الاستعمارية . وفي سنة ٥٠٦ وصلت الجماهير السورية الكادحة الى حالة شديدة من البؤس . ويذكر يشوع العمودي أن في تلك السنة عسكر القائد البيزنطي رومانوس مع قواته في مدينة الرها السورية . ورغبة منه في مداهنة السكان والتزلف اليهم ، قام بتوزيع الصدقات على الفقراء . واخذ الامبراطور انستاسيوس بعين الاعتبار الوضع المأساوي للمنطقة (بسبب استمرار الحروب على اراضيها) ، فأمر بالغاء الضريبة النقدية (الجزية) centeleia ،مما بعث الفرح والسرور لدى جميع « السادة القرويين » ، فباركوا الامبراطور ومجدوه(٩٤) .

هذا الاعفاء من الضريبة افاد طبقة واحدة فقط هي طبقة الملاكين المتوسطين « السادة القرويين » ، ولذا ابتهجوا وحدهم بهذا الاجراء . وبنتيجة ذلك حصل استياء كبير لدى « بسطاء الشعب » (الفقراء) . لقد تذمر الشعب البسيط الفقير وصرخ قائلا : « ليس من العدل أن تسكن عندنا أفواج بيزنطة ، وليس عند السادة القرويين » (الملاكون المتوسطون الذين نالوا مساعدة باعفائهم من دفع الضريبة) .لقد كان غضب الجماهير الفقيرة عارما ، مما اضطر الحاكم البيزنطي (الايبارخوس) ان يأمر بتلبية طلبهم . وعند بدء التنفيذ (اسكان الجنود البيزنطين في منازل السادة القرويين ـ الملاكين المتوسطين) اجتمع جميع الاغنياء والوجهاء (روورباني) في المدينة وتوجهوا الى الدوكس رومانوس وطلبوا منه : « أن يأمر معاليه بما يجب ان يحصل عليه في الشهر كل جندي بيزنطي، كيلا يسلب الاغنياء عند دخول الجنود الى منازلهم بالشكل الذي كان يسلب فيه البسطاء . وقد لبى الدوكس طلب الاغنياء ، فأمر ان يصرف لكل جندي مقدار معين من السمن في الشهر ، ٢٠٠ ليتر من الحطب ، سرير مع فراش يتسع لاثنين »(٩٥) .

ويتابع يشوع العمودي قائلا : « عم السخط بسطاء الشعب » . وبما أن الضريبة الغيت عن السادة القرويين (الملاكين المتوسطين) الذين ابتهجوا من ذلك الاجراء ، فينبغي الافتراض ان السخط والاحتجاج قد اعلن من قبل الفلاحين الفقراء ، الذين

بقوا يتحملون عبء الضريبة العينية واقامة الجنود البيزنطيين في منازلهم . كما أعلن الاحتجاج ايضا الحرفيون وغيرهم من سكان المدن الفقراء ، حيث اسكن الجنود البيزنطيون في منازلهم وحوانيتهم(٩٦) .

كان الوضع يهدد بخطر تمرد الجماهير الكادحة ، فاضطرت السلطات البيزنطية ان تستجيب لمطلبهم . لقد امر الحاكم البيزنطي كاليوبا باسكان الجنود في منازل الاغنياء أيضا . لم يتقبل الاغنياء وكبار الملاكين هذا القرار بارتياح . وبما ان الظروف لم تسمح لهم بالعمل على الغاء قرار الايبارخوس كاليوبا ، فقد توجهوا الى القائد (الدوكس) رومانوس ورجوه ان يحد من طلبات جنوده ، فوافق على طلبهم(٩٧) . وهكذا حينما يمس الضرر مصالح الاغنياء وكبار الملاكين كانوا يسعون بشتى الوسائل للتخلص من ذلك ، في حين لم يهتموا لاعتداء الجنود البيزنطيين على منازل الفقراء وارزاقهم .لكن السلطات البيزنطية ، على ما يبدو ، كانت عاجزة عن وضع حد لتصرفات الجنود السيئة . فالجنود البيزنطيون الذين اعتادوا على السرقة والنهب عاقبوا قائدهم رومانوس وثأروا منه ، لانه حاول وضع حد لسرقاتهم . لقد داهموا منزله وارادوا قتله ، لكنه افلت من ايديهم وهرب من السطح الى منزل اخر . ومنذ ذلك الحين (يقول يشوع العمودي)لم يجرؤ احد من القادة على توجيه اية كلمة للجنود البيزنطيين، بل عاشوا حيثما رغبوا وكيفما أرادوا(٩٨) .

وازدادت اوضاع المواطنين السوريين سوءا ، لان القائد البيزنطي الاعلى Magister militum جمع كافة الجيوش في مدينة الرها (في نيسان سنة ٥٠٦) استعدادا للهجوم على الفرس . لم يقطن الجنود البيزنطيون في المدينة فحسب ، بل اسكنوا في جميع القرى المجاورة والاديرة الواقعة في الضواحي . كان هؤلاء الجنود يعيثون فسادا في المدينة ،يسكرون،يتشاجرون ، يقتلون بعضهم بعضا ، يواصلون تعذيب السكان واهانتهم وتشويه سمعتهم والاعتداء عليهم(٩٩).

لم يعد سكان الرها يتحملون تصرفات الجنود البيزنطيين السيئة . ويخبرنا يشوع العمودي (بحسن نية) ان سكان المدينة ارتكبوا « شيئا غير لا ئق » . ذلك ان بعض « الوقحين » الذين كانوا بين ظهراني سكان الرها قد تجرؤوا وأقدموا على أشياء غير لائقة ومخالفة للاعراف . كما ان « التعبير عن التذمر من القائد البيزنطي قد كتب في اعلانات علقت سرا في الاماكن العامة داخل المدينة(١٠٠) . كان في مدينة الرها مجموعة من الاشخاص الذين يدينهم المؤرخ يشوع العمودي ، لانهم قرروا الاعراب عن السخط وعدم الرضى عن اعمال القائد العسكري بصورة مكتوبة . لقد كتبوا المناشير ولفافات الرق وعلقوها في اماكن « معروفة » أي في الاماكن التي يتجمهر فيها الناس بصورة دائمة . كان ذلك عبارة عن منشورات احتجاج من نوع خاص . لم يعرف مضمون تلك

المنشورات ، لكن معطيات كثيرة تشير الى انها كانت تعبر عن استياء الجماهير الكادحة وغضبهم . لم يظهر القائد البيزنطي كيليروس غضبه ولـم يبحث عمن فعـل ذلك ، كما انه لم يفكر بسوء نية تجاه المدينة ، بل سعى الى مغادرة الرها بأسـرع وقـت ممكن(١٠١) . ويفهم من كلام يشوع العمودي ان القائد كيليروس لم يعاقب سكان الرها نظرا لطبيعته اللينة . اما واقع الحال فيدل على انه اصيب بالهلع والخوف ، بسـبب المشاعر المتوترة التي كانت سائدة في المدينة واوشكت على اعلان التمرد والثورة .

يمكن النظر الى كتابة مناشير الاحتجاج والتذمر وتعليقها في الاماكن العامة كعمل قام به « بسطاء المدينة »، الذين بضغط منهم جعلوا الحاكم البيزنطي (الايبارخوس كاليوبا) يفرض اسكان الجنود في بيوت الاغنياء . لا شك في ان الاحتجاج انطلق مـن الحرفيين ، فلاقوا مساندة من الفلاحين الذين عانوا ايضا من اسكان الجنود البيزنطيين في منازلهم . على اية حال كانت النتيجة ان امر كيليروس بابعاد الجنود واخراجهـم من مدينة الرها ، خوفا من تمرد سكانها ضده . وفيما بعد تذكر هذا الدرس جيدا، حيث انه لم يجرؤ على الدخول بجيشه الى مدينة الرها اثناء مروره ثانية بجوارهـا (في اواخر سنة ٥٠٦) . ويبدو ان كيليروس وكاليوبا قد ابلغا المسؤولين في العاصمة البيزنطية عن تذمر الشعب السوري واستيائه في منطقة ما بين النهرين ، بسـبب الاضرار التي لحقت به من جراء الحرب البيزنطية ـ الفارسيـة . وعلى هـذا بعث الامبراطور انستاسيوس برسالة الى القائدين البيزنطيين « مفعمة بالعناية والعطف تجاه منطقة ما بين النهرين بأسرها » .تلك الرسالة اذنت للقائدين بتخفيض الضريبة عن منطقة مابين النهرين السورية حسبما تقتضـي الضرورة . وقـرر الدوكس والايبارخوس البيزنطيين الغاء كامل الضريبة على سكان مدينة آمد ، والغـاء نصـف الضريبة عن سكان مدينة الرها ، كما اعلما الامبراطور خطيا بهذا القرار(١٠٢) . وكان الهدف من هذا الاجراء تهدئة غضب السكان السوريين وتخفيف استيائهم من ابتزاز الضرائب وثقل الفرائض . و « العناية والعطف » من جانب الامبراطور البيزنطي تجاه المواطنين السوريين في منطقة مابين النهرين كانت الغاية منهـا ايضا انعاشـ القوة الاقتصادية لسكان المنطقة ، الذين انهكتهم الحروب والامراض وسنو القحط ، كـي يتمكنوا من دفع الضرائب فيما بعد الى خزانة الدولة البيزنطية المستعمرة .

جـ ـ ادارة المدن السوريـة :

كانت ادارة المدينة والقرى التابعة لها في منطقة ما بين النهرين السورية برئاسة حاكم بيزنطي يحمل لقب « ايغيمون » باليونانية Igimon و « ديان » بالسريانية . وتركزت في يد هذا الحاكم رئاسة الوظائف الماليـة والادارية والامنيـة والقضائيـة والخدمات العامة . وكان الحاكم لا يجمع الضرائب مباشرة من الفلاحين العاملـين في

الارض (وهم الكولون الحر والكولون غير الحر والمستأجرون) ، وانما يجمعها بواسطة « السادة القرويين » الملاكين المتوسطين . وتتحدث الاسفار التاريخية السورية (السريانية) عن جمع الضرائب على يد الحاكم او نائبه . ففي سنة ٤٩٩ ـ ٥٠٠ يخبرنا يشوع العمودي ان الحاكم البيزنطي ابتز الضريبة من « السادة القرويين » ، بعد ان عذبهم اشد انواع العذاب(١٠٣) . والحديث هنا يدور حول الضريبة النقدية المفروضة على الفلاحين الذين يعملون في اراضي هؤلاء الملاكين المتوسطين (التي تسمى باليونانية « سينتيليا ») ، لان الحاكم ارسل ذلك المال المجموع « الذهب » الى العاصمة البيزنطية . كذلك كان سكان المدن يدفعون الضرائب النقدية التي تجمع بواسطة جهاز الموظفين الموجود تحت تصرف الحاكم . وكان الحاكم مسؤولا عن اداء المبلغ المفروض على منطقته الى خزانة الدولة المركزية في الوقت المحدد . وكانت السلطة المركزية في العاصمة البيزنطية صاحبة الصلاحية في تخفيض هذا المبلغ ، او اعفاء المنطقة من دفعه وفي الحالات التي لا تسمح فيها الظروف المحلية الصعبة بدفع الضريبة كاملة ، كان اصحاب الاملاك الزراعية الكبار والمتوسطون يرسلون وفدا يمثلهم الىالقسطنطينية ليتوسط لدى الامبراطور بتخفيض مقدار الضريبة او اعفائهم من دفعها . وكان يسافر مع ذلك الوفد عادة الاسقف « حامي المدينة » وشفيعها عند الامبراطور(١٠٤) . لكن هذا التدخل من جانب الاساقفة في شؤون المال والخزانة لم يكن مقبولا لدى السلطة المركزية في اغلب الاحيان . وكان الامبراطور البيزنطي يوافق في بعض الحالات الاستثنائية على تخفيض الضرائب او الاعفاء من دفعها لمدة محددة . لكن القحط والجوع الرهيب الذي ألم بمنطقة ما بين النهرين السورية في سنة ٥٠٠ ميلادية لم يكن مبررا كافيا بالنسبة للامبراطوركي يعيد المال (الضريبة المدفوعة) الى تلك المنطقة المقفرة . وبطمعه وجشعه تمكن الامبراطور انستاسيوس من جمع مبالغ كبيرة من المال (حوالي ٣٢٠ كينتينارا من الذهب)، فكان بشهادة معاصريه « اغنى امبراطور على الاطلاق ».

وكانت جميع الوظائف القضائية تتبع لهذا الحاكم (الايغيمون ـ الديان) ويحدثنا يشوع العمودي عن عمل الحاكم الكسندروس (٤٩٥ـ ٤٩٧) في مجال القضاء. لقد كان هذا الحاكم يمثل استثناء نادرا في دوائر الادارة البيزنطية . ففي يوم الجمعة من كل اسبوع كان الحاكم الكسندروس يجلس في المعبد الكبير « ويقضي بين الناس مجانا »(١٠٥) . فهو يرفض النفاق الذي كان من سمات الموظفين البيزنطيين ، ولا يعطي الافضلية للاغنياء والاعيان . ولهذا السبب ،يقول يشوع العمودي : « انتعش المظلومون ، تعززت قوتهم ، فاصبحوا بمساعدته قادرين على مجابهة الظالمين والنهابين (١٠٦) .

ويخبرنا زكريا الميتيليني (الملطي) ايضا عن حاكم اخر في مدينة آمد السورية فيقول : « في هذا الوقت كان فيليسيسيموس دوقا . وهو رجل قوي حكيم ،لايطمع

بالمال ولا يهتم به ، بل كان صديقا حقيقيا للفلاحين والفقراء »(١٠٧) . وتشير هذه الاستثناءات والحالات الفريدة الى ان المحاكم البيزنطية كانت تقف في اغلب الاحيان الى جانب الاغنياء والاقوياء ضد الفقراء والضعفاء . ويبدو ان « صديق الفلاحين والفقراء » كان يرفض الرشاوي التي اعتاد على ابتزازها جميع الحكام والقضاة . وكان الحاكم الكسندروس يقضي ايضا « بدون مقابل » ، مما جعل قراراته « عادلة » ، لانها تتخذ من قبله « بصرف النظر عن مكانة الاشخاص » . ولم يكن الروتين في قضايا المحاكم اقل شرا من تعاطي الرشوة . فالمؤرخ يشوع العمودي يقول : «كان الحاكم الكسندروس يحل القضايا التي اودعت في المحكمة منذ خمسين عاما ، ففقد المدعون الامل في حلها منذ زمن طويل » .

وكانت المحكمة في مدينة الرها السورية تعقد جلساتها في احد المعابد الواسعة ، الذي يمكن ان يستوعب اعدادا كبيرة من افراد الشعب . وكان هذا المعبد ـ مكان المحكمة ـ مريحا ومناسبا لمثل هذا العمل الاجتماعي . ولم ينظر الحاكم وحده في القضايا ، بل يجب ان يكون الى جانبه مساعدون وموظفون من مكتبه . لقد جاء في اسفار يشوع العمودي : « ان الشكاوى كانت تقدم ، وكانوا يقضون بها » . حديث المؤلف عن هيئه المحكمة بصيغة الجمع يدل على وجود المساعدين الذين كان الحاكم بالتعاون معهم ينظر في القضايا .

واتخذ الحاكم الكسندروس اجراء اخر (في سنة ٤٩٧) يدل على سيطرة الخوف على المواطنين السوريين من الحكام البيزنطيين . لقد وضع هذا الحاكم امام مقر قيادته صندوقا بفتحة كتب عليه : ان الحاكم يقترح على أي شخص يرغب في الاعلام عن امر ما ويخشى ذلك حضوريا ، ان يكتب ما يريد قوله ويلقيه في هذا الصندوق دون خوف(١٠٨) . وكان ذلك الحاكم البيزنطي يحاول عن طريق الحصول على الاخبار السرية ، ومن خلال المحاكمات العلنية الخالية من المحاباة ، التخفيف الى حد ما من استياء فئات الشعب الدنيا وسخطها . وبهذا التدبير علم الحاكم بقضايا كثيرة ، لان الكثيرين من الناس كانوا يكتبون ويلقون في صندوقه مختلف انواع الشكايات والاخبار السرية . لكن هذه المحاولات من جانب هذا الحاكم ، الهادفة لفرض « التجرد والانصاف» ، قد خمدت بسرعة ، لان الكسندروس نحي من منصبة في العام التالي (أي في سنة ٤٩٨)(١٠٩) .

وكان ذلك الحاكم البيزنطي يترأس السلطات الامنية في مدينة الرها والمناطق المجاورة لها ، كما كان يراقب جميع اعمال الحرفيين في مشاغلهم . فلقد أمر بهدم وازالة الحوانيت والدكاكين التي اقاموها في اماكن غير مناسبة ، كما طلب من الحرفيين

أن يعلقوا على مشاغلهم وحوانيتهم في ايام الاحاد (منذ طلوع الفجر) الصليب المضاء بخمسة فوانيس (باليونانية فانوي) Phanoi . كانت الرقابة على الانتاج الصناعي وبيعه امرا ضروريا من أجل جباية الضرائب ومعرفة قدرة الحرفيين (الصناع) على دفعها . وكان الموظفون الماليون الخاضعون للحاكم يسيئون استخدام وظيفتهم ويجبون الضرائب بجشع وقسوة وتعسف .

كان الاهتمام بمرافق المدينة ونظافتها ملقى على عاتق الحاكم أيضا . لكن العناية بنظافة المدينة لم تكن كما يجب ، بدليل حدوث الاوبئة المتكررة . واهتم الحاكم (الايفيمون) ايضا بتموين المدينة ، وخاصة بالخبز . ولكن الادارة البيزنطية لم تستطع معالجة هذه المهمة جيدا ، أكان ذلك في العاصمة أم في الولايات(١١٠) . وتؤكد الاسفار التاريخية السورية على ان السكان السوريين في منطقة مابين النهرين ، الذين نهبتهم الحكومة وكبار الملاكين ، قد تعرضوا بصورة دورية الى مجاعات مرعبة ، كما أبدت الحكومة البيزنطية عجزا كاملا في مكافحة هذه المجاعات(١١١) .

للبحث صلة

* * *

المصادر المراجع

(١) Nau. Etude sur les parties inédites de la chronique ecclésiastique attribuée à Denys de Tellmahre. Revue d'Orient Chrétien, 1897, t. II, P. 41.

(٢) Catalogum Codicum Orientalium Bibl. Apost. Vaticanae,t.III, N° CLXII, P. 329.

(٣) Joseph Simonius Assemanus. Bibliotheca Orientalis Clementino Vaticana, Romae, 1719, t. II, pp. 97-98.

(٤) Agapius de Membidg. Texte arabe et traduction française de Vasiliev. Paris, 1912, P. 424.

(٥) Bibliotheca Orientalis, t. I, cap. 26, pp. 26 , 283.

(٦) Chronique de Joshue le Stilite écrite vers l'an 515.Texte et tradution par l'abbé Paulin Martin, Leipzig, 1876. Abhandlungenfür die Kunde des Morgenlands, B. VI, N° 1.

(٧) The chronicle of Joshua the Stilite, composed in Syrisc A. D. 507. Witha translation into english and notes by W. Wright, Cambridge, 1882 .

(٨) Pigulevskaia, N. V., Mesopotamia in V-VI centuries, 1940

(٩) Wright, The Chronicle of Joshua ..., P.9.

(١٠) Nau. **ibidem** .

(١١) Gelzer . Josua Stilites und die damaligen Kirchlichen parteien des Ostens. Bysatinische Zeitschrift, B.I, 1892, P.47.

(١٢) Barhadbesabba Arbaya, Cause de la fondation des écoles, Patrologia Orientalis, t. IV, P. 319.

(١٣) Wright, The cronicle of Joshua ..., P.28.

(١٤) Nöldeke. Zeitschrift d. Deutschen Morgenländinchen Gesellschaft, B . 30 , 1876 , P . 352 .

(١٥) Merten . De bello persico ab Anastasio gesto . Dissertatio historica Jena , 1905 . —— Rose , Anastasiusl , Halle , 1882 .

(١٦) نينا بيغوليفسكايا ، الشرق الادنى وبيزنطة والسلاف ، لينينغراد ١٩٧٦ ، ص ٧٠ .

(١٧) المصدر السابق ، ص٧٠ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٨٠ ـ ٨٥ .

(١٩) Codex Justinianus, XI. 62, 8, Ed. Kruger, P. 448.

(٢٠) Procopius, De aedificiis. I - II, cap. 7, Ed. Dindorfii, t. III, P. 230.

(٢١) Plinius, Historia naturalis, 1. VI, cop.9.§ 1.

(٢٢) Excavations at Dura - Europus, New Haven, 1929-1936.

(٢٣) Dussaud René, Topographie historique de Syrie antique et medievale, Pl. XIV, 1929. - Poidebard, La trace de Rome dans le desert de Syrie. Atlas, Le limes romain, Pl. CXL, AB - ef, Paris, 1934.

(٢٤) Sachau, Reise nach Syrien und Mesopotamien, Leipzig, 1883, P.189.

(٢٥) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٥٢ ، ص٤٩.

(٢٦) Procopius, De aedificiis, I-II, cap. 7, t. III, PP. 228-229.

(٢٧) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٨٥ ، ص٨١.

(٢٨) Procopius, De aedificiis, I-II, cap. 7, t.III, P.230.

(٢٩) Texier, L'architecture byzantine, London, 1864, PP. 199-209.

(٣٠) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٢٧ .

(٣١) Procopius, De aedificiis, I-II, caq. 7, t.III, P. 229.

(٣٢) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٤٣.

(٣٣) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٢٩ .

(٣٤) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٤٠ ، ٦٦، ٨١.

(٣٥) العمودي ، المصدر نفسه ، فقرة ٤٢، ٤٣ .

(٣٦) Procopius, De bello Persico, I-II, Cap. 12, Ed. Haury, 1905, t.I.P.206.

(٣٧) العمودي ، فقرة ٣٠ ، ص ٢٤ .

(٣٨) العمودي ، فقرة ٢٧ ، ص ٢٢.

(٣٩) Historia ecclesiastica Zachariae Rhetori (Mytilenensis) volgo adscripta, I, VII, caq . 4 , Corpus Scriptorum christianorum orientalium ,

Scriptores Syri, Series tertia, t. VI, f.2, Ed. W. Brooks, t. II, P. 29. Parisiis, 1921.

(٤٠) Payne - Smith. Thesaurus Syriacus, Cod. L, § 73, P. 19.

(٤١) العمودي ، فقرة ٣٠ ، ص ٢٥.

(٤٢) Syrisches Rechtsbuch, ed. Bruns und Sachau, Cod. I,§ 98,P.25.

(٤٣) العمودي ، فقرة ٤٦ ، ص ٤٢ .

(٤٤) Zacharias Mytilenensis, I. 7. cap. 6, t. II, pp. 36-37.

(٤٥) ا.ب. روداكوف ، دراسات في الحضارة البيزنطية من خلال كتب السيرة اليونانية ، موسكو١٩١٧، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

Ostrogorsky, Lohne und Preise , Byzantinische Zeitschrift , 1932, B. 32, H. II, PP. 297 - 300.

(٤٦) Theophanes, Chronographia, Ed. de Boor, Lipsiae, 1883, 9. 150.

(٤٧) Zacharias Mytilenensis, I. 7, caq. 6, t. II, P. 37.

(٤٨) Ibidem.

(٤٩) Ibidem.

(٥٠) العمودي ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٣ .

(٥١) Chronicon Edessenum. Corpus Scriptorum christianorum orientalium. Scriptores Syri, Ser, Ser. III, t. 4, text, P.2, vers. , P.1.

(٥٢) Ibidem.

(٥٣) يشوع العمود ي، فقرة ٢٧، ص ٢٢، الترجمة الانكليزية ،ص١٨.

(٥٤) Chronicon Edessenum, text, P.2, vers., P.1.

(٥٥) العمودي ، فقرة ٢٩، ص٢٣ .

(٥٦) المصدر نفسه ، فقرة ٢٩، ص ٢٣.

(٥٧) المصدر نفسه ، فقرة ٤٠ ، ص ٣٥ .

(٥٨) Codex Justinianus, XI, 62, 8.

(٥٩) Zacharias Mytilenensis, I. 7, cap. 4, t.II, P. 25.

(٦٠) العمودي ، فقرة ٦١.

(٦١) المصدر نفسه ، فقرة ٨٦.

(٦٢) Codex Justinianus, X, 27, 3, P. 408.

(٦٣) العمودي ، فقرة ٣٩، ص ٣٥.

(٦٤) Novellae, 80, cap. 2, P. 391.

(٦٥) Wright. Chronicle of Joshua the Stylite, translation, P. 29.

(٦٦) Zacharias Mytilenensis, I. 7, cap. 6, P. 36 .

(٦٧) Codex Justinianus, X, 27, 3, P.408.

(٦٨) Zacharias Mytilenensis, I, 7, cap. 6,P. 36.

(٦٩) Cambridge Medieval History, 1911, t. I, P. 565.

(٧٠) العمودي ، فقرة ٧٨، ص ٦٣ـ٧٤.

(٧١) بوميالوفسكي ، حياة القديس سابا ، بطرس بورغ ، ١٨٩٠ ، ص ٤١٦ .

(٧٢) Gli statuti della Scuola di Nisibi, I, 4, Ed. Guidi, P. 183.

(٧٣) العمودي ، فقرة ٤٤، ص ٣٩ .

(٧٤) Pauly Wissowa. Collatio lustralis, IV, PP. 370-376 .

(٧٥) Joannes Malalas, **Chronagraphia,** Ed. Dindorfius, 1831, P. 394.

(٧٦) Zosimi Historia nova, Ed. Mendelssohn, Lipsiae, 1887, I. II, cap. 38, P. 96.

(٧٧) Codex Theodosianus . Ed. Haenel, Bonnae, 1837, cc. 1313, 1315 , 1316, 1317.

(٧٨) Syrisches Rechtsbuch, ed. Bruns und Sachau, L.I, § 116 , P. 32.

(٧٩) Joannes Malalas, Chronographia, I. 16, P. 398. Evagrius . Historia ecclesiastica, I. III, cap. 39, Ed. Bidez et Parmetier, London, 1898.

(٨٠) Chronicon Edessenum, P.8.

(٨١) العمودي، فقرة ٣١ ، ص ٢٦.

(٨٢) المصدر نفسه ، فقرة ٣١، ص ٢٦.

(٨٣) المصدر نفسه ، فقرة ٣٩، ص٣٥.

(٨٤) Procopius . De bello Persico, I. I, cap. 9, P. 41.

(٨٥) العمودي ، فقرة ٥٤، ص ٥٢ .

(٨٦) المصدر نفسه ، فقرة ٧٠ ، ص ٦٧ .

(٨٧) المصدر نفسه ، فقرة ٧٧ ، ص ٧٣.

(٨٨) المصدر نفسه ، فقرة ٩٣ .

(٨٩) Procopius. De bello persico, I. I, cap. 9, P. 41.

(٩٠) العمودي ، فقرة ٧٦ ، ص ٨١.

(٩١) المصدر نفسه ، فقرة ٨٦ ، ص ٨٠ .

(٩٢) المصدر نفسه ، فقرة ٨٦ ، ص ٨٠ .

(٩٤) المصدر نفسه ، فقرة ٩٢ ، ص ٨٤ .

(٩٥) المصدر نفسه ، فقرة ٩٣، ص ٨٥.

(٩٦) المصدر نفسه ، فقرة ٩٥، ص ٨٦.

(٩٧) المصدر نفسه ، فقرة ٧٧، ص ٧٣ .

(٩٨) المصدر السابق ، فقرة ٩٤ ، ص ٨٦.

(٩٩) المصدر السابق ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٧.

(١٠٠) المصدر نفسه ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٨ .

(١٠١) المصدر نفسه ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٨ .

(١٠٢) المصدر نفسه ، فقرة ٩٦ ، ص ٨٨–٨٩.

(١٠٣) المصدر نفسه ، فقرة ٣٩، ص ٣٥.

(١٠٤) المصدر نفسه ، فقرة ٣٩،ص ٣٥.

١٠٥ المصدر نفسه ، فقرة ٢٩، ص ٢٤.

(١٠٦) المصدر نفسه ، فقرة ٢٩، ص ٢٤.

(١٠٧) Zacharias Mytilenensis, t. II, P. 36.

١٠٨) العمودي ، فقرة ٢٩، ص ٢٤.

(١٠٩) المصدر نفسه ، فقرة ، ٣٢، ص ٢٧ .

(١١٠) Theophanes. Chronographia, P. 230, 20-Chronicon Paschalc, P.608,3.

(١١١) انظر اسفار يشوع العمودي .

التاجر ونشاطاته في العصر البابلي القديم

د. عيد مرعي
جامعة دمشق

كانت التجارة فرعا هاما من فروع الاقتصاد البابلي القديم . وكانت الصفقات التجارية تعقد في بلاد بابل من قبل التجار وممثليهم . ويدعى التاجر في اللغة الاكادية تامكاروم (tamkāru (m))(١) . هذه الكلمة مشتقة من الفعل مكارو makāru (٢) والذي يعني ممارسة التجارة والاتجار . وهذا الفعل معروف في اللغات السامية ، ويعني في اللغتين الاوجاريتية والعبرية « يبيع » ، وفي اللغة الارامية « يشتري » ، وفي اللغة العربية « يحتكر »(٣) وكل هذه المعاني كما هو واضح لها صلة وثيقةبالتجارة.

اثرت اللغة الاكادية كلغة للكتابة والتجارة(٤) على اللغات الاخرى في الشرق الادنى القديم ، والتي استعارت منها الكلمة الدالة على التاجر : في اللغة السومرية « دام- جار dam - gar » ، في اللغة الارامية « تاجارا taggārā »(٥) ، في اللغة العربية « تاجر » (٦) ، وفي الحورية « تامكاري tamkari »(٧-٨) . وما تزال العلاقة ما بين الكلمة الاوجاريتية ماكارو makkaru ، والتي تعني تاجر ، والكلمة الاشورية القديمة ماكاروم makkārum غير معروفة حتى الان(٩) .

قام التاجر « تامكاروم » بدور بارز في الحياة الاقتصادية في بلاد بابل في العصر البابلي القديم . والمصادر الاساسية لدراسة النشاطات المتعددة للتاجر في هذه الفترة هي قبل كل شيء قانون حمورابي والنصوص البابلية القديمة من مدينتي لارسا Larsa وسيبار Sippar البابليتين(١٠) . من خلال ذلك يظهر الـ « تامكاروم » :
١ ـ كتاجر متجول يبيع البضائع بنفسه من خلال جولات تجارية ورحلات الى

الاسواق المختلفة ، ٢ ـ كمتعهد تجاري يبيع بضائعه عن طريق ممثلين تجاريين يعملون في خدمته وتربطهم به علاقات منظمة ، ٣ ـ كمقدم للقروض (دائـن) يزود الناس بقروض نقدية وعينية(١١) .

١ ـ الـ « تامكاروم » تاجر متجول : في ثلاث فقرات من قانون حمورابي يظهر الـ « تامكاروم » كالتاجر المتجول ينتقل من مكان الى اخر ليعقد الصفقات التجارية .

الفقرة ٣٢ : اذا افتدى تاجر « ريـدوم » (عسـكري) او « بائيروم » (١١ب) (صنف من العساكر) وقع في الاسر خلال حملة عسكرية للملك وجعله يصل مدينته ، فيجب عليه (الـ « ريدوم » او الـ « بائيروم ») ، اذا كان لديه في بيته فضة لدفـع الفدية ،ان يفتدي نفسـه. اما اذا لم يكن لديه في بيته فضة لفديته ، فيجب ان يفتدى من قبل معبد إله مدينته . اما اذا لم يكن لدى معبد إله مدينته فضة لفديته ، فعلى القصر ان يفتديه. (اما) حقله وحديقته وبيته فلا يسمح بان تدفع فدية عنه(*) .

من هذه الفقرة يتضح بأن الـ « تامكاروم » كان تاجرا متجولا ، يزور الاسواق الاجنبية حيث يباع ، مما يباع ، اسرى الحروب كالعبيد(١٢) . الفقرتان ٢٨٠ و ٢٨١ تعالجان موضوع شراء العبيد البابليين في الخارج ، الفقرة ٢٨٠ : « اذا اشترى رجل (اويلوم awilum (في بلاد الاعداء عبد أو أمة رجل اخر ، وبعد عودته الى بـلاده تعرف صاحب العبد او الامة على عبده أو امته ، فيجب ، اذا كان العبد او الامة من ابناء البلد (بابل) ، ان يطلق سراحهما دون دفع أي تعويض مادي » ،.الفقرة ٢٨١ : « اما اذا كان الامر يتعلق بابناء بلد اخر ،فيجب على الشاري ان يذكر امـام الإلـه (مقدار) الفضة التي دفعها ، وعلى صاحب العبد او الامة ان يعوض التاجر الفضة التي دفعها هذاويستعيدعبده او أمته » .

الرجل (اويلوم) الذي يذكر في الفقرة ٢٨٠ ويشتري عبدا او امة في الخارج هو نفسه الذي يرد ذكره فيالفقرة ٢٨١ ، وبالتالي فهو تاجر يسافر الى البلاد الاجنبيـة ويزور ، ضمن ما يزور ، اسواق العبيد(١٣) .

من هذه الفقرات الثلاث من قانون حمورابي نستطيـع ان نستنتـج ان الـ « تامكاروم » كان تاجرا يسافر الى البلدان الاخرى ليعقد صفقات تجارية ، ومن ضمن ما يتاجر به العبيد(١٤) .

٢ ـ الـ (تامكاروم) متعهد تجاري : مع تقدم المجتمع وتطور العلاقاتالاقتصادية لم يعد الـ « تامكاروم » يحتاج لان يسافر ويقوم برحلات تجارية بنفسه بل صار يرسل

ممثلين تجاريين يقومون بعقد الصفقات التجارية وانجاز عمليـات البيـع والشـراء المطلوبة(١٥) . وقانون حمورابي يتضمن عدة فقرات (٩٩ ـ ١٠٧) تنظم العلاقة بين الـ « تامكاروم » والمثـل التجـاري « شامالـوم »(١٦) . الـ (تامكاروم) يعطي الـ « شامالوم » فضة أو بضائع لرحلة تجارية . يجب على الـ « شامالوم » ان يعيد لك « تامكاروم » ، بعد انجاز رحلته وبعد حسم المصاريف ، رأس المال والفوائد والارباح (الفقرات ٩٩ـ١٠٠) .

يتضح من هذا بأن راس المال اعطـي لك « شامالـوم » قرضا بفائـدة(١٧) . (الفقرة ١٠١) : « اذا لم يحقق الـ « شامالوم » أي ربح فيجب عليه ان يعيد الفضة التي تسلمها الى الـ « تامكاروم » مضاعفة ». الفقرة ١٠٢ تعالـج حالـة اقراض الـ « تامكاروم » الـ « شامالوم » فضة « كسلفة للتجارة بدون فائدة »(١٨) ، وتعرض الـ « شامالوم » لخسارة ، ففي هذه الحال يجب عليه ان يعيد لك « تامكاروم » رأس المال فقط .

الفقرة ١٠٣ تحـدد القواعد والاسـس التي يجب اتباعهـا في حال تعرض الـ « شامالوم » لهجمات معاديـة خلال قيامـه برحلاته التجاريـة .. « اذا سبب له (لك « شامالوم ») عدو في الطريق فقدان كل ما يحمل ، فعلى الـ « شامالـوم » أن يقسم يمينا امام الاله ومن ثم يذهب حرا » . في هذه الحال يتحمل الـ « تامكاروم » الخسارة لانها نشأت بسبب عمل عدائي وليس بسبب قلة مهارة او اهمال الـ« شامالوم » هذه الفقرة تذكر اخطار الاعمال العدائية وحسب . الا ان اخطارا اخرى كانت تهدد الرحلات التجارية ، مثل اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق . ولما كانت هذه الاخطار غير مذكورة فيمكن الاستنتاج بان الـ « شامالوم » كان يتحمل المسؤولية في مثل تلك الاحوال .

الفقرتان ١٠٤ و ١٠٥ تشيران الى ضرورة تسجيل الحسابات على لوح مختوم لتفادي الخلافات التي قد تنشأ فيما بعد بين الـ « شامالوم » والـ « تامكاروم ».

الفقرة ١٠٤ : « اذا سلم « تامكاروم » (أي التاجر) « شامالوم » (أي الممثل) حبوبا ، (أو) صوفا ، (او) زيتا او اية بضاعة اخـرى لبيعهـا ، فيجـب على الـ « شامالـوم » أن يسـجل الفضة وان يعيدهـا الى الـ « تامكاروم » . ويجـب على الـ « شامالوم » أن يحصل على لوح مختوم بالفضة التي يعطيها لك« تامكاروم » .

الفقرة ١٠٥ : « اذا اهمل الـ « شامالوم » ولم يأخذ لوحا مختوما بالفضة التي اعطاها لك « تامكاروم » فان الفضة غير المسجلة على لوح مختوم لا تدخل في الحساب» .

الفقرتان ١٠٦ و ١٠٧ تعالجان الحالة الناجمة عن انكار احد الطرفين ، ال « تامكاروم » او الـ « شامالوم » تسلم او قبض الفضة (اي المال) من الاخر وتحددان العقوبة المترتبة على ذلك.

الفقرة ١٠٦ : « اذا تسلم « شامالوم » فضة من « تامكاروم » وانكرها على « تامكاريه » (تاجره) ، فعلى هذا ال « تامكاروم » ان يثبت امام الاله وامام شهود أن الـ « شامالوم » قد تسلم (منه) فضة ، عندئذ يجب على ال « شامالوم » أن يعطي الـ « تامكاروم » كل الفضة التي اخذها (منه) ثلاثة أضعاف » .

الفقرة ١٠٧ : «اذا ائتمن « تامكاروم » « شامالوم » على مبلغ من الفضة ، واعاد الـ « شامالوم » الى الـ « تامكاروم » كل ما سلمه اياه . (ولكن) ال « تامكاروم » انكر كل ما سلمه اياه الـ « شامالوم » . على هذا الـ« شامالوم» أن يدين الـ«تامكاروم» امام الاله وامام شهود ، وعلى ال « تامكاروم » ، لانه انكر « شماليه » (ممثلة) ،ان يعيد الى الـ « شامالوم » كل ما اخذ (منه) ستة أضعاف » .

من خلال هذه الفقرات من قانون حمورابي تبدو وضعية الـ « شامالوم » وعلاقته بالتاجر غير واضحة تماما ، فالاجر الذي كان يتلقاه غير محدد . ولا يعرف ما اذا كان مسموحا له بعقد صفقات لحسابه الخاص . ولكن يمكننا القول بأن ال « شامالوم » كان تاجرا صغيرا يعمل بتكليف من التاجر (الـ « تامكاروم ») ويحصل على جزء من الربح . كما بان الـ « شامالوم » كان يعمل ايضا لحسابه الخاص ولديه المال الكافي الذي يمكنه من تعويض التاجر رأس المال في حال تعرضه للخسارة(١٩) .

ويمكن لنا ان نستشهد بعدد الوثائق والنصوص التي تتحدث عن الـ «شامالوم» ونشاطاته وصلته بتاجره ولكن الوثائق المعروفة عن هذه النقطة ماتزال قليلة . فهناك رسالة من العهد البابلي القديم (A b B II 176) تشير الى تعيين « شامالـوم » في الخدمة لدى احد التجار(٢٠) ، وتذكر رسالة أخرى احد هـؤلاء الـ « شامالـوم » (A b B II 87) ونص يعود الى زمن حكم الملك البابلي عمي صدوقا Ammisaduqa (١٦٤٦ - ١٦٢٦ ق.م) يعالج تعيين « شامالوم » مع أمه في الـ « شامالوتوم »(٢١) لمدة سنة لدى أحدالتجاروبأجر قدره ستة مثاقيل(٢١ب) فضة(٢٢) . وبالنتيجة فانه ليصعب القول ما اذا كانت هذه هي القاعدة السائدة في بلاد بابل وما اذا كان ذلك موجودا في الفترات السابقة .

يمكن القول اذن بان الـ « شامالوم » كان يعمل كالتاجر الصغير في خدمة الـ « تامكاروم » ولزمن محدد ، ويعقد له الصفقات التجارية ، وبامكانه في الوقت نفسه عقد الصفقات لحسابه الخاص .

وكان التاجر يستخدم أيضا اشخاصا اخرين لتسيير اعماله التجارية بالاضافة الى الـ « شامالوم »(٢٣) . وكان هؤلاء مندوبين يرسلون من قبل التاجر الى البلاد الاخرى للقيام بعمليات البيع والشراء . يظهرهؤلاء المندوبون في عدة رسائل ، حيث يتلقون تعليمات ويكلفون باعمال من قبل سيدهم التاجر . وهناك بعض رسائل بابلية من تاجر الى ممثله فيها تعليمات لشراء بضائع معينة وبسعر محدد : في الرسالة (A b B VI 36) يكلف التاجر بيلانوم ممثله اخوني بشراء مصراعي باب من خشب الارز واس واشياء اخرى ـ على مايبدو من سورية ـ . بعد انجاز هذه المهمة على اخوني ان يعود الى بابل ويقابل سيده التاجر .

في رسالة اخرى (A b B VI 52) يطلب بيلانوم من اخوني ان يشتري انواعا مختلفة من الخشب وان يرسلها الى بابل . ويطالبه ايضا بان يشتري له خمرا جيدا. وفي رسالة ثالثة يطالب بيلانوم أخوني بشراء خمر واشياء اخرى وان يأتي الى بابل(٢٤) .

من هذه الرسائل يتضح بأن أخوني كان يعمل مستخدما لدى التاجر بيلانوم(٢٥). بالاضافة الى هذه الرسائل توجد رسائل اخرى من تجار اخرين الى مستخدميهم فيها التعليمات اللازمة لتنفيذ الاعمال التجارية(٢٦) .

ومن المقارنة يبدو ان هناك فرقا واضحا ما بين هذه الرسائل وفقرات قانون حمورابي التي تتحدث عن الـ « شامالوم » (٩٩ـ١٠٧) . من خلال الفقرات انفة الذكر يمكن القول بان الـ « شامالوم » كان يستطيع نسبيا العمل بشكل مستقل عن التاجر ، بينما نجد في هذه الرسائل ان الممثل التجاري كان مقيدا ، وعليه تنفيذ تعليمات التاجر ورغباته . فهناك بضائع معينة للبيع او للشراء حددت اسعارها من قبل سيده التاجر . وفي هذه الحال فان الممثل التجاري لا تأثير له على الربح ، لذلك فانه كان يعمل باجر محدد(٢٧) . كذلك يمكن القول بان التاجر كان يتحمل وحده خطر الخسارة لانه يخطط ويدير الصفقات التجارية بنفسه .

اضافة الى ما تقدم استخدم الـ « تامكاروم » في تجارته اشخاصا يدعون « صوخارو » Suharu (٢٨) والذين كانوا يستخدمون في الحمل والنقل وبصفة السعاة(٢٩) .

٣ ـ الـ «تامكاروم» مقرض : الدرجة العليا في تطور ممارسة الاعمال التجارية كانت تقديم القروض ، وقد وصل الـ « تامكاروم » الى هذه الدرجة بعد وقت طويل

من التطور في مجتمع كان يتطور ايضا ، وعمله كتاجر متجول ، كما تظهر الوثائق السومرية القديمة ، كان الخطوة الاولى في تطور نشاطاته ،التي يظهر فيها كتاجر فقط، لكن عندما بدأت الانشطة الخاصة بالازدهار بعد بداية سلالة اور الثالثة ، كان الـ « تامكاروم » ناشطا في تقديم القروض(٣٠) . ويرد ذلك في عدة فقرات من قانون حمورابي .

في الفقرة ١٥١ يرد ذكر الدائن : « بيل خوبوليم »(٣١) . ولكن في الفقرة ١٥٢ تستخدم كلمة « تامكاروم » بنفس المعنى . والواضح من ذلك ان المقصود بـ«تامكاروم» ليس الا «بيل خوبوليم » الذي كان يقدم قروضا(٣٢) .

والفقرتان ١١٥ و ١١٦ تبينان بان الدائن « تامكاروم » ، الذي كان يقرض فضة او حبوبا(٣٣) .

في الفقرة ٨٨ حددت الفائدة المسموح بها لل « تامكاروم » كمقدم للقروض بـ ٢٠٪ لقروض الفضة و ٣٣⅓٪ لقروض الشعير . ولكن هذه النسبة لم يعمل بها دائما على ما يبدو(٣٤) ، وتفيدنا الفقرات ٨٩–٩١ ، بالرغم من الثغرات والفجوات ، ببعض المعلومات حول كيفية تنظيم العلاقة ما بين المدين وال « تامكاروم » الذي يظهر كمقرض للفضة والشعير .. ويمكن القول بأن هذه الفقرات كانت سارية المفعول ايضا للاقراض بفوائد ، ليس من قبل الـ « تامكاروم » فحسب بل من قبل اشخاص آخرين ايضا (٣٥) . ولكن الـ « تامكاروم » كان قادرا على تقديم القروض اكثر من غيره.

في الفقرات ٩ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٦٦ يظهر الـ « تامكاروم » كمقرض للفضة ايضا(٣٦) ومن الفقرات ١١٧ – ١١٩ يمكن الاستنتاج بأن ال « تامكاروم » كان الرجل الذي يقدم عادة قروضا . ولكن هذا لا يستثني اخرين من تقديم القروض(٣٧) .

بالاضافة الى قانون حمورابي تبين عدة رسائل بابلية قديمة بان الـ «تامكاروم» كان يقرض الفضة والشعير . في احدى الرسائل (A b B I 24 : 4-8) نقرا مايلي(٣٨): « الشعير ، حصة اخي ، يجب ان يجهزها لي . والمرء يجب ان يجلبها لي . اريد ان ادفع لل « تامكاروم » الذي اعطاني الفضة » .

من هذه الرسالة يتضح بأن الـ « تامكاروم » قد اقرض فضة والمدين يريد ان يسدد شعيرا .

رسالة اخرى (AbB I 103 1-4) تذكر : « بشان ما كتب لي والدي كتبت

الي الـ ، ناديتوم Naditum »(٣٩) : « لقد اخذت الفضة من الـ « تامكاروم » للدفع للاشياء الاخرى » . هنا يظهر الـ « تامكاروم » كمقرض للنقـود . أما في الرسالـة AbB II 24 فيظهر كمقرض للشعير .

وفي الرسالة AbB II 94 : 5-9 من عهد الملك البابلي سمسو إلونا Samsuiluna (١٧٤٩ ــ ١٧١٢) نقرأ مايلي : « كما تعرف فقد اعطيت من اجل أمة وثيقة دين ،وقد جاء الوقت لدفع الفضة،والـ «تامكاروم» طالبني بالدفع » . هنا باع الـ « تامكاروم » الامة بالدين(٤٠) .

هذه الرسائل برهان اخر على عمل الـ « تامكاروم » كمقرض للحبوب او للفضـة في بلاد بابل في العصر البابلي القديم . ولكن على المرء ان يلاحظ بان اصطلاح «تامكاروم» استخدم على ما يبدو ليس فقط للدلالةعلىالتجار المحترفين كمقرضين للفضة او للشعير ولكن للدلالة ايضا على كل من يعطي قروضا . بيد ان التاجر كان في موقع يمكنه ،كما يظهر ، من اعطاء القروض(٤١) اكثر من غيره .

ان المرء يمكن ان يتساءل عما اذا كان الـ « تامكاروم » مشغولا بواحد فقط من الانشطة المذكورة سابقا ، او انه كان يمارس اكثر من نشاط في وقت واحد ..؟ فقد وجد حتما تجار يتاجرون بالبضائع ، واخرون يعملون كدائنين فقط ، ولكن من المحتمل ان بعض التجار كانوا يمارسون العملين معا (٤٢) او كل الاعمال مجتمعة . أما التعاون بين تاجرين او عدة تجار فلم يبرهن عليه حتى الان من خلال الوثائق . ولكن بامكان التاجر ان يقيم علاقات مع عدة تجار صفار او ممثلين تجاريين في وقت واحد . كذلك فان التاجر كان يقدم يوميا قروضا الى عدة اشخاص(٤٣) .

هل كان التاجر يعمل بتكليف ..؟

على العكس من التجار الاشوريين الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص ويتحملون عبء الاخطار ، كان التجار البابليون يتاجرون غالبا بتكليف من الدولة(٤٤) . ولكن هذا لا يعني ان التجار البابليين لم يمارسوا التجارة لحسابهم الخاص ايضا .

في سومر كان التاجر موظفا حكوميا مشغولا بالتجارة الداخلية . وفي عهد سلالة اور الثالثـة عمل التاجر كممثل تجاري في خدمـة القصر او المعبد ، و لكنـه اخذ في الوقت نفسه بممارسة التجارة لحسابه الخاص وبتقديم قروض . ويبدو ان التجارة الخاصة (الحرة) كانت قد وصلت الى درجة عليا من التطور بعد سقوط سلالة اور الثالثة(٤٥) . وفي زمن حمورابي تركزت في يد الدولة بسبب نظام الحكم المركزي انذاك لذلك لم يظهر تجار اغنياء ومشهورون(٤٦) .

ولكن هذا لايعني ان التاجر لم يلعب دورا مهما في الحياة الاقتصادية في بلاد بابل . ونشاطه المهم ينعكس من خلال قانون حمورابي حيث يذكر مرات عديدة .

كان التاجر يعمل بتكليف من القصر ، وبشكل رئيسي كتاجر خارجي ، ويشغل نفسه ايضا بالتجارة الخاصة ، وذلك كما يبدو من عدة فقرات من قانون حمورابي (الفقرات ٣٢ ، ٨٨ ـ ٩٦ ، ٩٩ـ١٠٧)(٤٧) التي تشير الى مكانة التاجر كرجل اعمال مستقل وليس كموظف حكومي.

في النصوص البابلية القديمةالمذكورة اعلاه يظهرالتاجر أيضا مستقلا لا مستخدما لدى الدولة.

وفي مجال التجارة الخارجية لم يكن القصر الملكي المكلف الوحيد بالتجارة او المستهلك الوحيد لموادها ، ولكن وضع القصر الاقتصادي وحاجاته نمت بشكل ادى الى ان يصبح التجار تجارا ملكيين . وكان ذلك افضل بالنسبة للتجار الذي كانوا يتعاملون مع الخارج ، اذ كانوا يتمتعون ، بصفتهم هذه ، بحماية افضل(٤٨) . كما ان التجارة الخارجية كانت ، بشكل رئيسي ، تسد حاجات طبقة محددة ، وعلى الاخص العائلة المالكة . لذلك كان التاجر الذي يتعامل مع الخارج مرتبطا بشكل كبير بالقصر الملكي(٤٩) .

ويبدو ان التجارة الخاصة في لارسا وصلت ذروتها قبل عهد حمورابي، في عهد وارادسين Waradsin ، وفي النصف الاول من عهد ريم‌سين Rimsin (٥٠)،الا ان حمورابي استطاع بنظام حكمه المركزي القوي وبتوسيع سلطات الدولة ان يمسك التجارة بيديه(٥١) ، فنشطت التجارة الحكومية ، بشكل خاص ، خلال حكمه وحكم خليفته سامسو الونا . وكان التجار يمارسون هذه التجارة ويدفعون ضرائب معينة للقصر(٥٢) . وهذا يظهر من خلال الرسالة (AbB II 72) من ابي ـ ايشوخ(٥٣) الملك البابلي ، يطالب فيها بان يدفع احد التجار الضرائب المترتبة عليه ، وفي رسالة اخرى (AbB II 68) يطالب أبي ـ ايشوخ تجارا من لارسا بالضرائب المترتبة عليهم .

وكان التجار يستثمرون ارباحهم من التجارة في شراء الاراضي والبيوت ، ويظهرون في عدة نصوص بابلية قديمة كشارين او باعة بيوت وحدائق وملكيات خاصة (٥٤) .

الى جانب التجار تظهر في النصوص البابلية القديمة من مدينة سيبار كاهنات الاله شماس (الـ « ناديتو ») (٥٥) اللواتي كن يمارسن انواعا مختلفة من الصفقات

ويلعبن دورا مهما في حياة المدينة الاقتصادية ، فيقرضن الفضة والحبوب مثلا . وكالتجار استثمرت الـ « ناديتو » اموالهن في شراء البيوت والاراضي(٥٦) .

بعد هذا العرض لنشاط التاجر ومكانته هناك سؤال يطرح نفسه ، وهو ما اذا كان لكل حرفة حي خاص بها في المدن البابلية القديمة .

توجد اشارات على أن حال المدن الاشورية كان كذلك ، كما توجد اشارات على ان التجار في بلاد بابل كانوا يعيشون في احياء معينة ، ربما كانت ملاصقة لـ « كاروم » ــ السوق ــ (٥٧) . وسؤال اخر ، وهو ما اذا كان التجار في بلاد بابل مندمجين في روابط . لم يعثر على اشارات في المصادر البابلية القديمةتدل على ذلك ، ومن المحتمل بان الاشخاص الذين كانوا يمارسون حرفة معينة كانوا يشكلونمجموعات متماسكة في المجتمع (٥٨) .

الخلاصة : ان الـ « تامكاروم » يظهر من خلال الوثائق البابلية القديمة كرجل أعمال ومقدم للقروض ، يعمل لحسابه الخاص ، كما يعمل في خدمة القصر الملكي. وبوصفه تاجرا يتعامل مع الخارج بخاصة ، كان مرتبطا بالدولة ، ليس فقط من خلال القانون (كقانون حمورابي مثلا) ، ولكن ايضا من خلال بعض القواعد والانظمة الحكومية ، وقبل كل شيء من خلال نظام السماح بنقل البضائع من مكان لاخر ، ودفع ضرائب محددة ، كانت تجمع من قبل وكيل التجار (وكيل تامكاري)(٥٩) .

وكيل التجار (وكيل تامكاري Wakil tamkari) : الى جانب التاجر وجدت في بلاد بابل شخصية اخرى مهمة لعبت دورا بارزا في الحياة الاقتصادية ، يرد ذكرها كثيرا في النصوص البابلية القديمة ، هي وكيل التجار (وكيل تامكاري)(٦٠) ، وكان موظفا ملكيا مسؤول عن احدى المدن ، ووظيفته ادارة الصفقات التجارية للقصرالملكي. وكان مسؤولا عن جمع الضرائب ، وعليه ان يقدم للقصر الملكي في مقابل ذلك كمية محددة من الفضة . وعمليا كان وكيل التجار الرئيس المالي للمدينة(٦١) .

من خلال رسالتين بابليتين قديمتين يتبين بأن وكيل التجار قد تسلم من الملك « حقلا لسد نفقات معيشته » . في الرسالة الاولى(AbB IV 2) يكتب حمورابي الى شماش ــ خازر حاكمه في لارسا ، يأمره بان يعطي وكلاء التجار الثلاثة من مدينة اور UR« حقولا اضافية لتأمين متطلبات معيشتهم »(٦٢). في الرسالة الثانية(A b B IV 3) يأمر حمورابي شماش ــ خازر بان يعطي « حقولا لسد نفقات المعيشة ، الى وكلاء التجار من لارسا ومن اور . ومثل هذه « الحقول لسد نفقات المعيشة » كانتتعطى لاناس يعملون في خدمةالملك. هذايبين بان وكيل التجار كان يعمل في خدمةالقصر(٦٣) .

وذكر ثلاثة وكلاء تجار من مدينة اور في الرسالة الاولى يشير ربما الى ان كل واحد منهم كان مسؤولا عن حي من احياء المدينة او ضاحية منها ، فالمدن البابلية القديمة كانت مقسمة الى احياء كانت عادة تدار ذاتيا(٦٤) .

يتبين من الرسالة AbB II 33 بان وكيل التجار كان يعمل في جباية الضرائب لصالح التاج ، وكان ملزما بان يسلمها شخصيا الى حمورابي في بابل(٦٥) . والرسالة AbB II 30 تبين بأن وكيل التجار جمع الضرائب لصالح الملك وكان مسؤولا عنها. ولكن هذا لا يعني بان وكيل التجار لم تكن لديه اموال خاصة يستثمرها في مكان اخر(٦٦).

رسالة ثالثة (AbB II 53) تظهر ايضا مسؤولية وكيل التجار عن الضرائب امام الملك الذي طالبه هنا بان يرسل الضرائب عن شعر الماعز الى بابل(٦٧) . وبشكل مشابه تطلب رسالة اخرى من وكيل التجار توريد الضرائب المأخوذة من تاجر خمر الى القصر(٦٨) .

وكان يعمل في خدمة وكيل التجار عدة اشخاص يدعون وكيل نام٥ wakil NAM 5 هذه التسمية معروفة من مدن لارسا واور وكوتالا Kutalla (٦٩) . (مدينة في مقاطعة لارسا ، معروفة خلال حكم حمورابي وسامسوالونا) . هذه التسمية ماتزال غير غير معروفة من مدن بابلية اخرى(٧٠) .

كان وكيل التجار في المقام الاول مدير المصالح التجارية للملك. وينتمي الى دائرة التجار او الموظفين ، وخاصة القضاة . وكان الملك يختار من بين هؤلاء من يتمتع بمقدرات بارزة في حرفته ، او بنفوذ اجتماعي كبير(٧١) .

الى جانب عمله في التجارة وجمع الضرائب لصالح القصر كان وكيل التجار مشغولا ايضا بممارسة الاعمال القضائية ، الى جانب القضاة في الـ « كاروم » ، ومن المحتمل بانه كان يشغل مركزا ممتازا في هذه الهيئة القضائية ، لانه يذكر باستمرار في مقدمة المشتركين فيها(٧٢) .

الخلاصة ان وكيل التجار يظهر في المصادر البابلية القديمة كموظف يعمل في خدمة القصر ، ومسؤولا عن تجارة الدولة وجمع الضرائب امام الملك ، واخيرا كعضو مشارك في القضاء .

اما في ماري التي لعبت دورا مهما في المواصلات التجارية بين بلاد ما بين النهرين وسورية ، فقد تركزت التجارة بيد القصر الملكي، الذي جنى ارباحا كبيرة من المواصلات التجارية وتجارة المرور . ووكيل التجار في هذه المدينة شخصية معروفة لدينا . وكان

مسؤولا عن التجارة وجباية الجمارك(٧٣) ، وفي خدمته اشخاص يسمون « بيل تيرتيم »(٧٤) ، لا تعرف حتى الان مدى علاقتهم به ولكن يبدو انهم كانوا يكلفون بصفقات تجارية (٧٥) او بجمع الجمارك(٧٦) في محطات المراقبة التي اقيمت على الحدود لمراقبة حركة التجارة والمواصلات التجارية سع البلدان المجاورة .

وتعطي وثائق من ارشيف مدينة ماري بعض المعلومات عن تجارها ونشاطاتهم المختلفة .

١ ـ داريًا **Dariya** : يظهر في الوثيقة ARM VIII 80:6 شاهدا اول في اقراض فضة الى صدقو ـ لاناسي Zidqu-Lanasi ،ممثل زمري ليم Zimrilim ملك ماري في كركميش، في النص ARM IX 17:1-4 يجلب ٢٩٣ اناءخمر من كركميش، وفي ARM—XIV 32:7 يصل الى تيلاّزيبوم Tillazibum (مكان في منطقة ساجاراتوم Sagarâtum)مع اخشاب من الارز .

وحسب رسالة من صدقو ـ لانسي ممثل زمري ليم فيكركميش يبدو ان دارِيًا كان منشغلا بتجارة الخشب(٧٧) .

هذا التاجر كان متخصصا في استيراد منتجات مختلفة من كركميش كالخمر والخشب . وكانت له هناك بدون شك علاقات تجارية ومركز لادارة اعماله .

٢ ـ اريبا **Eriba****بن إصي ـ قاتار** Isi-qatar : يظهر في احد النصوص كبائع للرصاص : « ٣ مثاقيل فضة لشراء(١) تالنت (وزنة رصاص(٧٨) ، أي ٢٠ مينة لـ (١ مثقال) ، تم شراؤها من إريبا التاجر ابن إصي ـ قاتار »(٧٩) .

٣ ـ إلوشو ـ ابوشو : يذكر هذا التاجر في نص كبائع للارز الابيض (خشب). « ٢$\frac{١}{٣}$ مثاقيل فضة لشراء ٨ ارزات بيضاء(٨٠) ، شريت من إلوشو ـ أبوشو التاجر ، والمخصصة لعربتي(٨١) أحصنة ، اللتين صنعهما خبدو ـ ملك »(٨٢) .

٤ ـ في رسالةمن ياسيم ـسومو Yasim - sumu(٨٣) الى سيده زمري ليم اشارة الى احد التجار « العجل الذي ارسل الى الملك من احد الاشخاص اصبح مريضا . ياسيم ـ سومو يسأل الملك ما اذا كان يجب عليه ان يبيع العجل الى احد التجار ويشتري بدلا منه(٨٤) .

٥ ـ نانا ـ مانسي **Nanna-manse** : يظهر هذا التاجر بائعا للقصدير : « ٢٠ مينة قصدير مقابل ٢ مينة فضة ، بسعر ١٠ الى ١ ، اشتريت من نانا ـ مانسي التاجر »(٨٥) .

٦ ـ **اخوشينا** يرد ذكر اخوشينا في احد النصوص بائعا للقصدير : « [؟] مثقال فضة لشراء قصدير من اخوشينا التاجر »(٨٦) .

٧ ـ **ماهنوب ـ ال Mahnub - EL**: كان ايضا يشتغل ببيع القصدير(٨٧) .

٨ ـ **نص من عهد سومو ـ يامام** Sumu-yamam احد ملوك ماري يبين بان احد التجار كان يشتغل ببيع خشب الابنوس(٨٨) . من محتوى النص يتبين بان سعر خشب الابنوس كان ٢ مثقال فضة لكل مينة من الخشب(٨٩) .

٩ ـ **وفي النص** ARM XII 263:11 يرد ذكر لاحد التجار .

وتذكر نصوص ماري ايضا تجارا من مدن سورية :

أ ـ من ايمـار Emar : احد النصوص يبين بان احد التجار (او عدة تجار) من ايمار كان يعمل ببيع الزيت والخمر : « ½ مثقال فضة حسب وزن السوق ، لشراء اناء كبير من الزيت . ½ مثقال فضة لشراء اناء من الخمر لزيت الاس ، تم شراؤها من تاجر من ايمار »(٩٠) . وفي نص ثـان يظهر تاجـر اخـر من ايمـار بائعا للخشـب (ARMI XXIII 523) : « ٣ تالنت خشب تيارو ? Tiyaru ، ٢ تالنت آس ٢ تالنت سرو ، التي شريت من خانا ـ ادو Hanna-Addu التاجر من إيمار ».

ب ـ من كركميش Karkemis : وتاجر من كركميش يذكر في احد النصوص كبائع للارز الابيض : « ٣ مثاقيل فضة حسـب وزن السـوق لشراء اربـع ارزات بيضاء(٩١) ، شريت من تاجر من كركميش »(٩٢) .

تجار من سوخوم Suhum (٩٣)يظهرون ايضا في عدة نصوص من ماري منشغلين بتجارة القصدير(٩٤) .

وكمركز تجاري مهم كانت ماري تجتذب تجارا من المدن السورية المختلفة مثـل إيمار وكركميش ، وربما حلب وقطنة ، الذين كانوا يجلبون اليها منتجات بلادهم مثل الخمر والخشب وزيت الزيتون . السؤال المهم هنا هو ما اذا كان هؤلاء التجار يلتقون في ماري مع تجـار من المـدن البابلية ويعقـدون معهم الصفقات التجاريـة ؟. وتجار من ماري كانـوا يسافرون ايضـا الى المدن السورية لعقد صفقات تجاريـة. لقد رأينا فيما سبق داريًا ، ومن رسالة من ابلاخاندا Aplahande حاكم كركميش.

(ARM V 9) الى يسماخ أددyasmahadad حاكم ماري تبين بان عدة تجار من مملكة ماري احتجزوا في كركميش ، كاجراء مضاد لاحتجاز ٣٠ خروفا و ٥٠ جرة من الخمر وزوجة احد اللاحين من كركميش في توتول Tuttul التابعة لمملكة ماري(٩٥) . ومن ذلك يمكن الاستنتاج بان تجارا من ماري كانوا يسافرون باستمرار الى كركميش لاستيراد منتجات مختلفة .

كذلك كانت مدينة حاصور الواقعة في شمال فلسطين هدفا مقصودا لتجار من ماري . فاحدى الرسائل من زمري ليم ملك ماري الى ياريم‌ليم ملك يمحاض تفيدنا بأن تجارا من ماري سافروا الى حاصور واحتجزوا هناك من قبل ملك تلك المدينة لاسباب مازلنا نجهلها(٩٦) .

* * *

على العكس من بلاد بابل نوجد معلومات قليلة عن التجار وعن الفعاليات التجارية في سورية .

في بعض نصوص الطبقة السابعة من الالاخ يرد ذكر لوكيل التجار(٩٧) . في النصوص AL .T 56, 57 يظهر وكيل التجار إربا‌أدا Irpa-ada شاريا لعدة قرى واراض . وكان الثمن يتضمن ، الى جانب الفضة ، منتجات طبيعية كالشعير والزيت والخمر والملابس . وكان الملك نفسه واخوه الحاكم في حلب شهودا في عملية البيع هذه . وهذا يدل على أهمية منصب وكيل التجار في الالاخ في هذه الفترة ، ومن المحتمل بانه كان يعمل ، كوكيل التجار في بلاد بابل ، في خدمة القصر بتسيير امور التجارة وجباية الضرائب(٩٨) . ويمكن القول ان المهمات الموكولة الى وكيل التجار في الالاخ ، في هذه الفترة ، كانت مشابهة للمهمات الموكولة الى وكيل التجار في بلاد بابل .

ويرد ذكر ممثلي التجار « شامالوم » في نصين (٩٩) ، وقد أتوا من مورار Murar وايمار وامورو Amurru . ومن المعتقد بأنهم كانوا يسافرون باستمرار بين الالاخ وهذه المدن لعقد الصفقات التجارية .

الهوامشــ :

(*) انظر هذا الموضوع بتوسع في : عبد مرعي ، « التجارة بين سورية وبلاد بابل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد » (بالالمانية). اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ..

Der Handel zwisch Syrien und Babylonien im achtzehnten Jahrhnu-dert vor Christus , Würzburg 1985.

(١) AHw 1314 b; H. Zimmern, AFr, S.16; vgl. B. Landsberger, Akkadisch -Hebräische Wortgleichungen, in: Festschrift zum 80. Geburtstag von W. Baumgartner, Leiden 1967, S. 177.

(٢) A. Salonen , Nautica Babyloniaca ,Helsinki 1924, S. 23 Anm. 1; AHw 588 b; CAD 10 (1977) , S. 126 .

(٣) AHw588b; L.Koehler-w. Baumgartner, Lexicon in Veteris Testamenti Libros, Leiden 1953, S. 522; R. Tomback, Acomparative Semitic Lexicon of the Phoenician and Punic Languages, Montana 1978,P.177.

(٤) G. Steiner, Kaufmanns- und Handelssprache im alten Ortent, in : Iraq 39 (1977) , S. 12.

(٥) S. Kaufmann, The Akkadian Inflnences on Aramaic, Chicago - Londen 1974, P. 107 .

(٦) تسمية التاجر انتقلت من اللغة الاكادية الى العربية عبر الارامية .

انظر :

S. Fraenkel, Die Aramäischen Fremdwörter im Arabischen, Nach-druck der Ausgabe Leiden 1886. Hidbesheim 1961, S. 181.

(٧) E. Laroche, RHA 35 (1977) , P. 254.

(٨) Zimmern, AFr, S. 16; AHw 1314 b; Steiner , Iraq 39 (1977), S. 13; F. Hrozny, Die älteste Geschichte Vorderasins, Prag 1940, S . 86.

(٩) Makkārum : تاجـر , AHw 589 b.

كلمة mak - rú - 'u في اللغة المصرية القديمة ، والتي تعني تاجر ايضا ، استعيرت من اللغات السامية . انظر :

A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica I, Oxford 1947, P.95 Nr. 212 ; W. Helck, Die Beziehungen Ägyptens zu Vorderasien im3. und 2. Jahrtausend v. Chr., 2. verbesserte Auflage, Wiesbaden 1971, S. 515.

(١٠) W. F. Leemans, The Old Babylonian Merchant, His Bus: ness and His Social Position, Leiden 1950, P. 125.

(١١) ibid. P. 36.

(١١ب) bã'irum : صياد . كان على هذا الصياد المشاركة في حملات الملك العسكرية . وسلاحه كان شبكته . انظر AHw 96 a.

(*) هذه الفقرة والفقرات الاخرى من قانون حمورابي الواردة هنا ترجمتها عن النص الاصلي المكتوب باللغة الاكادية

(١٢) W. F. Leemans, Tfe Old Babylonian Merchant, P. 7.

(١٣) ibid. P. 9.

(١٤) ibid. P. 10.

(١٥) ibid. P. 22.

(١٦) شامالوم Samallum : حامل كيس ، معاون ، مندوب ، مساعد تجاري .
انظر : AHw 1153 b ; Zimmern, AFr .S.16.
شامالوم هي كلمة سومرية الاصل وانتقلت الى الاكادية : اشتقاقها ، حسب معلومات الاستاذ الدكتور يوسف بور المتخصص في الدراسات السومرية ،: حامل وعاء : LU. SAMAN. LA
حامل : LA; وعاء معين : SAMAN رجل : LU:

(١٧) H. Klengel, Handel und Händler im alten Orient , Wien-Köln -Graz 1979, S. 90.

(١٨) « سلفة للتجارة بدون فائدة » تسمى في اللغة الاكادية تدميقتوم tadmiqtum انظر :
AHw 1300 b; Leemans, Merchant, P. 25 ff.; F.R. Kraus, Ein Edikt des Königs Ammi - Saduqa von Babylon, Leiden 1958, S. 63 Anm. 1; vgl. Edzard, Altbabylonische Rechts - und Wirtschaftsurkunden aus Tell ed - Der im Iraq Museum, Baghdad, München 1970, S. 147.

(١٩) H. Klengen, Handel und Händler im alten Orient, S. 90.

(٢٠) ibid. S. 91.

(٢١) شامالوتوم samallutum تعني : «اعانة في التجارة ، الخدمة كمندوب » .
انظر : AHw 1154 a.

(٢١ب) مثقال من الجذر ثقل في العربية هي ما يقابل كلمة شيقيل Siqil الاكادية . في الاكادية شيقلوم Siqlum في حالة غير المضاف وشيقيل في حالة المضاف . الكلمة مشتقة من الفعل شقالوم Saqalum : وزن . الشيقيل يزن ٨½ غ تقريبا .

كلمة شيقيل انتقلت الى لغات اخرى :
الاوجاريتية : ثقل tql ، العبرية : شيقيل Seqel ، والارامية ثيقلا tiqla . انظـر :
AHw1248a

(٢٢) J. J. Finkelstein, Late Old Babylonian Documents and Letters, New Heven - London 1972, Nr. 207 .

(٢٣) Leemans, Merchant, P. 33.

(٢٤) A.L. Oppenheim, Letters from Mesopotamia, Chicago - Londen 1967, P. 83 Nr. 13.

(٢٥) Leemans, Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden 1960. P. 108 .

(٢٦) Leemans, Merchant, P. 34; AbB II 87; VI 4.

(٢٧) ibid. P. 34.

(٢٨) صوخاروم (في حالة المفرد): شاب ، خادم ، مستخدم . انظر :
AHw 1109 a; CAD 16 S (1962) , P. 231 b.
يقابل هذه الكلمة في العربية كلمة « صغير » .

(٢٩) انظر الهامش رقم ٢٧.

(٣٠) Leemans, Merchant, P. 11.

(٣١) بيل خوبوليم bel hubullim: دائن . انظر :
AHw 351 b; CAD 6 H (1956), P. 218 b.

(٣٢) Leemans, Merchant. P. 12 .

(٣٣) ibid. 13.

(٣٤) Klengel, Handel und Händler im alten Orient, S. 89.

(٣٥) Leemans, Merchant, P. 14.

(٣٦) انظر ايضا : ibid. P. 19.

(٣٧) ibid. P. 17.

(٣٨) الرسالة رقم ١٣٤ في A b B VII هي نسخة عن هذه الرسالة .

(٣٩) نادیتو maditum : هي كاهنة اله الشمس شماش وكان يجب عليها الا تنجب اولادا . انظـر حول ذلك :
J. Renger, ZA 58 (1967), S. 149 ff.

(٤٠) قارن : Leemans, Merchant, P. 20.

(٤١) ibid. P. 36; Klengel, Handel und Händler, S. 74.

(٤٢) Leemans, Merchant, P. 37.

(٤٣) ibid. P. 38.

(٤٤) Edzard, Fischer Weltgeschichte 2, S. 181.

(٤٥) Leemans, Merchant, P. 113.

(٤٦) ibid. P. 94, 122.

(٤٧) ibid. P. 123; B. Meissner, BuA I, Heidelberg 1920, S. 336.

(٤٨) Klengel, Handel und Handler, S. 85; vgl. Schmökel, Kulturgeshichte des Alten Orient, Stuttgart 1961, S. 78.

(٤٩) Klengel, Handel und Händler, S. 74; vgl. K. Polany in: Sabloff - Lamberg - Karlovsky , Ancient Civilization and Trade, P. 138-140.

(٥٠) Leemans, Merchant, P. 121.

(٥١) ibid. P. 122.

(٥٢) ibid. P. 99 ff.

(٥٣) ابي ايشوخ Abi - esuh هو الملك الثامن من السلالة البابلية الاولى . حكم مابين ١٧١١ ـ ١٦٨٤ ق.م . وهو ابن سمسو الونا خليفة حمورابي .

انظر : F. H. Weissbach, RLA 1 (1932), S. 9.

(٥٤) Leemans, Merchant, P. 53 ff.

(٥٥) انظر الهامش رقم ٣٩ .

(٥٦) Leemans, Merchant, P. 98, 118 ff.

(٥٧) ibid. P. 63, 67.

كاروم كلمة سومرية الاصل لها عدة معان : رصيف ميناء ، سد ، مرسى للسفن ، سوق دائرة للتجارة . انظر اطروحتي للدكتوراة ص ٥٥.

(٥٨) Leemans, Merchant, P. 67 ff.

(٥٩) ibid. P. 125.

(٦٠) (و) اكلو (م) (w) aklu (m) : مكلف ، مشرف ، مراقب . انظر :

AHw 1456 a; A. Salonen, Nautica Babyloniaca, S. 5.

نقول في العربية « وكيل » .

(٦١) Klengel, Handel und Händler, S. 84; Leemans, RIA 4 (1972 - 75), S. 81, 85.

(٦٢) حقل لسد نفقات المعيشة يدعي في الاكادية ايقيل كورومانيم eqel Kurummatim انظر : AHw 231 b; CAD 8 K (1971), P. 573 ff.

(٦٣) Leemans, Merchant, P. 82.

(٦٤) ibid.

(٦٥) ibid. P. 83.

(٦٦) ibid. P. 86.

(٦٧) ibid. P. 105.

(٦٨) E. Ebeling, Altbabylonische Briefe der Louvre- Sammlung aus Larsa, Leipzig 1942, Nr. 33.

(٦٩) انظر : RGTC 3 (1980), S. 147.

(٧٠) Leemans, Merchant, P. 90 ff.

(٧١) ibid. P. 95, 105 ff.

(٧٢) ibid. P. 71; A. Walther, Das altbabylonische Gerichtswesen, Leipzig 1917, S. 70 ff.

(٧٣) انظر اطروحتي ص ١٣٥ و ١٣٨ .

(٧٤) مفوض ، مكلف باوامر ARMT XIII 35: 25. bel terti (m) :
انظر : AHw 120 b Nr. 23.

(٧٥) انظر ص ١٣٨ ومايليها من أطروحتي . ARMT XIII 35 : 22-26 .

(٧٦) انظر ص ١٣٥ من اطروحتي ARM IX 8, 13.

(٧٧) B. 130 bei Ch.-F. Jean, Pharmacopée etParfumerie dans quelques Lettres de Mari, in: ArOr XVII/1 (1949), P. 329 . ARMT IX § 41 ; A. Finet, AfO 35 (1974-77) , P. 124,:
انظر حول داريا :
واطروحتي ص ٧٩ .

(٧٨) الرصاص يدعى في الاكادية اباروم abāru (m) . انظر AHw 4 a ; CAD 1 A 1 (1964), P. 36 ff.

(٧٩) ARM XXI 221 : 1-7 .

(٨٠) ti (?) ãl/ru (m), tijãl/ru (m):

انظر : AHw 1353 a ; vgl. A. Salonen, Die Türen des Alten Mesopotamien, Helsinki 1961, S. 99.

(٨١) Magarru (m(: دولاب ، عربة , AHw 575 a; CAD 10 M (1977), P. 32 ff.; vgl. A. Salonen, Die Landfahrzeuge in Babylinien, S. 38.

(٨٢) ARM XXI 215 : 1-10 .

(٨٣) احد الموظفين الكبار لدى زمري ليم . انظر : J.-R. Kupper, RLA 5 (1976-80), S. 269.

(٨٤) ARMT XIII 25: 18.

(٨٥) ARMT XXII 205, Col. I Z. 6-10.

(٨٦) ARMT XXII 260 : 6-9.

(٨٧) ARMT XXII 262, Col. VI Z. 8-18.

(٨٨) خشب الابنوس يدعى في الاكادية اوسوم usu (m) . قارن : AHw 1442 b :

(٨٩) G. Dossin, RA 64 (1970) , P. 28 Nr. 13.

(٩٠) ARM XXI 210: 1-10.

(٩١) انظر الهامش رقم ٨٠ .

(٩٢) ARM XXI 214: 1-8.

(٩٣) سوخوم Suhum منطقة على الفرات الى الجنوب من ماري . انظر : RGTC 3 (1980) , S. 210; 5 (1982), S. 235 ff.

(٩٤) ARMT XXII 205, I Z. 12-18; 264 : 5-10' 14' 16-21.

(٩٥) انظر اطروحتي ص ٧٨ ، ١٥٧.

(٩٦) انظر اشروحتي ص ١٥٧ وما يليها .

(٩٧) D. J. Wiseman, The Alalakh Tablets, Nr. 7: c; 57: 3; 77. 16.

(٩٨) Klengel, Handel und Händler, S. 142.

(٩٩) Wiseman, JCS 13 (1959), P. 28. AL. T. 269: 28 , 52, 53, 74, 75 ; The Alalakh Tablets, Nr. 321: 2.

مختصرات اسماء المصادر والمراجـع الواردة في الهوامش

AbB = Altbabtlonische Briefe.

AfÒ = Archiv für Orientforschung .

AFr = Akkadische Fremdwörter als Beweis für babylonischen Kultureinfluß, Leipzig 1917.

AHw= W.v. Soden, Akkadisches Handwörterbuch.

AL.T.= D.J. Wiseman, The Alalakh Tablets, Londen 1953.

ARM(T)= Archives Royales de Mari (transcripts, traduits et commentés).

ArOr = Archiv Orientálni.

BuA = Meissner, B., Babylonien und Assyrien.

CAD =)The Assyrian Dictionary of the Oriental Institute of the University of Chicago.

JCS = Journal of the Cuneiform Studies.

RA = Revue d'Assyriologie et d'Archéologie Orientale.

RGTC = Répertoire Géographque des Textes Cunéiformes.

RHA = Revue Hittite et Asianique.

RLA = Reallexikon der Assyriologie .

ZA = Zeitschrift für Assyriologie und verwandte Gebiete.

* * *

بعض الملاحظات حول اللغة الإبلائية وقواعدها

الحديث عن ابلا EBLA ولغتها ما يزال محتدما في اوساط الاشوريات واللغات السامية في العالم . كما ان عملية نشر النصوص المكتشفة في ابلا ستستمر لسنوات طويلة . لذلك فان الوصول الى رؤية شاملة وواضحة كل الوضوح للغتها وقواعدها يحتاج الى سنوات عديدة .

ومع ذلك فان عدة جوانب من لغة ابلا اصبحت معروفة ، نتيجة عمليات القراءة المتواصلة للنصوص المكتشفة ، ودراستها ونشرها . وان تقديم فكرة موجزة عن تلك اللغة ، كما فعلت الدكتورة يسرى الكجك ،* بداية طيبة ، وحافز لنا نحن العرب ان نهتم أكثر بحضارتنا وتاريخنا القديم . وأود هنا ان اشير الى بعض ما ورد في البحث عن خصائص اللغة الابلائية .

في الصفحة ١٦٩ تورد الباحثة بعض الافعال الموجودة في اللغة الابلائية: جنفاردامو Jinhar - Damu = داموا مصاب ، جيبخور ملك Jiphur - malik = ملك قدحصد ، جيشمع أل Jisma-il = هو يسمع ، جيديـن كاميش Jiddin-Kamis = كميش قد أعطى ، جيبسورني Jipturni = هو قد حررني او حررنا ، ثم تعلق فتقول :« من الملاحظ ان الافعال السابقة قد بدأت بمقطع سبق الفعل ، للمفرد المذكر الغائب ، وهو (جي) Ji ،وانها جميعا على وزن جيكتل Jiqtul » ، ثم تضيف : يجمع بيتيناتو وجلب على اعتبار Jiqtul كزمن الفعل الماضي، كما هو الحال في كتب Ktub = كتب .

من الامور المعروفة أنه لا يوجد في لغة ابلا ولا في غيرها من اللغات السامية المعروفة حتى الان مقطع يسبق الفعل ويدعى (جي) Ji (١) . فالمقطع الذي يسبق الفعل الماضي للمفرد المذكر الغائب في لغة ابلا هو المقطع (أي) ، كما هو الحال في اللغة الاكادية ،ويقابل ذلك المقطع ya (يا) في اللغة الامورية واللغات السامية الغربية، وبناء على ذلك يصبح الوزن المنسوبة اليه الافعال المذكورة سابقا اقتل = iqtul وليس جيكتل كما ورد في المقال(٢) .

* انظر : الابلائية لغة مدونة في وثائق ملكية ، يسرى الكجك ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان ٢١ و ٢٢ ، اذار-حزيران ١٩٨٦ .

كذلك لابد من التنويه بأن حرف الـ q يقابله في العربية واللغات السامية المعروفة الحرف (ق) ، والفعل قتل qatal ، والمستخدم هنا كوزن تقاس عليه الافعال الاخرى ، معروف في العديد من اللغات السامية ، ويكتب قتل عند نقله عن اللغات الاوربية ، وليس كتل (ص ١٧٠) . والمثال كاتيش qatis يجب ان يكتب قاتيش .

المضارع والمستقبل في لغة ابلا يكون على وزن اقاتيل أو اقاتول = iqqat/i/ul وليس على وزن جيكتيول . ونورد فيما يلي ترجمة الافعال كما وردت عند بيتيناتو وجلب : (الاله) دامو أصاب بآفة = انخار دامو = En-ar-Da-mu (inhar-Damu) الفعل نخر معروف في اللغة العربية .

(الاله) ملك ، جمع ، وحد ، حصد = إبخور ملك = Iq-hur - Ma - lik (iphur - Malik) الفعل باخارو (م) Pahãru (m) معروف ايضا في اللغة الاكادية ويعني : يجمع ، يتجمع ، يوحد(٤) .

(الاله) إل سمع = إشمع إل = Is - mã-Il (isma'- Il)

(الاله) كاميش أعطى = إدين كاميش = I-tid Ga - mi-is (iddin - kamis)

الزمن الماضي للفعل : يعطي ، للمفرد المذكر الغائب الوارد هنا ، هو نفس الزمن الماضي الموجود في اللغة الاكادية ، علما بان المصدر في الاكادية هو ندانو (م) = nadãnu (m)(٥) . عو حررني او حررنا = إپطورني = Ip - tur-ni (ipturni) والفعل پطرو (م) Pataru (m) معروف ايضا في اللغة الاكادية وفي اللغات السامية الاخرى ويعني : يحل ، يفك ، يعتق يحرر (٦). نقول في العربية فطر .

في الصفحة ١٧٠ ، المصدر مخزيدا mahazida= ضرب والصحيح هو ma-ha-zi (mahazi)i-da= **بضرب باليد**(٧) . **الفعل مخاصو** (م) mahasu (m) معروف في الاكادية ويعني يضرب ، ينسج(٨) ، ومعروف كذلك في اللغات السامية الاخرى . في العربية نقول مخض . أما i-da فتعني يد .

التانيث في لغةابلا يتم باضافة اللاحقة at-um- أو : t-um- كما في maliktum = ملكة ، الى جانب malikum = ملك، و irisatum = رغبة ، ونپشتوم nupustum = حياة وليس مبشتوم mupustum (٩) .

الفاعل (ص ١٧٠) نضاف اليه اللاحقة (أو) u وليست يو . فالكاتبة قرات اللاحقة (أو) u كالحرف (يو) u في اللغة الانكليزية . اما النهايات a و Q فهي موجودة بكثرة في كل انواع الاسماء وليس فقط في اسماء الملوك . ويرد في الصفحة

نفسها» وكتبت اسماءالالهة على الشكل التالي :داكان كننانيم Dagan Kana naim = دجان الكنعاني ، وكننانيم هنا هو اسم ارض كنعان ، تقاربها في العربية كنانة ».

اسم الاله يكتب كما يلي : دجان كنناوم Dagan Kananaum = دجان الكنعاني، لان كنناوم هنا صفة تتبع الموصوف. أما دجان كننائيم Dagan Kananaim فتعني دجان كنعان (مضاف ومضاف اليه)(١٠) . اما بالنسبة للتقارب ما بين كلمتي كنعان وكنانة في العربية فلست ادري ما هي البراهين الدالة على ذلك ، ولعل التقارب اللفظي وحده هو الاساس الذي استندت اليه الباحثة .

الضمائر الشخصية المنفصلة : انتم في لغة ابلا هي an - tá-nu وليس amanu (١١).

الضمائر الشخصية المتصلة (ص ١٧١) على نوعين :

أ ــ مع الاسماء : مع ضمير المتكلم المفرد كما في المثال : طوبي دالو = Tubi-Dalu (الاله) دالوخيرى ، طيبي .

ni و eu مع ضمير المتكلم في الجمع كما في المثال : ريئينا ادا = راعينا ادد (هدد) = Ri-i-na é-da (Re 'ina - Hadda) ، خادمنا = ابدوني = Ebduni
Su : لاحقة المفرد المذكر الغائب وتكتب SUD-su

ب ــ مع الافعال : ni: للمفرد والجمع مثل : ابيني ـ ليم I-bi-ni-li-im= الاله ليم دعاني ، او دعانا ، ايطورني Ip-tur - ni اعتقني أو اعتقنا(١٢) .

ومن الضمائر الشخصية المتصلة المعروفة في لغة ابلا (كا) Ka - ـ ، كما في :
ama-gal-Ka = امك . اسم الامم كتب هنا بالسومرية واضيف اليه الضمير المتصل (كا) للمخاطب المفرد المذكر(١٣) .

اداة الاشارة المعروفة حتى الان في لغة ابلا هي اميوم ammium = ذاك . هذه الاداة تشبه الاداة أنيوم annium =هذا ، التي ترد في اللهجة الاشورية القديمة منذ بداية الالف الثاني قبل الميلاد(١٤). اما في البابلية القديمة فهي انوم annum= هذا ، وللمؤنث انيتو (م) anni tu (m) (١٥) .

اداة الاستفهام : في لغة ابلا هي في mi =من ، مثل : مي ــ كا ــ ال mi-ka-Il = من مثل (الاله) إل ، وليس « من يحب إل » ، كما جاء في المقال .

مي mi= من موجودة ايضا في العبرية والاوجاريتية والفينيقية ولغة ماري ما قبل الصارجونية ، وتتحول هذه الاداة الى man= مَن ، في الاكادية القديمة والامورية والسريانية(١٦) . وهناك اداة استفهام ثانية هي مينو mi-nu(١٧) ، ربما كانت مماثلة لـ مينو (م) minu (m) = ماذا ، الاكادية(١٨) . بالاضافة الى ذلك هناك ادوات اخرى هي مينوما mi-nu-ma ومينانا ما (أو مينامامــا) me-na-na-ma = (mi-na-ma-ma) أي شيء ، وتستخدم للنكرة والشيء غير المحدد (١٩) .

في الصفحة ١٧٢ يرد :« ميكا أل Mika-'il= من مثله» والصحيح أن مي ــ كا ــ إل= من مثل إل . والامر نفسه يتكرر في بداية الصفحة ١٧٤ .

اداة الجر : أش ــ دا ās -da (ās - tu) = من ، مع ، لها صلة مع istê = مع ، مِن ، الاكادية الصارجونية ، ومع إشتو (م) istu(m) = مِن ، منذ ، عندما ، بعد ، الاكادية (٢٠) .

في الصفحة ١٧٤ يرد مايلي : « فكلمة عبد في الابلائية والاكادية تأخذ حرفين (الالف والعين) أي تكتب أبدو àbdu وعبدو ébdu » .

هذا يصح فقط على الابلائية ، أما الاكادية فتعرف تسمية اخرى للعبد هي (و) اردو (م) (٢١) (w) ardu (m)

وما ذكر في نهاية المقال : « نستطيع القول بأن الابلائية .. تفرعت عنها لغة ماري في احد الايام ...» يدخل ضمن الافتراضات التي لا تستند الى دلائل وبراهين كافية .

د. عيد مرعي

تنويه :

وردنا من السيد درويش احمد (وزارة التربية ــ الوسائل التعليمية) ملاحظات لا تخرج عما جاء في هذا البحث ، نعتذر عن نشرها تحاشيا للتكرار ، فشكرا له .

الهوامش :

(١) وقع اللبس في الامثلة المذكورة من قراءة حرف ي جي ، في حين ان لفظ الحرف هنا هو يي (كحرف مستقل يوت) كما في اللغة الالمانية . ولقد استخدم هذا الحرف في محاولة لتوضيح اللفظ للقارىء . أما في الكتابة المقطعية للافعال المذكورة وغيرها والتي نقلها جلب عن بيتيناتو فيرد الحرف أ في بداية الافعال .

(٢) G, Pettinato, **The Archives of Ebla , An Empire Inscribed in Clay ,** Garden City' New York 1981 , P. 64.

(٣) I. J. Gelb, Thoughts About Ibla : Apreliminary Evaluation, March 1977, in: **syro- Mesopotamian Studies** . 1/1 (May 1977), P. 22.

(٤) W. V. Soden, **Akkadisches Handwörterbuch** , S.810
سنذكر اسم هذا القاموس مختصرا : (AHw)

(٥) AHw, 701 a .

(٦) AHw . 849 a.

(٧) Gelb , P. 22.

(٨) AHw, 580.

(٩) Geld' P. 18. ff; Pettinato, P. 62.

(١٠) Gelb, P. 19.

(١١) ibid .; Pettinato, P. 62.

(١٢) Gelb, P. 20 ; Pettinato ,P. 63.

(١٣) Pettinato, P. 63.

(١٤) Gelb. P. 20.

(١٥) AHw. 53 b; W.V. Saden. **Grundriss der Akkadischen Grammatik,** Roma 1969, 45 a.

(١٦) Gelb, P. 21.

(١٧) Pettinato , P. 63.

(١٨) AHw, 655b.

(١٩) Gelb, P. 21, Pettinato, P. 63.

(٢٠) Geld . P. 23, AHw, 401 b ff; Pettinato. P. 63.

(٢١) AHw. 1464b.

الحياة السياسية في نيابة الجزائر إبان عصر الدايات
ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الأتراك
(في مطلع القرن التاسع عشر)

الغالي الغربي

مقدمة :

استهل القرن التاسع عشر باندلاع اكبر واخطر ثورة شعبية على الاتراك منذ مجيئهم الى نيابة الجزائر ، الا وهي ثورة الطريقة الدرقاوية ، احدى فروع الطريقة الشاذلية ، وقد تزامن انتشار لهيب هذه الثورة مع تفاقم الوضع السياسي والاقتصادي لحكومة الدايات ، لهذا كان تهديدها خطيرا وكبيرا ، مما جعل رد فعل الاتراك عليها عنيفا وقاسيا ، خاصة اذ عرفنا ان اتباع هذه الطريقة لم يدخروا وسعا بمهاجمتهم لاول مرة في عقر دارهم وعلى مختلف الجبهات ، ولم يستطيعوا القضاء عليها ، رغم الامكانات المادية التي جندوها الا بعد مرور عشر سنوات على اندلاعها ، وذلك بسبب اتساع المساحة التي غطتها ، ولا تختلف هذه الثورة عن الثورات السابقة التي قامت على الوجود التركي ، والتي تميزت بالجهوية والمحدودية ، بسبب قوة روح العصبية، باعتبار ان زعماءها كانوا رجال قبائل ، مما افقدها عنصر الشمولية وجعلها لا تشكل خطرا كبيرا على خلفاء خير الدين ، الذين أفلحوا في استغلال روح العصبية وزرع روح التنافر والخلاف بين القبائل ، واستطاعوا بذلك ان يحافظوا على أمنهم ووجودهم . لكن الشيء الجديد في هذه الثورة هو ان زعماءها وقادتها كانوا من رجال الطرق الصوفية الذين كانوا قبل هذا التاريخ حلفاء الاتراك وانصارهم ،

لهذا اتخذت هذه الثورة صفتها الشعبية الواسعة بمؤازرة هذه الشريحة الاجتماعية التي كانت تتمتع بنفوذ روحي ومادي في المجتمع الجزائري في تلك الحقبة من التاريخ.

وهنا يطرح نفسه السؤال التالي : ما الاسباب التي دفعت برجال الطرق الصوفية الى الانتقال من صف المدافعين عن الاتراك الى صف الرعية والدفاع عن مصالحها في وجه الحكام الاتراك ؟ قبل ان نجيب على هذا السؤال تجدر الاشارة الى ان الاتراك استغلوا النفوذ السياسي والديني الذي كان يتمتع به رجال الطرق الصوفية في المجتمع ، فتقربوا منهم واعتمدوا عليهم في بسط سيطرتهم على الجزائر ، وكسر شوكة القوى السياسية التي حاولت الوقوف في وجههم . وبذلك اصبح رجال الطرق الصوفية القوة الثانية بعد الاتراك ، مما جعل هؤلاء يمنحونهم الكثير من الامتيازات الاقتصادية وعلى رأسها جباية الضرائب في كثير من مناطق النيابة ، بالاضافة الى تخصيص جزء من الارباح التي كانت تدرها القرصنة البحرية ، كما كانوا يستفيدون من الهدايا الاعتيادية في المناسبات الدينية والاعياد . ومن هذا المنطلق اسند لهم دور الوساطة بين الاهالي والحكومة التركية(١) .

ولكن هذه العلاقة الحميمة بين الطرفين لم تدم طويلا ، فظهرت بوادر التأزم بينهما منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بسبب التحول الاقتصادي الذي شهدته الجزائر والمرتبط بنضوب موارد القرصنة التي كان يعتمد عليها الاتراك في تدعيم نفوذهم وسيطرتهم فيها ، وبسبب خلو النيابة من موارد اقتصادية كافية لتلبية احتياجات الحكومة التركية المالية للمحافظة على استقرارها والحيلولة دون ثورة الجند ، ولم يجد الاتراك وسيلة لتوفير المال الا بمضاعفة الضرائب على الاهالي وتجريد الحملات العسكرية المتتالية لارغامهم على الدفع(٢) . وقد اثارت هذه الحملات حفيظة المرابطين الذين لم يستطيعوا أن يقفوا مكتوفي الايدي امام الشكاوى المقدمة اليهم من ضحايا جشع البايات من الاهالي ، بالاضافة الى أن مصالح رجال الطرق الصوفية تضررت من جراء هذا التحول الاقتصادي فتقلصت امتيازاتهم السابقة ، وتغيرت نظرة الاتراك اليهم بعد التطور الذي شهدته الطرق الصوفية ذات المنشأ المغربي في الناحية الغربية من النيابة ، والذي ترتب عليه تمتين العلاقات مع المغرب الاقصى .

فساد النظام التركي:

كانت نتيجة افتقار الاتراك لقاعدة شعبية تساندهم وتؤازرهم ، ان انطبعت نظرتهم للاهالي بالحيطة والحذر، والخوف من انفلات السلطة من بين ايديهم ،واصبحت كل المناصب العالية والرتب القيمة مقصورة عليهم ، أما بقية طبقات المجتمع فكانت ذليلة ، وحتى القوانين والتشريعات التي سنوها ، لم تكن عادلة بل مجحفة وقاسية(٣) .

ورغم ان الاتراك كان بامكانهم استغلالهم الحظوة التي يتمتعون بها لدى الاوساط الشعبيةفي بداية مجيئهم لكسبها الى جانبهم ، الا ان شيئا من هذا القبيل لم يحصل ، بل اقاموا بينهم وبين الشعب حاجزا من الوسطاء واعتبروا انفسهم دائما الاسياد وحكموا البلاد باستبداد مشابه لاستبداد امراء الجمهوريات الايطالية(٤) .

وحاول الاتراك الاعتماد على فكرة التضامن الاسلامي لترسيخ نفوذهم لدى مختلف الاوساط الشعبية ، بالتقرب الى المرابطين وشيوخ الزوايا ، ومصاهرتهم ومنحهم الامتيازات ، الا انهم اخفقوا في خلق اطار طبيعي للاتصال بالرعية بهذه الوسائل ، وسرعان ما شكلوا ارستقراطية جديدة ذات نظرة مغلقة مبنية على أصول عنصرية، احتكرت وحدها السلطتين السياسية والاقتصادية(٥) .

وقد تفسر هذه السطحية بعجز الدولة بانظمتها وأدواتها عن بسط حكمها ، لان هذه الادوات والانظمة في واقع الامر كانت أدوات حرب اكثر منها ادوات حكم(٦) . ولنا في الشعر الشعبي شواهد كثيرة تدل على المعاناة من الفساد والضغط الذين كانا مسلطين على السكان من جراء فساد نظام الاتراك ، كقول احدهم :

عاتوا عتوا على الخلق وجاروا	فكانوا اكثر العباد وباروا
فرفع الكل الاكف ودعوا	بما به اجاب الله ورجوا (٧)

اما الزياني ، وهو من المؤرخين المقربين للسلطة التركية ، فيقول عنهم « .. واعلم ان الاتراك ، لما تمهد لهم الملك بالجزائر ، كثر ظلمهم وفسادهم ، بحيث لا يليق ان يذكر ما كانوا منه من الظلم والمناكر وتواتر ذلك على الالسنة بغاية التواتر ، فاشتغلت العلماء من ذلك في نظمهم ، وسألت الناس ان يزيل عنهم ما حل من ظلمهم .. »(٨) .

من خلال هذه النظرة الموجزة نلاحظ ان النظام التركي كان منذ بدايته يسير بسرعة الى الانهيار السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، لانه اعتمدفي اساسه على القوة العسكرية وحكام لا تربطهم اية روابط طبيعية بالبلد والسكان ، وهذا مادفعهم لان يتجاوزوا حدود سلطتهم القانونية « ويرتكبوا الفضائح ويمارسوا الظلم والقسوة تجاه الرعايا والاعيان »(٩) .

وقد وصل فساد النظام التركي الى اقصاه في عهد الدايات (١٦٧١ ـ ١٨٣٠) وهي الفترة السياسية التي اشتدت فيها حدة الثورات الشعبية على الوجود التركي في نيابة الجزائر ، وتجسدت اول ظاهرة من ظواهر الفساد في هذا النظام بانحطاط سوية الدايات الاجتماعية . ونستدل على ذلك من قول احدهم وهو يخاطب احد الدبلوماسيين الفرنسيين بقوله « .. انا رئيس عصابة من السراق ، ومهنتي هي ان

أخذ وليس ان اعطي . . »(١٠) . فهدف هؤلاء الدايات كان الاستبداد بالسلطة وجمع الاموال ، وليس الرقي والازدهار الحضاري ، لان غالبيتهم من بيئات منحطة في الاناضول ، توصلوا لرتبة الداي بعد ان مارسوا عدة اعمال ووظائف بسيطة في مدينة الجزائر ، فمنهم من كان اسكافيا او حمالا او حارسا او كناسا(١١) . ووصلوا الى السلطة في ظروف غير طبيعية ، منها على سبيل المثال دعم اغنياء اليهود (بوشناخ) . أما الظاهرة الثانية من ظواهر الفساد فهي الاسراف والتبذير والرشوة ، وهذه الصفة الذميمة جعلت الكثير من الدايات لا يتورعون من بيع ذممهم لليهود والاجانب من الاوربيين مقابل الكماليات البسيطة(١٢) . وبذلك يكون الدايات قد تركوا مقاليد أمور الدولة وشؤونها الى مجموعة من الضباط والموظفين واليهود والاجانب ينهبون خيرات البلاد وثرواتها(١٣) ، فتحولت مهمة حكومتهم الى ملء الخزينة العامة بالاموال لتنتقل فيما بعد الى حاشيتهم لتدعيم النظام والمحافظة عليه ، حتى ان النيابة على تعبير بن شنهو « اصبحت في عهد الدايات عبارة عن قطعة من الحلوى كل موظف يأخذ منها حسب ما يخوله منصبه . . »(١٤) .

ولم يبذل الدايات جهدا في علاقتهم مع سكان النيابة نحو الاحسن والامثل ، فلم تكن تربطهم بالبلد أية أواصر أو روابط من شأنها أن تجعلهم حريصين على سمعة النيابة سوى الجانب المالي ، وكان هذا احد اسباب الثورة .

السياسة العربية :

اخذت حكومة الاتراك ، في اواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، تفقد بالتدريج صفتها البحرية التي اتسمت بها منذ تاريخ تأسيسها ، ليزداد ارتباطها واهتمامها بالارض ، أي بالموارد الداخلية . لكن هذا الاهتمام بالشؤون الداخلية للنيابة كانت نتائجه وخيمة على السكان وعلى مستقبل الاتراك في الجزائر ، لان هذا التحول السريع من سياسة الى سياسة لم يعتمد على خطة مدروسة مسبقا تمتص الردود الشعبية عليها ، باعتباره يمس اوسع طبقة اجتماعية هي طبقة الفلاحين التي كانت تشكل الاغلبية والعمود الفقري الذي يعتمد عليه اقتصاد النيابة . هذا بالاضافة الى ان دور الاتراك في تطوير البنية الاقتصادية لنيابة الجزائر كان سلبيا ، فلم يسهموا اسهاما محسوسا وجديا في انفاق رؤوس الاموال التي جمعوها من القرصنة في تحسين احوال البلاد ورفع مستواها الاقتصادي، يكون كفيلا بتخفيف الاثار السلبية التي تركها هذا التحول ، لهذا بقيت الجزائر تحتل مرتبة ثانوية اذا ما قورنت بتونس او طرابلس او بعض البلاد المشرقية(١٥) .

ورغم تنوع الثروات والموارد الطبيعية ، فان الحياة الاقتصادية في بداية القرن التاسع عشر كانت متدهورة وتعاني من عدة مشاكل وصعوبات عاقت تطورها

وازدهارها . ويأتي على رأس هذه العوائق طبيعة النظام التركي ذي الاصول الاقطاعية ، فضلا عن الاساليب العتيقة المستخدمة في الميدان الزراعي والصناعي والتجاري ، واحتكار الحكومة لهذه الانشطة(١٦) ، والحيلولة دون نشوء بورجوازية وطنية تقوم بتنشيط الحياة الاقتصادية والاستعاضة عنها بالتجار الاجانب ، بخاصة من اليهود والفرنسيين ، الذين اصبحوا يتصرفون في النيابة وكأنها مستعمرة(١٧) . وعامل اخر كان وراء تدهور الحياة الاقتصادية وهو موجات الاوبئة والامراض والمجاعات التي كانت تجتاح البلاد في فترات متلاحقة تكاد تكون غير منقطعة .

امام هذه الاوضاع الاقتصادية المتدهورة راح الدايات يطالبون البايات بموادر اقتصادية بديلة لتغطية النقص المفاجىء الذي سببه ضعف القرصنة ، فما كان من هؤلاء الا مضاعفة استغلالهم لمناطقهم بدقة وبمضاعفة الحملات العسكرية على القبائل لارغامها على دفع الضرائب لادارة حكومة الدايات(١٨) . ويجمع المؤرخون ، ان التوسع الذي شهدته النيابة ، في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، في تنويع الضرائب دون الاعتماد على مصادر اقتصادية اخرى ، ادى الى جعل الحكومة التركية اداة استهلاك تعيش على مايدره عليها الجهاز الضريبي ، دون السعي الى تنمية مرافق الدولة الاقتصادية ، فكل ما كانت تنتجه النيابة من موارد يذهب بشكل مرتبات وجرايات للمؤسسة العسكرية وموظفيها . وكانت عملية جباية هذه الضرائب تتم تحت الضغط والارهاب في اغلب الاحيان ، مما دفع الحكام الاتراك الى تجهيز الحملات العسكرية(١٩) لتأديب الثوار وارغامهم على الدفع لدى اية بادرة مقاومة او تهرب من دفع المبالغ المالية المستحقة عليهم ، مما زاد في الهوة بين الطرفين .

واحست الفئات الاجتماعية المحرومة ، وعلى راسها الفلاحون ، أن كل مجهودتها موجهة الى خدمة الغير ، وتوفير الرفاهية للطبقة التركية دون التمتع باية حقوق مقابل ذلك ، فرفضت هذه الاجراءات الجديدة واعتبرتها تعسفا وجورا عليهاتستوجب محاربتـه .

لذلك يمكن اعتبار هذه الثورة ، كبقية الثورات ، رد فعل من جانب السكانعلى التصرفات الجائرة الناتجة عن الاجراءات المالية التي مارسها البايات والدايات .وكان لازدياد الضغط المالي على الارياف اثار وخيمة ، اذ ارهق كاهل الفلاحين بكثرة الضرائب ، وقد عبرت لنا شهادات المؤرخين المعاصرين والاشعار الشعبيةعنمدى ماكان يقاسيه ويعانيه الفرد الجزائري من جراء ثقل الضرائب ، وحرق المحاصيل الزراعية ونهب الاملاك ومصادرة قطعان الماشية(٢٠) .

وفي المنطقة الغربية ، وهي مركز رئيس للطرق الصوفية وبخاصة ذات الاصول المغربية ، كما كانت منطلقا لاخطر الثورات ضد الاتراك في الربع الاول من القرن التاسع

عشر (الدرقاويةوالتيجانية) ، كانالوجودالتركي قويا ممثلا بالحامية التركيةوالقولوغلى وقبائل المخزن ، وبالرغم من اساليب الاتراك التعسفية كان السكان يتحملون ذلك على مضض بسبب وجود الاسبان في وهران . ولكن تحرير وهران ١٧٩٢ ازال المبرر الرئيسي لهذا الوجود التركي الثقيل ولتحمل السكان لاذاه .

الدور المغربي :

لما عجز الاتراك عن قمع الثورة بعد أن لجؤوا الى جمع الوسائل لاخمادها ، خاطبوا ملك المغرب « مولاي سليمان » ، ورجوه ارسال شيخ الطريقة « مولاي العربي الدرقاوي » لتهدئة الثوار(٢١) . واعتمادا على الرسائل التي تبودلت بين شيخ الطريقة والسلطان المغربي ، نستنتج ذلك الدور الرئيسي الذي اضلع به هذا الامير في اثارة هذه الثورة ضد دايات الجزائر . ويظهر من هذه الرسائل ان السلطان كان على استعداد كامل للتدخل عسكريا في المنطقة الغربية من النيابة ، وذلك لتحقيق الاهداف التقليدية لسلاطين المغرب .

وحسب الرسائل نفسها ، يبدو ان الذي عاق السلطان عن تحقيق هذا الهدف كان الظروف الطبيعية وانه كان راضيا عن الخطوات التي قام بها الشيخ مولاي العربي الدرقاوي ، وعلى رأسها البيعة التي كتبها سكان مدينة تلمسان للسلطان المغربي(٢٣).

ورغم ما أوردناه عن تورط السلطان مولاي سليمان في هذه الثورة ، ينفي المؤرخون المغاربة تورط مولاي سليمان في احداث الثورة ومجرياتها ، ويجمعون على رأي واحد وهو ان السلطان ، لماقدم عليه الوفد الجزائري ليقدم له البيعة ، اقتصر دوره فقط على تحقيق المصالحة بين الرعية والاتراك ، وبذلك يكون قد سلك مسلكا هو ارفق بالجميع ، الاتراك والاهالي .

ولكن الاحداث التاريخية تؤيد ما ذهبنا اليه ، وهو تورطه في هذه الثورة وذلك ردا على تدخل الاتراك في احداث ثورتي « محمد بن عبد السلام » و « زينان في الريف »(٢٥) . الا ان هذا الموقف التايدي للثورة لم يستمر طويلا ، اذ ادرك السلطان انميزان القوى بدأ يتحول لصالح الاتراك بعد ان استطاعوا كسر الطوق الذي فرضه ابن الشريف على مدينة وهران . فأمام المنعطف الجديد الذي وصلت اليه الثورة ، والذي لم يكن واردافي حسابات السلطان، وبسبب ضعف المغرب الذي انهكته الحروب الاهلية في القرن الثامن عشر ، لم يجد السلطان مخرجا الا انكار رسوله الذي ارسله الى الثوار ، بل وسارع في ارسال رسول جديد الى مدينة تلمسان ، لا عادة الاوضاع الى ما كانت عليه سابقا ، وشجب تصرفات شيخه ومقدمه « ابن الشريف »(٢٦) .

كان سلاطين المغرب الاقصى حجر عثرة امام التوسع التركي في الناحية الغربية من النيابية ، وظل هذا دأبهم حتى زوال حكم الاتراك في الجزائر . وعلى الرغم منذلك حاول الاتراك عدة مرات خرق هذا السد المنيع ، الا انهم أخفقوا . وقد رفض المغاربة ، عند دخول الاتراك الى منطقة الشمال الافريقي ، ادعاءهم السيادة على العالم العربي والاسلامي . وقد بدا للمغرب في عهد بعض سلاطينه العظام ، طموح في ضم الجزائر وتونس وتحقيق امبراطورية الموحدين ، وهذا ما يشير اليه المؤرخ المغربي في كتابه (النفحة المسكية) بقوله : « والعثمانيون انما عملوا الامارة وقادوا الامر في الحقيقة نيابة وامانة يؤدونها الى من هو احق بها وأهلها ، وهم موالينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب . »(٢٧) .

ولتحقيق هذا الطموح السياسي ، اعتمدت سياسة المغرب داخل الاراضي على الطرق الصوفية . وكانت مراكزها تشكل خيطا يمتد من فاس الى تلمسان وتونس، مرورا بالواحات ، وكانت زوايا هذه الطرق على اتصال فيما بينها ، تنقل الاخبار الى داخل النيابة ، واراء الشيوخ من فاس والرباط . وقد استغل المغاربة الهجمات الاوربية على النيابة ، والصراعات السياسية داخل النظام التركي ، لبسط سيادتهم على اجزاء منها ، لكن عدم قدرتهم على المواجهة العسكرية مع الجيش التركي جعلتهم لا يتمسكون طويلا بهذه المناطق .

لهذا اعتمد سلاطين المغرب سياسة الاقلال من هيبة النيابة والبحث عن حلفاء لابادتها ، ولما كان المغرب قد لعب دورا اساسيا وفعالا في ثورة الطريقة الدرقاية ، بتشجيع الثائر ابن الشريف وكل المناهضين للاتراك من الجزائريين ، واعانتهم بالمال والسلاح ، فسنحاول ان نلخص هذا الدور بايجاز .

التعريف بابن الشريف : تزعم هذه الثورة في الناحية الغربية محمد بن عبد القادر بن الشريف الفليتي ، ويعود اصله الى قبيلة بربرية هي كسانة المقيمة على ضفاف وادي العبد في ضواحي سهل « غريس » القريب من مدينة معسكر . تعلم مبادىء اللغة العربية في مسقط راسه في قرية اولاد بالليل ، ثم التحق بزاوية القيطنة التابعة للطريقة القادرية ، التي كانت تحت أمرة الشيخ محي الدين ، والد الامير عبد القادر الجزائري ، حيث نبث فيها مدة من الزمن ، وبعدها سافر الى زاوية بوبريح في المغرب الاقصى،وهناك اتصل بمولاي عبد الله محمد الدرقاوي ، الذي لقنهمبادىء الطريقة الدرقاوية واجازه فعاد الى قريته وفيها اسس زاوية لتلقين الناس اوراد الطريقة . ويظهر ان هذه المهمة قد اسندت اليه من طرف شيخه ، الذي عينه مقدما للطريقة في الناحية الغربية من النيابة(٢٧) .

لقي ابن الشريف التأييد الواسع من جميع القبائل الصحراوية التي صارت ،كما يقول احدهم « .. كلها شيعته تهدي اليه الهدايا وتعطي العطايا »(٢٨) . واثناء لقاءاته

مع مختلف القبائل كانت تشكو اليه ما يصيبها من ارهاق بسبب ما يفرضه عليها الاتراك من مغارم وضرائب ، فكان ابن الشريف « يمنيهم بالفرج القريب ». ويقال ، حسب الروايات المعاصرة التي رجعنا اليها ، ان ابن الشريف كان قد طرح فكرة اعلان الثورة على الاتراك في اول لقاء له مع شيخه مولاي العربي الدرقاوي الذي استحسنها. ويظهر ان الشيخ كان على علم بالمضايقات التي كان يمارسها رجالات الحكومة التركية على تحركات افراد الطريقة الدرقاوية ، وعلى راسهم مقدمها ابن الشريف ، الذي فر الى الجنوب بعيدا عن متابعات البايات وجواسيسهم . ومن هناك انتقل الى فاس حيث لقي شيخه في قرية بني زروال ، فاشتكى له مالحق به وبمريديهمن جور الاتراك. وقد نقل الينا الزياني الحوار الذي دار بين الطرفين « ياسيدي ان بوطننا قوما يقال لهم الترك لا شيء لهم من دعائم الاسلام ، ويظلمون الناس ولا يعبؤون بالعلماء والاولياء، نسأل منك ان يكون هلاكهم على يدك لتستريح منهم العباد وتطهر منهم البلاد ، فقال له شيخه عليك بجهادهم وقتالهم ، وان الله ينصرك عليهم بكمالهم . . »(٢٩) .

مراحل الثورة :

استغرقت عمليةالاستعداد وجمع اكبر عدد ممكن من الانصار مدة خمس سنوات (١٨٠٠ ـ ١٨٠٥) ، واستغل ابن الشريف فرصة هزيمة احدى الحملات التركية امام قبائل الانجاد ليعلن الثورة . وهذه الحادثة التاريخيةالتي يجمع المؤرخونعلى اعتبارها فتيل الثورة كانت اول هزيمة عسكرية تهزم فيها قبائل المخزن ، حلفاء الاتراك منذ زمن بعيد(٣٠) .

كانت اولى مراحل للثورة الاذن الذي اعطاه ابن الشريف لاتباعه بنهب اموال وممتلكات هذه القبائل وملاحقتهم اينما كانوا . وقد وصلت انباء انتصاراته الى وهران عاصمة البايليك ، فقام الباي مصطفى العجمي(١٨٠٥ / ١٨٠٩) ، بتجهيز جيش كبير واتجه به الى ابن الشريف ، الذي كان قد عسكر بجيشه على ضفاف وادي مينة(٣١) ، والتقى الطرفان بقرية فرطاسة ، وكان ذلك ربيع الاول ١٢١٩/١٨٠٥ ، حيث دارت اشرس معركة بين الجيش الانكشاري ، تعاضده قبائل المخزن ، والثوار. ودارت الدائرة على الجيش التركي وفر الباي بعد ان تفرق جيشه حتى قال احد المؤرخين المعاصرين يصف هذه المعركة ونتيجتها : « فأمسى الباي ومخزنه في نكد وأصبح الدرقاوي واتباعه في رغد . . »(٣٢) .

وتتبع جيش الثوار الفلول المنسحبة من الجيش التركي حتى اسوار مدينة معسكر ، ولم ينتظر ابن الشريف وصول النجدات من مدينة وهران الى الجيش التركي الذي تحصن بالمدينة ، فقرر دخولها بالقوة ، ولم تصمد المدينة كثيرا فاستسلمت له.

جعل ابن الشريف مدينة معسكر مقرا لاقامته هو واسرته وقاعدةحربية لجيشه، ومنها راح يوجه نداءاته الى كل القبائل لتعلن الجهاد والحرب على الاتراك وادواتهم من قبائل المخزن ويهدد كل رافض لدعوته بالويل والثبور . كذلك دعا القبائل الى مبايعته قائلا لهم في احدى هذه النداءات : « انا نزعت عنكم ما كنتم فيه من اداء الجزية، التي هي حرام على المسلم وقطعنا دابر الاتراك واتباعهم ، فالواجب مبايعتنا والجهاد معنا . . » (٣٣) . وقد وجدت نداءاته هذه تجاوبا كبيرا من الرعية في الناحية الغربية والوسطى ، ولم يقتصر انضمام القبائل على الخاضعين لسيطرة الاتراك ، بل تعدى ذلك الى القبائل المخزنية حليفة الاتراك مثل قبيلة الحشم ، والزمالة والدواير (٣٤) .

وبسرعة فائقة امتد لهيب الثورة ليشمل كل القبائل الجزائرية الواقعة مابين مدينة مليانة (الوسط الجزائري) ووجدة على الحدود المغربية . وامام هذا المد السريع بدأت الحاميات التركية تندحر وانسحب اغلبها الى المدن الساحلية لتحتمي بأسوارها من الغضب الشعبي ، وانقطعت كل الاتصالات مع مدينة الجزائر ، ولم يبق الا البحر المنفذ الوحيد الذي يتم عن طريقه تموين مدينة وهران ، التي سارع ابن الشريف الى ضرب الحصار عليها(٣٥) .

يقول صاحب التحفة : « . . ان باشا الجزائر حاول تجهيز جيش بقيادة مستشاره علي اغا لنجدة المدينة المحاصرة ، لكن القبائل الثائرة اعترضت طريقه والحقت به خسائر فادحة ومنعوه من المرور في بلادهم وكاد جيشه ان يهلك عن اخره بعد ان قطعت عليه القبائل ورود الماء لولا استنجاده باحد المرابطين في مدينة البطاف(٣٦) . كذلك سارت الامور في غير صالح الاتراك بعد انسحاب الحامية التركية من مدينة تلمسان ومحاصرة الكراغلة في قلعة المدينة ، مما جعل منها مدينة شبه مستقلة .

اسباب فشل الثورة :

تسببت عدة عوامل في فشل ابن الشريف وجيشه في اقتحام مدينة وهران التي حاصرها مدة ثمانية اشهر مع ان الظروف مواتية ، وخاصة بعد ان تم القضاء على اغلب الحاميات التركية وتشتت جيش الباي في معركة فرطاسة . من هذه العوامل قوة اسوار المدينة وعدم قدرة محاصريها من ايجاد منفذ للتسلل الى داخلها ، لقلة الوسائل وضعف العتاد ، ثم عدم تجاوب سكان المدينة مع دعوة ابن الشريف القيام ضد الاتراك رغم ان القوة التركية المدافعة عن المدينة كانت قليلة العدد(٣٧) . وهذا الاحجام الذي بدر من سكان المدينة وعدم تجاوبهم مع الثوار يرجع الى الاعمال التخريبية التي رافقت هذا الحصار والتي كان يرتبها جيش « ابن الشريف » تجاه

قبائل المخزن واملاكهم ، وهذا ما قضى على التجاوب بين الثوار والطبقة الحضرية المقيمة في المدن وضواحيها .

وقد استغل الاتراك ، هذا الشرخ بين سكان الارياف وسكان المدن أحسن استغلال بتأليب هؤلاء على اولئك . ولهذه الاعتبارات اخذ الاتراك شيئا فشيئا يسيطرون على الوضع لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على المراكز الثائرة الا في المدن الساحلية(٣٨) .

حدث هذا التحول لصالح الاتراك بعد ان عين داي الجزائر الباي محمد المقلش الذي رجح كفة الميزان لصالح الحكومة ، اذ رافقت هذا الباي قوة من الانكشارية قدرت بـ ١١٠٠ رجل (٣٩)، وبما ان الطريق البري كان مقطوعا فان هذه القوة من الجنود اتخذت البحر لدخول المدينة المعاصرة ، وكان اول اجراء قام به الباي الجديد هو فتح ابواب المدينة واعادة الحياة الطبيعية الى مجراها ، ثم التصدي للثوار .

ويظهر ان الملل والسأم قد تمكنا من معنويات الثوار فاثروا الانسحاب الى الداخل ، لتبدأ سلسلة طويلة من المعارك كلفت الجانب التركي الكثير وادخلت المنطقة في مرحلة من الفوضى السياسية والاقتصادية لم تنته الا بعد سقوط مدينة وهران بيد الفرنسيين . فبعد ان تحقق الاتراك بانه ليس هناك ادنى شك في مناصرة سلطان المغرب للثورة ، عمد هذا الباي الى الوسائل الدبلوماسية واستعمال الدهاء السياسي لاتقاء شر الدولة المغربية ، والى اشد أنواع القمع والارهاب ضد الثوار(٤٠) ، فعمل على التقرب الى القبائل ذات الصلة بالثورة والتي كانت تتمتع بنفوذ في المنطقة بمصاهرة قبيلة الحشم ، وكانت من الد اعداء الاتراك ، والدافع الذي دفعها الى الارتماء في احضان الاتراك والاتفاق معهم هو التخوف من القاعدة الشعبية المؤيدة للطريقة الدرقاوية ، التي بدأت تلقى تجاوبا شعبيا واسعا ،وخاصة اذ عرفنا ان هذه القبيلة تتزعمها الطريقة القادرية بقيادة الشيخ محي الدين والد الامير عبد القادر، والتي لا ترضى بمنافسة طريقة اخرى لها على القبائل . ويشير صاحب « التحفة » خلال تطرقه الى ابن الشريف الى الاختلاف الذي حدث بين ابن الشريف والشيخ محي الدين(١٤) .

لكن المصادر المحلية لا تشير الى ظهور صراع بين الطريقتين لاكتساب الانصار والمؤيدين ، الا انه يظهر ان شيخ الطريقة القادرية لم ينس الحادثة واراد الانتقام من ابن الشريف ، فأوعز الى قبيلته بالوقوف الى جانب الاتراك . والمعروف كذلك ان الطريقة القادرية كانت على علاقة طيبة بالاتراك منذ دخول هؤلاء الى الجزائر ، والذين استخدموها كمنافس للطريقة الشاذلية الموالية للمغرب . وبهذا تكون الدسيسة التركية قد لعبت دورها في زرع التفرقة بين الطرفين .

وكانت النتيجة ان الثوار بدأ يتراجعون عن المواقع التي كانوا قد احتلوها سابقا. وذلك بعد سلسلة كثيرة من المعارك والاصطدامات ، ومن اهم هذه المعارك معركة اولاد زائر التي خسر فيها الثوار ، حسب المصادر المحلية ، « ستمائة راس ، بعثها الباي كلها الى داي الجزائر »(٤٢) . وفي اثناء هذه الاحداث انتقل ابن الشريف الى قبيلة الاحرار في الجنوب ،الا انه لم يجد المساعدة من جانب هذه القبائل ، فانتقل الى مدينة الاغواط حيث دخل في مفاوضات مع رجال الطريقة التيجانية للقيام ثانية على الاتراك ، لكنه فشل في مسعاه . وما زالت الاسباب التي منعت رجال هذه الطريقة، من تلبية طلب ابن الشريف توحيد الجهود بينهما لاعلان الثورة غير واضحة ، رغم الضغوط التي كانت مسلطة على افراد الطريقة التيجانية من طرف رجال البايليك، وعلى راسها المغارم السنوية التي كانوا ملزمين بدفعها .

فكان ان انتقل ابن الشريف الى قبيلة بني يزناسن على الحدود المغربية ، ومن هناك توارى عن مسرح الاحداث السياسية .

وقد اختلفت المصادر المحلية والاجنبية حول تحديد تاريخ ومكان وفاة ابن الشريف ويتفق صاحب « أنيس الغريب والمسافر » وصاحب كتاب «دليل الحيران »، على ان المقام استقر به عند قبائل بني يزناسن ،وهناك«ترك الفضول لعدم طاقته»(٤٣) اما المؤرخ الفرنسي Degrammont فيؤكد من جانبه ان ابن الشريف لقي مصرعه اثناء محاولته استعادة مدينة معسكر للمرة الثانية سنة ١٨٠٦(٤٤) . اما السيدان Estharzy, Deneuve فيذكران ان ابن الشريف قد مات بوباء الطاعون في مدينة مسيردة ، لكن دون ذكر تاريخ الوفاة(٤٥) . وهذه الاختلافات في وجهات النظر بين هؤلاء المؤرخين مرجعها الغموض الذي احاط بالثورة الدرقاوية في تلك الفترة. والوحيد من المؤرخين الذي عارض فكرة موت ابن الشريف سنة ١٨٠٩ ، هو Noel ، الذي ذكر انه ظهر مرة ثانية سنة ١٨١٦ ، واثار القبائل الصحراوية ومن بينهم قبائل الاحرار واتجه بهم لمقاتلة الاتراك ، لكنه هزم وانسحب نهائيا الى واحة فقيق(٤٦) . وهذا ما ذهبت اليه احدى الوثائق التركية التي تبين ان الثورة استمرت حتى سنة ١٨١٦ ، فهي تشير الى الخسائر التي تكبدتها العساكر التركية وتلح على الاستانة للاسراع بارسال النجدات العسكرية لمواجهة هذا الثائر(٤٧) .

في النهاية ، لابد لنا من التساؤل ؟ هل كانت ثورة الطريقة الدرقاوية في الناحية الغربية من النيابة مجرد محاولة سياسية قام بها سلاطين المغرب الاقصى ، العدو التقليدي لاتراك الجزائر ، بواسطة اعوانهم ، لاختبار مدى قوة النظام التركي المجاور لهم بعد ان فشلوا في مواجهته عسكريا ، فحاولوا ان يفجروه من الداخل باثارة الفتن والاضطرابات عن طريق اغراء ابن الشريف بواسطة شيخه مولاي العربي الدرقاوي

للقيام بالثورة ، وبالتالي ارغام الاتراك على الاعتراف بالحقوق التاريخية للمغرب في الجهة الغربية من النيابة..؟

لا ننفي ان الثورة استفادت من التأييد المعنوي والروحي من جهة المغرب ، لكن المد السريع للثورة الذي وصلت تأثيراته حتى ضواحي دار السلطان ، مقر الحكومة المركزية ، لايمكن ان يفسر فقط بهذا السبب ، بل بذلك الحقد والعداء الذي خلقته تناقضات النظام التركي في نفوس السكان تجاه الطبقة التركية المتسلطة التي تسومهم انواع الاضطهادات والقهر والاستغلال ، بفرض الضرائب وتجريد الحملات العسكرية على الريف الجزائري . لهذا وجد السكان في شخصية ابن الشريف ، وامثاله من الذين تزعموا ثورات القرن التاسع عشر ، متنفسا لهم ، يشكون اليهم مالحقهم من تعسف واستبداد هذه الطبقة وأدواتها الاخرى التي اغفلت شؤونهم الضرورية واهتمت بالركض وراء السلطة وجمع الاموال وتسببت في ضياع موارد واملاك السكان ، وهذا ما دفعهم الى الثورة ضد الاتراك .

ورغم ان هذه الثورات ، رفعت في اغلب الاحيان شعارات دينية وتسترت وراء مطالب قبلية ، الا انها في حقيقة امرها كانت تعبيرا صادقا عن سخط الرعية وعدم رضاها على الاوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في عهد الحكام الاتراك.

* * *

حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته ((الثورات الشعبية في الجزائر من اواخر القرن الثامن عشر حتى الاحتلال الفرنسي))، باشراف الدكتور محمد خير فارس .

مصادر ومراجع البحث :

(١) Ernest,M.,**L'Afriqne Septentrionale berbérie depuis les temps les plus recules jusqu'a la conquête Française,** t.I, Leroux, Paris 1891, P. 230.

(٢) Boyer, P., **Contribution à l'étude de la politique réligieuse des Turcs dans la régence d'Alger,** XIV - XVI, p. 28

(٣) ويليام شالر : مذكرات ويليام شالر ـ قنصل امريكا ١٨١٦ ـ ١٨٤١ ، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٨٢ ، ص(٤٦ـ٤٧).

(٤) Laugier de Tassy, **Histoire d'Alger et du bonbardement de cette ville** en 1816, Pittan, Paris 1839 .

(٥) مغنية الازرق ، نشوء الطبقات في الجزائر ، ترجمة سمير كرم ، بيروت ١٩٨٠، ص ٣٦

(٦) عزت عبد الكريم ، مقدمة من كتاب حوادث دمشق اليومية للبديري الحلاق ، لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٦ ص٢٧.

(٧) الزياني محمد بن يوسف ، دليل الحران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران، وتحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي ، ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٧٩ ، ص ٧٣.

(٨) من رسالة ارسلها محمد بن رايس العين الاندلسي الى الاستانة اوردها الشيخ البوعبدلي في مقدمة للكتاب السابق ، ص ٥٩ .

(٩) التميمي عبد الجليل ، العرب والاتراك في اطار الدولة العثمانية ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد ١٧ـ١٨ ، ١٩٨٠ ، ص ٩١ .

(١٠) Degrammont, H-D.,**Histoire d'Alger sous la domination Turque,** Lerou, 1887, P. 309.

(١١) Benachanhou, A., **L'Etat Algérien en 1830,** S.N.E.D., Alger, (S-). p. 29.

(١٢) Commerce de barbarie, A.A.Marseille (S;I) , Article n, 1880, Objets commerce de barbarie presents au puissans du royaume d'Alger. (S.O), P. 29.

(١٣) Vatin, J. C. , « l'Algerie en 1830 » , **Revue Algérienne des sciences Juridiques , economiques et politiques,** vol. VII, n.14, 1970, p. 1943.

(١٤) Benachanhou, op. cit ., p. 29.

(١٥) Lespes, R.,**Alger (Etude de géographie et d'histoire Urbaines),** Paris, Alcan, Alger , p, 146.

(١٦) سلفاتور بونسو ، العلاقات بين الجزائر وايطاليا خلال العهد التركي ، ترجمة ابو القاسم بن القومي ، مجلة الاصالة ، العدد ٤٨ ، ١٩٧٨ ،ص١١٨.

(١٧) Emérit, M ., la situation economique de la régence d'Alger 1830, in **Information historique,** 1952, t. II, p. 169.

(١٨) Roy, J.E., **Histoire de L'Algerie depuis les temps les plus reculés jusqu'a nos joure,** A.Maine Tour, 1864, P. 142.

(١٩) حول هذه الحملات انظر :
Federman et Aucapitaine , « Notice sur l'histoire de l'Administration du beylick de Titterie » **in Revue Africaine,** 1867, t. IX, pp. 291-293.

(٢٠) Emerit, M., « Les Aventures de thednat , » in**R.A.** 1948, p. 40.

(٢١) ابو القاسم الزياني ، الترجمان المغرب في دول المشرق والمغرب ، نشر جزء منه هنري‌هوادس ، المغرب ـ باريس ١٨٨٦ ، ص ١٠١ .

(٢٢) قال في هذه الرسالة ، وقررت ان لا اباشر فيها الا بعد فصل الشتاء لان الطرق في هذا الموسم تكون صعبة والاودية مرتفعة المستوى .. وفي الربيع القادم سوف اتي انا بنفسي باذن اللهمرفقا بعساكري الظافرة لمتابعة مشاريعي باذن الله ، وعليك باخبار سيدى عبد القادر .. بالالتحاق بي حينما يسمع بوصلي الى وجدة .
Dragué, G., **Esquise d'histoire religieuse de Maroc,** Cahier de l'Afrique et de l'Asie, Peyonnet, Paris, p. 235.

(٢٣) يقول السلاوي عن هذه البيعة « ان سكان مدينة تلمسان فتحوا باب المدينة الى ابن الشريف وطائفته واخذ البيعة بها للسلطان ... وخطب به على منابرها ، ووجه وفده وهديته الى السلطان مع شيخه ابي عبد الله المذكور . الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٦ ، ص ١١٠ .

(٢٤) رد عليه السلطان « .. وصلتني رسالتك واسال الله ان يجازيك على افعالك الحسنة تجاه المسلمين الذين لا نرجوا لهم الا السلام والطمأنينة .. وعندما تاتي لزيارتي ، ساطلب رايك فيما يجب اتخاذه وعمله في البلاد التي انت فيها ..» انظر الناصري ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٢٥) الناصري ، ص ١٠٩ ـ ١١٠.
Brosselard, Ch.,**Les khouans de la constitution des ordres religieuses,** Alger 1895, P. 227.

(٢٦) الناصري ـ الاستقصا . Drague, op. cit., P.254.

(٢٧) الناصري ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٢٨) الزياني محمد بن يوسف ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٢٩) الزياني ابو القاسم ، المصدر السابق ٢٠٩ .

(٣٠) حسين خوجة ، درء الاعيان في اخبار مدينة وهران ، ترجمه ونشره السيد روسو في جريدة لومونتور الجيريان ١٨٥٥ ، رقم ١٣٩٥ ـ ١٣٩٨ .

(٣١) وادي مينا : واد ينبع من اقليم النجود وطوله ١٩٥ كم ، يمر بمدينة غليزان ويصب بشمالها في نهر الشلف . وله فرع هووادي العبد يسير نحو الشمال ويلتقي بوادي مينا عند قرية فرطاسة.

(٣٢) مسلم بن عبد القادر ، انيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابح بونار ، ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٧٤ ، ص ٧٣ .

(٣٣) حسين خوجة ، المصدر السابق . ص ١٣٩٥ . الزياني محمد بن يوسف ، المصدر السابق ص٢٠٩ مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ص٧٤.

(٣٤) Delpeche , A., « Résumé historique sur le soulévement des derkaoua la province d'Oran, » in R . A . 1837 , p . 44 . Caporal' X., **Oran Capitale de beylick de l,ouest** 1792-1831, Mémoires, pp, 50-51.

(٣٥) محمد بن الامير عبد القادر ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والامير عبد القادر ، شرح وتعليق ممدوح حقي ، ط.٣ ، دار اليقظة العربية ، بيروت ١٩٦٤، ص ١١٥.

(٣٦) محمد بن عبد القادر ، نفس المصدر ، ص ١١٥.

(٣٧) استمر حصار مدينة وهران من طرف ابن الشريف حوالي ثمانية اشهر ، انظر :

(٣٨) جوليان ، شارل اندري ، « التدخل المغربي غداة احتلال العاصمة الجزائرية سنة ١٨٣٠ »، ديسمبر ١٩٦٤ ، مجلة البحث العلمي ، الرباط ، ص ٢٦١.

De Jardin, V., « La Commune de dublineau les hachems sous le gouvernement Turcs , » in **Bulletin, S.G.O.,** 1950, p. 45.

(٣٩) Rotalier, Ch., **Histoire d'Alger et la piraterie des Turcs dans le Méditerranée,** t. II, Paris 1841, p. 591.

(٤٠) عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٩ص٢٩١.

(٤١) اشار الى هذا الخلاف صاحب التحفة اذ قال : « وفي بعض الايام تكلم بحضرته بما يوجب تاديبه شرعا ، فأدبه سيدى الجد بالسياط ..» ص ٢١٥ ، محمد بن الامير عبد القادر ،المصدرالسابق.

(٤٢) مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ، ص ٩١.

(٤٣) مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ٩٨ .
الزياني محمد بن يوسف ، ص٢٢٨.

(٤٤) De grammont, op. cit. P. 364.

(٤٥) Noel, A.H., « Documents, pour servir à l'histoire de hamgan et de la région qu'ils occupent actuellement, » B.S.G.O., 1925, p. 166.

(٤٦) عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق من التاريخ المغربي ١٨١٦ـ١٨٧١ ، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٢ ، الوثيقة الرابعة ، جوان ١٨١٦ ، ص ٢٤٠ .

السياسة التعليمية الفرنسية في منطقة القبايل ١٨٧١-١٩١٤

عبد القادر حلوش

مرشح للماجستير

يتوخى هذا البحث دراسة الدور الاستعماري للمدرسة الفرنسية في منطقة القبايل(١) ، التي كانت حجر الزاوية في السياسة التعليمية الفرنسية . لان اهتمام الجمهوريين (الجمهورية الفرنسية الثالثة) بمنطقة القبايل ، بل وبمناطق جد محددة من هذه الاخيرة ، لم يكن وليد المصادفة بقدر ما هو محاولة لعزل هذه المنطقة عن بقية المناطق الجزائرية ، قصد تثبيت فكرة الاقليمية وتشتيت شمل المجتمع الجزائري . وبدأ الاهتمام الفرنسي بهذه المنطقة مع بداية الاحتلال في ١٨٣٠ لينتهي بظهور ما اسماه الفرنسيون بالاسطورة القبايلية .

١ ـ الاسطورة القبايلية :

بدأالاهتمام الاوروبي بهذه المنطقة منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر في ١٨٣٠ ، وخاصة بعد تنظيم الحملة العسكرية اليها في ١٨٥٤ . وتأخر احتكاك الفرنسيين بالمنطقة ودخولهم اليها نظرا لانشغال الاستعمار الفرنسي في اخضاع مناطق اخرى من البلاد وخاصة صراعه مع الامير عبد القادر(٢) . وكان الاهتمام الفرنسي منصبا على دراسة هذه المنطقة من جميع جوانبها : جنسها ، عاداتها ، تقاليدها وتكوينها الاجتماعي(٣) . . وكان لهذه الفكرة الاستعمارية انصار في الجزائر منذ الاحتلال . غير ان هذه الحركة التي تأسست ما بين ١٨٤٠ و ١٨٥٧ تم تدعيمها وبروزها كسياسة قبايلية ، بل كايديولوجية استعمارية للاحتلال الفرنسي ما بين ١٨٦٠ و ١٨٧٠ لتأخذ شكلا خطيرا منذ ١٨٧١ ، عندما تبناها الجمهوريون . وقد شهدت فترات ١٨٦٠و ١٨٧٠ ميلاد ما اسماه الاوروبيون « بالاسطورةالقبايلية» Mirage ou Mythe kabyle فقد وسع الاوروبيون من سياستهم القبايلية في هذه الفترة بالذات ، وهي الفترة التي

شهدت اهتمام الامبراطورية الثانية ، بسكان المستعمرة من الجزائريين ، وظهور ما أسماه الاوروبيون بسياسة المملكة العربية . هذه السياسة التي عارضها الاوروبيون بشدة كونها تحاول تحسين ظروف الجزائريين ، كاعطائهم حق التعليم او توسيع مجال هذا التعليم ونحوها .. وكان اشد المعارضين لهذه السياسة المهتمة «بالاهالي» indigénophile الدكتور فارنييه(٤) Warnier(٤) ، الذي حاول ان يثير القبايل ضد هذه السياسة الامبراطورية التي ليست في صالحهم وانما تخدم العرب فقط على حد زعمه(٥) . وبذلك حاول هؤلاء خلق التفرقة والنفور بين العرب والقبايل للقضاء على مشروع المملكة العربية (٦). وفي هذا المضمار بدأ الاستعماريون في الكتابة عن هذه المنطقة دون غيرها من مناطق القطر الجزائري لابراز الخاصية القبايلية Particularité kabyle محاولين بذلك الوصول الى غايتهم في ان هذه العناصر القبايلية تنحدر من اصل اوروبي وليس عربيا(٧) .

وحاول بعض الاوروبيين من جانب اخر استغلال بعض نقاط الاختلاف والتباين الموجودة بين الاسر العربية والاسر القبايلية من العادات والتقاليد والانظمة الداخلية التركيز عليها والانطلاق منها لبناء نظرياتهم العنصرية والاستعمارية(٨) . وتبنى اخرون في الاربعينات من القرن الماضي سياسة خطيرة تهدف استغلال الاختلاف (بين العرب والقبايل) وتضخيمه لفصل الاثنين عن بعضهم البعض ، ودمج القبايل بالقضاء على العنصر العربي بعد اضعافه وتشتيته(٩) .

ولم تقف السياسة التعليمية الفرنسية عند هذا الحد ، بل اصبحت سياسة رسمية للجمهوريين . واذا كان مفهوم الادماج والسياسة العامة (الفرنسية) الموجهة للمستعمرة قد اختلف في تطبيقهما في الجزائر كل طرف على حدة، اي اختلاف جمهوريي باريسي وأوربيي المستعمرة من الكولون ، فان السياسة التعليمية في منطقة القبايل لاقت تقريبا نفس الاهتمام والتقارب عند كلا الطرفين ، وذلك عندما أصبح الامر يتعلق بالقضاء على العنصر العربي والانفراد بالعنصر القبايلي في سياستهم التعليمية. وعندما تولى المدنيون الحكم في الجزائر بعد سقوط الامبراطورية في ١٨٧٠ ، اشتد الاهتمام بتطبيق هذه السياسة ، بل ان اول مشروع للجمهوريين في اطار سياستهم التعليمية كان موجها لمنطقة القبايل دون غيرها . وقد حاول هؤلاء من خلال تركيزهم على هذه المنطقة ، ابراز الهوية القبايلية واعتبارها الاساس في الجزائر مع انكار للهوية العربية باعتبارها الدخيلة والغازية . « ان القبايليين هم السكان الحقيقيون للجزائر ، انهم اقرب الينا ، انهم الاكثرية وهم مستقبل هذا البلد »(١٠) . ومن هنا فليس من الغريب او المستبعد ان توجه السياسة التعليمية الفرنسية الى منطقة القبايل وحدها، بل والى مناطق جد محددة من هذه المنطقة نفسها(١١) .

٢ ـ الخطوط العامة للسياسة التعليمية في منطقة القبايل :

ظهرت فكرة تركيز الجهود التعليمية في المناطق المكتظة بالسكان وحـول المدن الكبرى ، أي في المناطق الاكثر ملاءمة لنجاح عملية الغزو الثقافي والهيمنة الاستعمارية. وقد بدأ الاباء البيض نشاطهم كمربين للجزائريين منذ ١٨٧٢[١٢] ، وفي منطقة القبايل على الخصوص ، معتقدين بامكانية ارجاع هؤلاء السكان الى حظيرة الدين المسيحي . واشتدت هذه الحركة لتأخذ الطابع الرسمي منذ ١٨٧٣/١/١٢ عندما اقترح حاكم منطقة فورناسيونال Fort-National على الحاكم العام المدني دوغيدون de Gueydon برنامجا يقضي بفرنسة القبايل « شعب عربناه اكثر مما نفرنسه »[١٣] ، والغاء المدارس العربية الفرنسية نهائيا و« ابطال مفعول الزوايا بجميع الوسائل وجعلها تحت السلطة الفرنسية » ، مقابل خلق مدارس بلدية حكومية فرنسية من منطقة القبايل لاستبعاد تعلم اللغة العربية لهؤلاء السكان . وفي الوقت نفسه سمع الحاكم العـام دوغيـدون للاسقف لافيجيري[١٤] بفتح المدارس الخاصة، بهذه المنطقةمع اعطائه جميع التسهيلات اللازمة ، بالرغم من علمانية الجمهوريين ومدرستهم الاستعمارية . ومنذ سنة ١٨٧٣ الى ١٨٧٥ ، استطاع هذا الاخير (لافيجيري) تاسيس خمسة مراكز لتعليم اطفـال القبايل تعليما نصرانيا ، هذه الفترة التي عرفت اشتداد حركة الارساليات التبشيرية لتنفيذ هذه السياسة في الواقع . ومن جهة اخرى قامت الاخـوات البيض بغـزو المنطقة بنفس الاسلوب بدءا بتربية المراة القبايلية التربية المسيحية[١٥] .

وفي سنة ١٨٨١ كلف احد المتحمسين للسياسة التعليمية في منطقة القبايل ، السيد ماسكارى Masqueray [١٦] بمهمة في منطقةالقبايل للاطلاع على السكانومعرفة موقفهم من التعليم الفرنسي . وعندما اجرى الحوار مع السكان استخلص الموقفعلى الشكل التالي : ٥١ صوتا مع التعليم الفرنسي و ١٦ صوتا ضده . ولكن لم يقبـل هؤلاء بالتعليم الفرنسي الا شريطة تدريس احد الجزائريين اللغـة العربيـة لهم ، لان هاجس الخوف لدى هؤلاء السكان كغيرهم من سكان الجزائر ، كان يـدور حـول مستقبل اللغة العربية ومصيرها في التعليم الفرنسي .

ولنسمع ماذا كان رد فعلهم امام اسئلة ماسكارى : « علموا ابناءنا اللغةالعربية، فكان جواب السائل : نعلمها لهم كلفة اجنبية . » [١٧] . ومن هـذا التصريح تظهر استعمارية السياسة التعليمية الفرنسية من جهة وتمسك الجزائريين بلغتهم العربية من جهة ثانية .

وبعد هذه الزيارة العملية والاطلاعية (لجس النبض) التي قام بها ماسكاري في سنة ١٨٨١ الى منطقة القبايل ، راى جـول فيرى[١٨] ، وعلى ضوء هـذه المعطيات

والنتائج المستخلصة من تقرير صاحب الزيارة ، ان « منطقة القبايل هي اكثر مناطق الجزائر تقبلا لفكرة الادماج ، نظرا لعادات وتقاليد سكانها المختلفة عن العرب »(١٩) .

ولا يمكن فهم فكرة الادماج ، التي كانت يطالب بها البعض للقبايل فقط ، بينما طالب بها البعض الاخر للجزائريين كلهم ، الا في اطار الرؤية الاستعمارية . فجول فيري أراد خلق ١٥ مدرسة مرتبطة مباشرة بالوزارة ، وتساهم هذه الاخيرة بثلاثةارباع التكلفة اذا ما قام المجلس العام للحكومة العامة في الجزائر باخذ الباقي على عاتقه(٢٠) . وامام رفض المجلس لهذا المشروع قرر الوزير ان تتكفل الحكومة وحدها بجميع المصاريف . وللقيام بالتدريس في هذه المدارس كان لزاما اختيار اطار مدرسي ذي خبرة وقدرة عالية في الدفاع عن القضية الفرنسية واكتساب التلاميذ الجزائريين اليها . وهذه الخبرة تكمن اساسا في تعليمهم خلال مدة ستة اشهر اللهجة البربرية(القبايلية) لتسمح لهم بالتوغل داخل المجتمع القبايلي .

اما عن الوسائل التي اتبعتها الادارة الفرنسية لتحقيق سياستها الاستعمارية الجديدة ، فكانت في فتح المجال للوفود الدينية لنشر رسالتها بتأسيسها للمدارس في هذه المنطقة . ومنذ تاريخ ١٨٧٢ بدأت تحل بالمنطقة وفود الاخوان المسيحيين والاباء البيض فاتحة مدارسها الخاصة لنشر المسيحية .واستمر الوضع على هذه الحالة حتى مجيء حكومة شانزي Chanzi التي لم تعارض هذه المدارس ، بل اولتها الدعم والعناية . ولتعليم القبايل كان يشترط القضاء على الوسيط العربي ، أو بمعنى اخر تعليم هؤلاء اللهجة القبايلية او اللغة الفرنسية . ويوضح المقدم ،اداري دائرة تيزي اوزو في رسالة وجهها الى الحاكم العام في ١٨٧٣ ، ذلك ،بقوله : « .. لتعليم هذا الشعب القبايلي : يجب الغاء الوسيط العربي .. لانه كان حتى الان ضارا أكثر منه مفيدا، وبكلمة واحدة يجب ان نكلمه بلغته ، او نعلمه لغتنا .. واقصد اللغة الفرنسية لانني اعتبرها سهلة التطبيق . اما فيما يخص الزوايا فيجب اسقاطها نهائيا وبجميع الوسائل من منطقة القبايل لاستبدالها بمدارس بلدية فرنسية » (٢١) .

ووفقا لهذه الرؤية الاستعمارية تم وضع برنامج عمل يهدف الى انشاء ثماني مدارس ابتدائية عمومية تكون تحت اشراف الحكومة (لم تؤسس الا اربع مدارس اشتهرت بالمدارس الوزارية ecoles ministérielles وذلك لتفادي معارضة البلديات لها . ويقوم بالاشراف على هذه المدارس مدرسون اوروبيون يساعدهم مدرسون جزائريون لتعليم القرآن وذلك لضمان استمراريتها وكسب ثقة التلاميذ واوليائهم اليها .

واقترح اوربان Urbain (٢٢) ــ بعد ان فشلت وسائل الترهيب ــ اللجوء الى وسائل الترغيب، كتقديم الملابس والهدايا والمساعدات المالية احيانا لجلب التلاميذ وذويهم الى المدرسة الفرنسية . واقترح كذلك اقامة المدارس المهنية لاستقبال

المتخرجين حتى يطمئنوا على مستقبلهم وطالب اخرون بان يكون لكل مدرسة فرنسية مدرس جزائري يقوم بتعليم القرآن . ومن وسائل تطبيق هذه السياسة كذلك كان مراعاة طبيعة هذه المدرسة ، فجاءت برامجها الدراسية فرنسية الشكل والمضمون . فهي لا تختلف عن البرامج التعليمية المستعملة في المدارس الابتدائية الفرنسية بفرنسا. ويشترط في المدرس ان يكون اوروبيا وليس جزائريا(٢٣) . بحجة ان المدرس الوطني ما يفتأ ان يتحول الى تدريس اللغة العربية عند انعدام المراقبة . ويرفض لوبورجوا H. le Bourgeois توظيف المدرسين الجزائريين في المدارس العربيــة ــ الفرنسية بمنطقة القبايل لقتل اللغة العربية وتدميرها ، ونشر اللغة الفرنسية بدلها . وفي برامج المدرسة الابتدائية العليا(٢٤) ، التي انشئت في ١٨٨٥ بمنطقة القبايل تحتل اللغة العربية نفس المكانة التي تحتلها اللغة الانجليزية كلغة اجنبية(٢٥) .

غير أن المؤيدين للسياسة التعليمية في منطقة القبايل كانــوا يرون ان القبايــل وحدهم دون العرب كافــون لان يكونوا في خدمــة المستعمرة . وتقسم مبروكي(٢٦) Mabrouki انصار هذا الرأي الى :

١ ــ العسكريون الراغبون في السيطرة والذين يحلمون بدمج الاجناس .
٢ ــ الذين يريدون الوصول الى الادماج عن طريق التعليم .
٣ ــ الذين يريدون خلق الملكية الخاصة لفرض النظام والاستقــرار لشعــب يصعب فهمه .
٤ ــ الذين يرغبون في اقامة قرى مختلطة اوروبية ــ قبايلية .

ويعتقد بعض الاوروبيين الاستعماريين امثال دولت دومسلين D. D'Aumesline على انه يجب محاربة الافكار وغزوها، بل لقد كان ضد أية فكرة او سياسة تنشد في برامجها احترام المجتمع الجزائري . ويقترح لهذا الغرض تمسيح الجزائرين وخاصة سكان القبايــل باعتبارهم احسن عنصر والوحيد القابل للتمسيح والفرنسة في احسن الظروف وباسرع وقت ممكن (٢٧) .

غير ان هذه السياسة التعليمية لم تكن لتسلم من المعارضة الاوروبية ، كونهــا تهدف الى تعليم الجزائريين ورفع مستواهم الثقافي والمادي والاجتماعي . فعند زيارة لوبورجوا لمدرسة بمدينة تيزي اوزو Tizi - Ouzou شاهد ان كل تلامذتها كانــوا من ابناء الكولون (المعمرين) والموظفين الفرنسيين والجزائريين الموالين لفرنسا ، بل ان هذا الرفض جاء من شخصية حكومية ، هو رئيس بلدية تيزي اوزو الــذي كان يحارب وبشدة فكرة تعليم الجزائريين سواء في منطقة القبايل او في غيرها من المناطق بدعوى « انهم جنس منحط ومدعو للزوال » (٢٨) . واعتبرت المعارضة الاوروبية ان

المدارس الوزارية تشكل « قصورا مدرسية » palais scolaires كونها لاتستطيع تغيير حياة الجزائريين وعاداتهم وبالتالي فرنستهم(٢٩) . فالكولون الاوربيون لايمكن ان يقبلوا بهذا الوضع لانهم في الاساس من انصار الابادة للشعوب ، وهم الذين طالبوا باستعمار استيطاني والقضاء على العنصر الجزائري . لكن مثل هذه النظرية لايمكن ان تتحقق نظرا لاختلاف ميزان القوى ، فعدد السكان الاوروبيين قليل جدا اذا ماقورن بعدد الجزائريين . ومن هذا المنطلق كان التفكير والبحث عن اقلية اقل احراجا وازعاجا للاستعمار واكثر فائدة له ، هي الاقلية القبايلية(٣٠) .

والشكل الاكثر تعقيدا في هذه السياسة هي انها لم تستطع توفير الوظائف لهؤلاء (خريجيها) رغم قلة عددهم . ومن هنا بات واضحا ان تقع المواجهة بين هؤلاء المثقفين المنافسين للاوربيين على المناصب في المدن وفي اسواق العمل وبين الاوروبيين انفسهم . وامام موقف الاوروبيين المتصلب والرافض لكل مس وانتقاص لسيادتهم ، كان لابد من ايجاد حل مناسب لهذه الازمة ، واصبحت الهجرة بديلا عن المدرسة(٣١) . فاشتدت بذلك الهجرة نحو فرنسا خاصة من منطقة القبايل (المنطقة جبلية في اغلبها) الاقل حظوظا لايجاد فرص العمل . وقد تكون لهذه السياسة حدود ابعد ، فهي بهذه الطريقة تستطيع غزو منطقة القبايل بايد قبايلية . وان عودة المهاجرين الى الجزائر له اكثر من معنى ، فهم ان لم يتجنسوا بالجنسية الفرنسية ، فهذا لا يعني انهم حصلوا على جميع حقوق المواطنة الفرنسية وواجباتها(٣٢) .

امام هذا العرض للسياسة التعليمية في منطقة القبايل ، ماذا كانت اهدافها ؟. كان هدف الجمهوريين وسياستهم التعليمية في منطقة القبايل يعني ادماج القبايل وباية سرعة ممكنة في المجتمع الفرنسي وفصلهم عن باقي الجزائريين . فقد كتب احدهم في ١٨٨١ يقول : « ان الهدف الاسمى الذي يجب ان تبذل من اجله كل الجهود في هذا البلد (منطقة القبايل) هو بدون شك جعله بلدا فرنسيا »(٣٣) .

وقد رأينا كيف كان دعاة الاسطورة القبايلية ينظرون الى هذه المنطقة ، والى سكانها . ومن هذه الرؤية كان التعليم الموجه لمنطقة القبايل يركز خاصة على التشكيك بعروبة الجزائريين واسلامهم ، وترسيخ الشعور والافكار الفرنسية لتسهيل عملية ادماجهم .

وليس من المصادفة ان تكون المدارس الاولى كلها مركزة في وسط جرجرة ومنطقة القبايل ، انما لان ثورة ١٨٧١ (٣٤) قد انطلقت من هذه المنطقة بالذات . وترى ف. كواونة ان اختيار هذه المنطقة بالذات يخضع لعاملين اساسيين هما :

١ ـ نوع من التعدي .

٢ ـ اهمية المنطقة اقتصاديا(٣٥) .

واذا كانت فكرة الادماج قد استعملت كوسيلة للغزو من جهة ووسيلة للاستيلاء على الارض وفرنستها اولا ثم فرنسة السكان ثانيا في جميع حركاتهم وعاداتهم وافكارهم(٣٦) خاصة من جهة ثانية ، فان السياسة التعليمية الفرنسية من منطقة القبايل كان لها نفس الاسلوب والطريقة في تفكيك المجتمع الجزائري ثم هدمه عملا بالشعار الاستعماري « فرق تسد » (٣٧) .

وكل هذه الاتجاهات رغم اختلاف اساليبها وطرق عملها ، الا انها تتفق في غاية واحدة، هي الادماج السريع والكلي للقبايل اولا ثم للعرب ، واحيانا ادماج العنصر الثاني بالاول . ولتحقيق هذه الاهداف الاستعمارية تصبح الاسطورة القبايلية هي الادماج نفسه كمرحلة اولى لدمج جميع السكان ، او بمعنى اخر الفرنسة الكاملة للجميع .

٣ ـ نتائج السياسة التعليمية في منطقة القبايل :

ان كل الاهداف المسطرة في السياسة الاستعمارية كالفرنسة بالملكية الخاصة والتعليم والتمسيح والقضاء الفرنسي(٣٨) لم تبق حبرا على ورق ، ولكن رافقتها اجراءات ملموسة تهدف الى خلق فكرة الاقليمية وتدعيمها Particularisme التحضير للمهمة الاستعمارية المنشودة وهي الادماج الكامل . وبهذه الطريقة حاول الفرنسيون غزو المنطقة المذكورة فكريا ، واشتد نشاطهم حول هذه المنطقة دون غيرها حتى ان ٨٩٪ من المدرسين الجزائريين من اصل منطقة القبايل و ٤٧١ من مجموع ٥٢٦ من اصل ولايتين اثنتين بمنطقة القبايل هما : تيزي اوزو (٤٠٥) وبجاية (٦٦).

وما بين سنة ١٨٨٣ الى ١٩٠٦ ارسلت مدرسة تاوريت ميمون وحدها الى صف المعلمين ببوزريعة ٥٦ تلميذا ـ مدرسا ، و٤ طلاب الى المدرسة الاسلامية بالجزائر العاصمة . وفي تقرير لمديرية التربية في ١٩٠٩/١٢/٣١ ، ذكر ان مجموع التلاميذ في منطقة القبايل الذين استفادوا من التعليم الفرنسي ، كان حوالي ١٣ر٥٠١ من مجموع ٤٤٠ الف نسمة ، واصل منهم ٢٥٢ تعليمه ما بعد الشهادة الابتدائية و ٨٤٠٢ بقوا بمناطقهم (يشتغلون مع ابائهم) و ١٧٢٧ منهم اصبح حرفيا ، و١٦٧٠ توجه الى الاعمال التجارية . أي ان نسبة ٤٪ فقط هي التي التحقت بالوظائف الادارية او مارست اعمالا حرة مقابل نسبة ٩٠٪ بقوا على حالتهم الاجتماعية السابقة (وهذا ما يفند اسطورة التنصل déclassement التي ابدعها معارضو التعليم الجزائري) ، و ٦٪ منهم هاجر الى المدن للعمل عند الاوروبيين او كأجراء يوميين(٣٩) .

غير أن هذه السياسة لاقت نفس مصير السياسات السابقة ، أي انها لم تستطع الاستمرار في تأسيس مدارسها نظرا للمعارضة الاوروبية القوية من جهة ، ومعارضة الجزائريين انفسهم لها . الا ان مبررات كل طرف تختلف عن الاخر ، فالطرف الاول أي الاوروبي ينظر اليها انطلاقا من مصالحه الخاصة التي تتعارض مع الجزائريين وترقيتهم سواء في منطقة القبايل او في غيرها ، لان في ذلك منافسة له في نفوذه وقوته. اما الطرف الثاني ، أي الوطني (الجزائري) فانطلاقا من تفهمه وادراكه لاستعمارية هذه السياسة التي تحاول تفرقته وتشتيت شمله ، بل هي جزء من رفضه للاحتلال ككل .

واذا كانت قبيلة بني يني (بمنطقة القبايل) مثلا قد تجاوبت مع المدارس التي اسستها الادارة الفرنسية(٤٠) ، فذلك راجع الى ان التعليم العربي الاسلامي بهذه المدارس قد اسند الى مدرسين جزائريين لتعليم العلوم الدينية . الى جانب ذلك ساعدت بعض العوامل على تحقيق القبول ، منها تركز السكان بمنطقة واحدة ، اضافة الى العامل الاقتصادي الذي يتمثل في ان سكان هذه المنطقة لم يتعرضوا لاستعمار الارض ومصادرتها بالشكل الذي عرفته المناطق الاخرى من الجزائر . واذا نظرنا الى تركيبة المجتمع بمنطقة القبايل تمكنا من تفسير نجاح المدارس بها نوعا ما. فالسكان الاوروبيون (وهو العنصر الرافض لاي تعليم يستفيد منه الجزائري) يمثلون نسبة ١٫٨٪ من كامل دائرة تيزي اوزو حتى سنة ١٩٢٦ ، في حين نجد ان هذه النسبة اعلى بكثير من مدينة وهران ، أي حوالي ٥٥٪ (٤١) . ومن هنا يظهر ان نجاح المدرسة الفرنسية يخضع الى عامل السكان والمنطقة ، اضافة الى العوامل التاريخية والاقتصادية والاجتماعية التي ذكرناها . واذا كانت بعض المدارس الفرنسية قد لاقت نجاحا في بعض المناطق ، فذلك مرجعه الى انعدام المدارس القرآنية بها . وتقول تقارير صاباتييه Sabatier (٤٢) في ١٨٨٢ ان النجاح الذي حصلت عليه مدرسة كل من تمازيرت(وهي الاقدم) ومدرسة صهاريج ،يرجع الى ان هذه البلدية لا تملك مدرسةعربيةاسلامية.

واخيرا يمكن اجمال فشل هذه السياسة في النقاط التالية :

١ — رفض الجزائريين لها ايمانا بسوء نيتها ، بل اكثر من ذلك فهي جزء من رفض الاحتلال اجمالا .

٢ — رفض الاوروبيين للتعليم الجزائري عموما ، لانه عامل من عوامل اشراكهم في النفوذ والسيطرة .

٣ — لانها كانت موجهة من باريس، وبالتالي فاصحابها يجهلون واقع المجتمع الجزائري سواء في منطقة القبايل او في غيرها ، ومدى قبوله او رفضه لها .

(١) استعملت كلمة قبايل للتعبير عن البربر ، وتقابلها في الفرنسية Kabyle خلافا لقبائل (جمع قبيلة).

(٢) كانت قد سبقتها حملات عسكرية فاشلة في عامي ١٨٤٦ و ١٨٤٧ .

(٣) في ١٨٤٥ راى بيليسي R. de Pellissier امكانية تحقيق الادماج بين الاوروبيين وبين القبايل.

(٤) تولى منصب امين عام الحكومة العامة في الجزائر ، وكان من الدعاة المتحمسين للادماج.

(٥) وكان هؤلاء يريدون تكوين « مملكة قبايلية » مقابل « المملكة العربية ».

(٦) Ageron,Ch. r.,«La France a-t-elle eu une politique kabyle»..? in **Revue Historique**, Avril- Juin 1960 , P. 315 .

(٧) كتب الجنرال دوماس في هذا الشان يقول : « يوجد جنسان مختلفان ، الجنس العربي والجنس القبايلي » . اما دوتوكفيل فقد كتب يقول في السياق نفسه في سنة ١٨٣٧ : « اذا كانت بلاد القبايل مسدودة امامنا ، فان روح القبايليين مفتوحة امامنا ».
Ageron, **Les Algériens Musulmans et la France,** t.I, p. 269.

(٨) كتب الجنرال دوفيفي في سنة ١٨٤١ ، مبرزا الاعتماد على العنصر القبايلي دون غيره ، يقول: « ان استقرار القبايل وحبهم للعمل يجب ان يكونا قوام سياستنا في افريقيا ».
Ageron; La France a-t-elle .. ibid, P. 314.

(٩) كتب النقيب كاريت ليؤكد على ان : « منطقة القبايل بقيت لحد الان خارجة عن الاتصال المباشر معنا . واذا كانت سابقا في حروب مع جميع « المحاولات الاستعمارية السابقة ، الا انه يجب ان تصبح في السنين القادمة المساعد القوي لمؤسساتنا والمشارك المفيد لمشاريعنا ».
Ageron, op. cit., p.314

(١٠) Ageron, Les Algeriens .. ibid p.270 .

(١١) لم يطبق التعليم الالزامي في الجزائر الا على ثمانية (٨) بلديات موجودة كلها في منطقة القبايل Kabyle . ثم اصبحت اربع مدارس باقتراح من مدير التربية في ١٨٨٢ هي : مدرسة تيزي راشد ، تاوريت ميمون ، ميرة ، جماعة صهاريج .

(١٢) Mesnard, I., L'Oeuvre Française s'adapte aux messes musulmanes en Algérie, in **Etudes,** Juin 1948, P.359.

(١٣) Ageron, op. cit., p. 332.

(١٤) اصبح اسقفا للجزائر في ١٨٦٧ وانتشرت المسيحية بخطى واسعة في عهده . فهو الذي كون طبقة جديدة من المبشرين (من الجزائريين الكاثوليك) عرفت بالاباء البيض وانتشرت في منطقة القبايل.

(١٥) Mesnard, op. cit., p.360.

(١٦) فهو الذي قال في سنة ١٨٧٦ : « اذا اردنا في ظرف جيلين ، ستتحول منطقة القبايل الى فرنسية، ويكفي لذلك اقامة مدرس لكل قبيلة » .
Ageron, Ch. R., **Histoire de L'Algérie Contemporaine** , t. I,p. 156.

(١٧) Rambaud, A., **L'Enseignement primaire des indigénes musulmans d'Algerie,** p.43.

(١٨) كان وقتها وزيرا للتربية والتعليم ثم اصبح رئيسا للحكومة الفرنسية . وكان من انصار الجزائر الفرنسية ، أي الجزائر الملحقة والمدمجة في فرنسا (الميتروبول) .

(١٩) L'Amicale des anciens instituteurs et institutrices et le cercle Algerianiste .. 1830-1962 .Des enseignants d'Algerie se souviennent de ce qu'y fut l'enseignement primaire, p.46 ed. Privat, 1981.

والراي نفسه ابداه الحاكم العام تيرمان Tirman(١٨٨١-١٨٨٥) عندما امر حاكم منطقة فورنا سيونال بتطبيق الزامية التعليم على منطقته .

(٢٠) كانت البلديات الجزائرية اشد المعارضين لتعليم الجزائريين، وقدمت لذلك تبريرات مختلفة كالمالية والعنصرية والسياسية والتقليدية . وهذا ما يؤكد تعارض جمهوري باريس واوروبي المستعمرة واختلاف وجهات نظرهما حول طبيعة التعليم المراد تقديمه للجزائريين . فالجمهوريون ارادوا تطبيق التعليم الفرنسي النظري على الجزائريين لتحقيق الادماج، في حين طالب الاوروبيون في المستعمرة بتطبيق التعليم التطبيقي ، الاولى والبسيط ، لتحقيق الانفصال عن الميتروبول .

(٢١) A. O. M. (Archives d'outre - mer d'Ex-en- Provence) 225 (3) , Ecole Arabe - Française (1860 - 1876) .

(٢٢) كان من انصار تعليم الجزائريين والاهتمام ، ويقال انه كان من المساهمين في فكرة المملكة العربية التي جاء بها نابليون الثالث ، وكان مستشارا له في الشؤون «الاهلية».

(٢٣) Bourgeois, H.Le., **Rapport d'ensemble sur l'état de l'instruction primaire en Algerie** , p. 77, Paris 1880 .

(٢٤) اعيد تنظيمها في اواغزن Ouaghzen بين ١٨٩٧ و ١٩٢٨ ثم حولت الى بني يني Beni Yenni وهذه القبيلة التي استفادت اكثر من غيرها من المدارس التي اسستها الادارة الفرنسية .

٢٥) Mesnard , op. cit. p. 360.

(٢٦) **La construction du mythe kabyle,** p. 81, Alger 1977.

(٢٧) **ibid** , P. 78

(٢٨) Bourgeois, op. cit. p. 71

(٢٩) استمرت ثلاث مدارس فقط فيتقديم التعليم هي: مدرسةثاوريتميمون ، مدرسة تيزي راشد ومدرسة صهاريج .

(٣٠) Mabrouki, R., op. cit. p. 78.

(٣١) Colonna, F., Les institnteurs algeriens 1883 - 1939, p; 115, O.P.U., Alger , 1975.

(٣٢) خير تعبير على هذه الفكرة ما قاله عباس فرحات من كتابه ليل الاستعمار. « فعندما يقول الجزائري

انه عربي يجيبه القضاة الفرنسيون لا انك فرنسي ، ولكن حين يطالب بحقوق المواطن الفرنسي يجيبه نفس القضاة لا انك عربي » . ص ١١٠ ، ترجمة وليم خوري ١٩٦٢ .

(٣٣) Desvages, H., L'enseignement des Musulmans en Algerie sous le rectorat Jeanmaire,in **Mouvement Sociale,** Janvier- Mars 1970, p.119.

وكان وزير التربية برتولو Berthelot ، بعد زيارة للجزائر في ١٨٨٧ ، قد اعلن امام مجلس الوزراء « بضرورة رفع عدد التلاميذ في مدارس منطقة القبايل ، لانها تمثل الوسائل الناجحة لدمج مستعمرتنا الافريقية الكبيرة في الوطن الام » . المرجع نفسه ص١٢٢.

(٣٤) وهي الثورة التي قادها الباشاغا المقراني ضد الاحتلال الفرنسي في منطقة القبايل .
Colonna, op. cit. P. 108.

(٣٥) توجد صناعة الاسلحة وصياغة الذهب لدى قبيلة بني ينى في منطقة القبايل . والقبيلة من اغنى مناطق منطقة القبايل اقتصاديا .

(٣٦) Mabrouki, op. cit. p. 70.

(٣٧) ويرى احد دعاة الخاصية القبايلية انه لا يجب فهم القبايلي على ما هو عليه بقدر ما يكمن في كيفية استغلاله واستخدامه بالشكل الجيد ووفقا للظروف . لان استعماله يعني هدم المجتمع العربي وتفكيكه . المرجع نفسه .ص ٩٠.

(٣٨) استغنت الحكومة الفرنسية عن القضاة الجزائريين وانزلتهم الى مراتب سفلى ، واغلقت المدارس القرآنية وفرضت التعليم الاجباري الفرنسي في منطقة القبايل .

(٣٩) Ageron, La France .., ibid, p; 348.

(٤٠) كانت قد هجرتها عندما تعرضت المنطقة بكاملها (منطقة القبايل) للقمع الفرنسي الذي رافق القضاء على ثورة ١٨٧١ .

(٤١) colonna, op. cit. p. 112.

(٤٢) استطاع صاباتيه ان ينجح في منطقته ، بحيث ان ست(٦) مدارس استمرت في نشر رسالتها « الحضارية » مع ٦٠٠ تلميذ . واعتبر هو نفسه ان سنة ١٨٨٤ ، هي السنة التي يمكن ان يستولي فيها على منطقة القبايل بالتعليم الفرنسي.

---

* حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته « السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ، ١٨٧١ ـ ١٩١٤ » باشراف الدكتور محمد خير فارس .

عصبة العمل القومي
وإسهامها في الحركة القومية في سورية
١٩٣٣ - ١٩٣٩

مصطفى بلاوني
مرشح للماجستير

تميزت فترة الثلاثينات من هذا القرن بمحاولة ابقاء فكرة الوحدة العربية حية في قلوب الجماهير ، رغم اختلاف الانظمة والحدود القائمة ، وقام زعماء الحركة القومية بمحاولة لتجميع الصفوف بعد ان اثار قلقهم الانصراف نحو النزعة الاقليمية، وانتهزوا فرصة انعقاد المؤتمر الاسلامي في القدس أواخر عام ١٩٣١ ، فاتفقوا على ميثاق عربي قومي ، أكدوا فيه على وحدة البلاد العربية وتوجيه الجهود في كل قطر نحو الاستقلال التام ، ورفض السياسات الاقليمية ، وبذل الجهود من أجل الاستقلال والوحدة العربية(١) .

قيام عصبة العمل القومي ـ مبادؤها النظرية :

وساهم عدد من الشباب المثقف في سورية ولبنان وفلسطين والعراق بتأليف أحزاب سياسية تتجاوز الشواغل القطرية وتتعدى حدود الكيانات ، وتسمو على القضايا المحلية التي شغل بها الاستعمار الشعوب العربية ، كان ابرزها عصبة العمل القومي ، وظهرت بعد عقد مؤتمر سري في قرنايل ـ بلبنان ـ سنة ١٩٣٣ ، كان أهم من حضره (أكرم زعيتر ، فريد زين الدين ، عبد الرزاق الدندشي ، شفيق سليمان، الدكتور سيف الدين الطباخ ، علي ناصر الدين ، واصف كمال ، ثابت العزاوي ، سامي شوكت) واصدروا بنهاية اجتماعاته بيانا « الى العرب من عصبة العمل القومي »(٢) .

درس المؤتمر الاستعمار وموقفه من القومية العربية وطبيعته وأساليبه ، ثم عين الاهداف العليا والوسائل التي يجب على العرب اتباعها . وكذلك درس الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي العربي ، ثم حدد موقف العصبة من الفئات الاخرى، وعين طرق عملها . وخلص البيان الى دراسة السياسة السورية التي سلكت طريق « التفاهم » فوضع خطوطا عامة بشأنها(٣) .

وفي ضوء تحليل المؤتمر لواقع العرب ، تبين له أنهم سائرون في طريق التدهور في مختلف مجالات حياتهم ، وأصبحت المطالبة بالوحدة العربية ضربا من الخيال . وعدد البيان نقاط الضعف في العرب بدءا من كثرة النفعيين ، وقوة الفردية، وتغلب روح الاثرة ، وحب التزعم ، والتشبث بالرأي الشخصي ، وعدم الخضوع لسنن العمل المشترك ، وخوف العربي من الضغط الاجتماعي ، وتقليده الغربي تقليدا أعمى ، وضعف الثقة بالنفس ، وتفشي الجهل وفساد طرائق التربية والتعليم . كما بين البيان نقاط القوة في العرب ، ممثلة بعظمة التاريخ ، وروابط اللغة ، واستعداد العرب القومي للتفوق ، وتعصب العربي لعقائده ، واتيانه بالعجائب في سبيل ذلك(٤).

وتطرق البيان الى دراسة طبيعة الاستعمار الحديث ، فظهر له طبع الاستعمار ومنشأه الاقتصادي ، ووصل في تاريخه الى الثورة الصناعية وتجمع رؤوس الاموال الضخمة ، وتزاحم التجارة الاممية ، وظهور حاجتها الى مواد اولية واسواق ومستهلكين(٥) .

وعين المؤتمر أهداف الاستعمار بالنسبة للعرب بوجهين :

الاول يتعلق بالبلاد نفسها (استعمار فكري ومادي) .

والثاني يتعلق باتخاذها قاعدة لاستعمار الشرق في آسيا وافريقيا ودوام السيطرة عليه .

كما حدد المؤتمر في بيانه وسائل المستعمرين واساليبهم في البلاد العربية، وكيف انهم استعانوا على العرب بالتجزئة المادية والمعنوية وعمدوا الى افساد خلق الشعب وروحه وعقله(٦) .

وفي ضوء هذا التحليل حددت العصبة أهدافها العليا ، فرسمت لنفسها هدفين « هما من حيث الطبع متمم أحدهما الاخر ، وتحقيق كل واحد شرط لتحقيق الاخر

أ ــ سيادة العرب واستقلالهم المطلقين .

ب ــ الوحدة العربية الشاملة » (٧).

وبينت العصبة ان نوال السيادة والاحتفاظ بها موقوف على وحدة البلاد العربية كما انازدهارها الاقتصادي ونهضتها الاجتماعية يتوقفان عليهاويستحيلان بغيرها . لذلك اعتبرت « الوحدة العربية » القائمة على « وحدة التاريخ والتقاليد والعادات واللغة والغايات والوضع الجغرافي » جزءا غير منفصل عن هدفها في السيادة والاستقلال (٨) .

وعلى ضوء دراسة الاستعمار ، ادركت العصبة خبث مقاصده ، وبحثت في وسائل المقاومة القومية ، ورأتبحكم منطق الدفاع«توحيد جهود العربفي كل صقع ، وتوحيد حركة القاومة القومية في الاقطار العربية ، وتأليف جهودهم والقضاء على النعرات الاقليمية بمعناها القاصر ، ووصل ما انقطع من الروابط بين الصفوفالمجاهدة في كل قطر » ، على ان لا يفهم من هذه الخطة ترك الجهاد المحلي ، بل ان تعدد الطرق الاستعمارية والمستعمرين في الاقطار العربية « جعل لكل قطر ظرف خاص تجب معالجته بوسائل خاصة ، وتتطلب وضع برامج محلية تراعي فيها الظروف القطرية ضمن نطاق ضوابط محددة تمنع شذوذ العمل السياسي عن الاهداف العليا »(٩) .

على هذا الاساس فان العمل القومي في نظر عصبة العمل القومي ، يستهدف تشكيل جبهات جهاد مختلفة « موحدة الجهد متساعدة تابعة لقيادة واحدة ، تؤلف فيما بينها وتجعل القضايا القطرية أو الاقليمية أجزاء للقضية العربية الكبرى »(١٠)

وسجلت العصبة تطورا في السياسة الاقتصادية ، فقد اعتبرت البلاد العربية وحدة اقتصادية ، فدعت الى توحيد الجهود الاقتصادية في مختلف الاقطار العربية، وضم رؤوس الاموال الصغيرة للقيام بمشاريع كبيرة ، وازالة الحواجز الجمركية بين البلاد العربية عن المنتوجات والصناعات العربية ، واعتبار مصلحة المجموع فوق المصالح الخاصة . كمااعتبرت العصبةالبلاد العربية وحدة اقتصادية ،وسوقا اقتصادية وطنية خالصة ، لا تروج فيها غير المنتوجات والمصنوعات العربية(١١) .

وحيث ان ظروف العرب الاقتصادية غير واحدة وهي خاضعة للظروف السياسية . فقد وجب في الاقتصاد ما وجب في السياسة ، وتحتم وضع برامج اقتصادية لكل قطر مستمدة من ظروفه وقابلياته ، على ان لاتخرج على المبادىء العامة التي قررتها العصبة بهذا الشأن .

والكيان الاقتصادي الذي تنشده ـ العصبة ـ يقوم على اساس قومي فيالانتاج والتوزيع . لخلق نهضة سريعة في الصناعة والزراعة ، وتهدف العصبة من وراء ذلك الى قيام الدولة بالمشاريع الرئيسية الكبرى ، وتشجيع الشركات التعاونية ، ومد يد المساعدة الى الجماعات والافراد في مجال الصناعة والزراعة (١٢). كما أقرت العصبة مبدا محاربة الاقطاعية ، وتحديد مقدار التملك العقاري بنسبة تساعد على النمو الزراعي وحسن الاستثمار(١٣) .

اما في المجال الاجتماعي والثقافي ، فقد بينت العصبة « انه ليس من الجائز اعتناق أي مذهب من المذاهب الاجتماعية يكون من شأنه اضعاف الحس القومي أو الخروج على التقاليد العربية الصالحة ، ومن الواجب مقاومة كل عصبية غير العصبية القومية ، والقضاء على العصبيات العائلية أو المذهبية او المحلية »(١٤) التي يجب ان تذوب وتفنى في سبيل المصلحة القومية ،وان لا تتخذ اساسا للحركات الوطنية .

كما أقرت العصبة وجوب رفع مستوى المرأة الاجتماعي ، وتحضير البدو والاهتمام بالقرية ، ورفع مستواها الاجتماعي والثقافي والصحي باعتبارها الاساس الذي يبنى عليه هيكل البلاد العمراني والاجتماعي . وطالبت ان يعمم العلم على سائر طبقات المجتمع ، وان تسهل سبله ، ولا يكون ألفقر حائلا دونه . كما قررت قصر استعمال اللغات الاجنبية على البحث العلمي والامتناع عن التخاطب بها بين العرب ، ومقاومة التبشير الاجنبي بأشكاله ومظاهره المختلفة(١٥) .

والهدف من انشاء العصبة كما حددته في منهاجها « **انشاء كيان قومي عربي موحد مستقل** » ــ دون أن تحدد العصبة نظام هذا الكيان ــ وعرفت القضية العربية انها « **انشاء الدولة العربية لتحقيق الارادة العربية العامة** » أما الحركة العربية فهي « **بعث وتحرير وانشاء الحركات القطرية فروع لها** »(١٦) .

العصبة على الصعيد العملي :

في سبيل بلوغ العصبة لاهدافها ، اعتمدت على التنظيم الشعبي الشامل بمختلف طبقاته . واستندت فيه بالدرجة الاولى الى الشباب . وقد اتخذت العصبة من دمشق مركزا لها ، وكان يمثلها أمين السر العام ، وهو الناطق الرسمي باسمها ، وقد شغل هذا المنصب صبري العسلي ثم عبد الرزاق الدندشي ، وبعد وفاته تولى منصب أمين السر العام فهمي المحائري . وترتبط فروع العصبة بأمين السر العام مباشرة والى جانبه مجلسان :

أ ــ مجلس المفوضين : يتألف من عدد من الاعضاء يطلق على كل منهم اسم مفوض ، فهناك مفوض المالية واخر للداخلية وثالث للدعاية . الخ . ومهمة هذا المجلس التعيين في المناصب الحزبية واعطاء الصلاحيات ومساعدة الامين العام في مهامه .

ب ــ مجلس المديرين : ومهمته تنفيذ المقررات والتوصيات التي يقرها مجلس المفوضين ويقبل الانتسابات الجديدة للعصبة .

وتأتي الفروع في أسفل الهرم التنظيمي ، ويراس الفرع امين الفرع ويساعده في تأدية مهامه مجلس مصغر على هيئة مجلس المديرية ، ويرتبط الفرع مباشرة بأمين السر العام . ويتكون الفرع من عدة نقاط ارتكاز تتوزع في الاحياء السكنية والقرى وتشرف على كل نقطة ارتكاز هيئة مصغرة على شكل هيئة الفرع(١٧) . وكان للعصبة تنظيم شبه عسكري أطلق عليه « حرس العروبة » ، واعتبرت العصبة أن كل عضو فيها هو في نفس الوقت عضو في تنظيمها شبه العسكري (١٨) .

اعتمدت العصبة بالدرجة الاولى على الطبقة المثقفة من محامين وأطباء وطلاب المدارس الثانوية والجامعات . وعلى الرغم من دعوة عصبة العمل القومي الى محاربة الاقطاعية ، الا ان عددا غير قليل من الاقطاعيين قد انضم الى صفوفها « عدنان الاتاسي ــ حمص ، محسن البرازي ــ حماه » كما ان امينها العام عبد الرزاق الدنوشي كان من الاقطاعيين ، الا ان الصفة الغالبة في عناصر العصبة كانت تتألف من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة(١٩) .

وأولت العصبة بشكل خاص اهتمامها للقضية السورية ، فدرس مؤتمرها التأسيسي الوضع السياسي في سورية واعمال الفرنسيين فيها ، وعلى ضوء تلك الدراسة حددت العصبة موقفها من الاستعمار في خطوط عامة دعت فيها الى رفض سياسة التفاهم مع المستعمرين والعمل على حل المجلس النيابي السوري عام ١٩٣٢ لعدم شرعيته ، باعتباره الة بيد المستعمرين ، واعتبار كل ما يصدر عنه لا يقيد الامة بشيء . ودعت العصبة الى مقاطعة الحكومة المحلية واعتبرتها اشد خطرا من الاستعمار الذي تنفذ اغراضه ، واعلنت ــ العصبة ــ عقب الاجتماع الكبير الذي عقد في مركز الحزب بدمشق ان المعاهدة لا تحقق رغائب الشعب . ووقفت موقض المعارض منها . وقد كان لهذا الموقف من العصبة أثر كبير على حمل وزيري الكتلة الوطنية« جميل مردم ومظهر رسلان » على تقديم استقالتيهما (٢٠).

وحظرت العصبة على عناصرها الاشتراك في الوظائف الحكومية ووجوب مقاطعة البضائع الاجنبية ، والعمل على ابقاء الشعور الوطني حيا يقظا ، ليتمكن من معرفة الامور والحكم عليها(٢١) .

وانسجاما مع مبدأ العصبة الذي اقرته ، فقد فصلت قيادة العصبة احد الاطباء من عضويتها في تشرين الاول ١٩٣٤ لقبوله وظيفة في دائرة صحة دمشق(٢٢) .

وخلال حوادث الاضراب الكبير في سورية اواخر عام ١٩٣٥ وأوائل عام ١٩٣٦ شاركت العصبة في المظاهرات والحوادث التي رافقت هذا الاضراب ، كما وقفت موقف المعارض من المعاهدة السورية الفرنسية عام ١٩٣٦ لمخالفتها لمبادىء العصبة

التي أقرتها ولانها لا تحقق الوحدة السورية الشاملة والاستقلال الحقيقي(٢٣) . وقد أدى موقف العصبة الرافض للمعاهدة الى انسحاب امينها العام ـ صبري العسلي ـ من العصبة وانضم الى الكتلة الوطنية وفاز في قوائمها الانتخابية للمجلس النيابي السوري عام ١٩٣٦(٢٤) .

وقد وقفت العصبة وقفة المعارض من الاتفاقات السرية التي وقعها رئيس الوزراء السوري ـ جميل مردم ـ كملاحق للمعاهدة السورية الفرنسية ،وتعاونت العصبة مع المعارضة السياسية التي تزعمها الدكتورعبد الرحمن الشهبندر ضدسياسة الكتلة الوطنية . وكانت الاجتماعات والمهرجانات التي تنظمها العصبة تنتهي دائما بعراك في الشارع بينها وبين انصار الكتلة الوطنية(٢٥) .

وخلال النصف الاول من الثلاثينات ، انتشرت فروع العصبة في مختلف المدن السورية ، وكان ابرز فروعها نشاطا في دمشق والاسكندرية وحمص ، وقد سجل فرع الاسكندرونة نشاطا ملحوظا وبخاصة في اواخر عام ١٩٣٦ ، حين اثار الاتراك قضية لواء الاسكندرونة وطالبوا بضمه الى تركيا ، فاعلن فرع عصبة العمل القومي في الاسكندرونة ، ان العصبة ستظل مثابرة على الدفاع المستبسل عن كيان البلاد ومصالح الشعب الحيوية ، ودعت كافة العناصر الى مشاركتها في العمل واظهار تاييدها للوفد السوري الذي حمل من باريس معاهدة صداقة وتحالف بين سورية وفرنسة بحرية الوطن واستقلاله . وحثت الشعب في اللواء على الاشتراك في الانتخابات النيابية لاختيار ممثليه الامناء على مصالح الشعب ، ودعتهم أن لا يتركوا مجالا للدساسين الذين يسخرون مصلحة الشعب لاشباع أطماعهم الشخصية (٢٦) .

ولما أثيرت قضية اللواء امام عصبة الامم ، احتج فرع العصبة في اللواء على ارسال الوفد السوري المؤلف من « عبد الرحمن الكيالي ـ من قادة الكتلة الوطنية وحسن جبارة ـ مدير مالية اللواء » الى جنيف للدفاع عن اللواء ، وطالب استبدال شكري القوتلي وزكي الارسوزي بهما . كما وقف ـ فرع العصبة ـ في وجه مؤامرات الاتراك والفرنسيين ، وتهاون الكتلة الوطنية ـ التي كانت قد تسلمت مقاليد الحكم في سورية ـ ونظم مظاهرات كبيرة في اللواء مشى بها عشرون ألفا من العرب امام لجنة الخبراء الدولية التي وصلت الى اللواء لدراسة وضعه(٢٧) .

وألفت العصبة الوفود لمقابلة لجنة الخبراء في اللواء ، وقدمت لها الوثائق والمستندات التي تبرهن على عروبة اللواء ، وبعد عقد اتفاق جنيف في ٢٣كانون الثاني ١٩٣٧ ـ الذي منح تركيا بعض الامتيازات في اللواء ـ قادت العصبة المظاهرات في مختلف المدن السورية ، واذاعت اللجنة المركزية للعصبة في ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٧ بيانا طالبت فيه بعقد دورة استثنائية للمجلس النيابي السوري لمعالجة الموقف ، كما طالبت

الحكومة السورية بالرجوع عن المعاهدة اذا كان ثمنها ابتلاع ارض جديدة من الوطن (٢٨) .

وحملت عصبة العمل القومي مسؤولية مصير اللواء للحكومة السورية ،واعتبرت تصديق الاتفاقية الخاصة باللواء من الحكومة السوية خيانة وطنية تتحمل تبعته ، وأصدرت بيانا يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٧ ـ موعد بدء تنفيذ اتفاق جنيف ـ استنكرت فيه موقف الوجوم الذي يقفه العرب ازاء اللواء . واعتبرت هذا اليوم من ايام بؤس العرب التي ما زالت تتوالى عليهم منذ الاحتلال الفرنسي ، ودعت الامة الى الاتحاد والتضامن في سبيل استعادة الحقوق المسلوبة من ارض الوطن(٢٩) .

وكان للعصبة مواقف مشهودة في الدفاع عن قضية فلسطين ، فشارك بعض اركانها في مؤتمر بلودان ١٩٣٧ من اجل فلسطين وساهموا في صنع قرارات المؤتمر(٣٠) كما ساهمت العصبة في تأمين السلاح للثورة الفلسطينية عن طريق المحامي شفيق سليمان ـ احد أركان العصبة ـ الذي كان يتولى الاشراف على نقل السلاح من العراق الى فلسطين ، وتعرض للاعتقال من قبل السلطات الفرنسية بتهمة تهريب السلاح والذخائر الى مجاهدي فلسطين(٣١) .

وفي اوائل عام ١٩٣٩ ،رفعت العصبة الى المندوب السامي في فلسطين احتجاجا على اعمات السلطة البريطانية في فلسطين واطلاق الجند البريطاني الرصاص على قبة الصخرة من الكنيس اليهودي في القدس . وطلبت وضع حد لمثل هذه الاهانات المتكررة . كما ارسل فرع العصبة في بيروت في أوائل عام ١٩٣٩ برقية احتجاج الى رئيس الوزارة البريطانية والى الصحف اللندنية ، على عدم تمثيل سورية ولبنان في مؤتمر لندن من اجل فلسطين الذي عقد في اوائل عام ١٩٣٩(٣٢) .

وخلال عام ١٩٣٩ ، أعلنت العصبة أنها تعتبر اللبنانيين كأخوة وشعب واحد ، ليس فيه أقلية أو أكثرية ، وسواء أكانوا مسلمين او مسيحيين . وكان ذلك لخلق روح الولاء للبنان ، كما اعتبرت العصبة لبنان دولة عربية لها سياستها الخاصة ، وليس قسما من أي دولة اجنبية (٣٢).

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية قل نشاط العصبة ، شانها في ذلك شان معظم الاحزاب الاخرى . والحقيقة ان العصبة لم تكن حزبا سياسيا بالمعنى الصحيح للحزبية ، فكانت تمثل في برنامجها رأي الفئة المثقفة انذاك ،كما انها تعتبر اول بذرة لنشوء الاحزاب القومية بعد الحرب العالمية الثانية .

نال المرشح شهادة الماجستير برسالته « الاحزاب السياسية في سورية بين ١٩٢٠-١٩٣٩» باشراف الدكتورة خيرية قاسمية .

الهوامش :

(١) محمد عزة دروزة القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها الجزء الاول دمشق ١٩٨٤ص٣٠.

(٢) بيان المؤتمر التاسيسي لعصبة العمل القومي المنعقد في قرنايل ـ لبنان ـ ١٩٣٣ .

(٣) المصدر السابق صفحة ـ ٣ـ ساهمت عصبة العمل القومي قبيل اعلان بيانها في دراسة الوضع السياسي في سورية الناجم عن مشروع المعاهدة السورية الفرنسية ـ التي اعدها المفوض السامي « بونسو Ponsot » سنة ١٩٣٣ ـ وسياسة « التفاهم النزيه » الذي سارت عليها الكتلة الوطنية.

(٤) المصدر السابق صفحة ٣

(٥) المصدر السابق صفحة ٤

(٦) المصدر السابق صفحة ٥و٦

(٧) المصدر السابق صفحة ٨ .

(٨) المصدر السابق صفحة ٨و٩ .

(٩) المصدر السابق صفحة ١٠و١١ .

(١٠) المصدر السابق صفحة ١١

(١١) المصدر السابق صفعة ١٥ .

(١٢) منهاج عصبة العمل القومي المادة (١٠) من وثائق المحامي سعيد ابو الحسن امين فرع عصبة العمل القومي في مدينة السويداء .

(١٣) بيان المؤتمر التاسيسي لعصبة العمل القومي صفحة ١٦.

(١٤) المصدر السابق صفحة ١٧ .

(١٥) المصدر السابق صفحة ٢٠ .

(١٦) منهاج عصبة العمل القومي المواد (٣ـ٨ـ٩ـ١١) .

(١٧) مقابلة شخصية مع الاستاذ سعيد ابو الحسن بالسويداء بتاريخ ١ـ٩ـ١٩٨٤ . ولديه المعلومات المتعلقة بالهرم التنظيمي لعصبة العمل القومي .

(١٨) كانت التشكيلات شبه العسكرية قد انتشرت في منطقة الشرق الاوسط خلال الثلاثينات من القرن العشرين ، وكانت تعتبر اسلوبا من الاساليب التي لجا اليها العرب لمقاومة سلطات الانتداب. ففي سورية تشكلت فرق القمصان الحديدية وحزب الفتوة وفي لبنان تشكل حزب الكتائب اما في العراق فقد ظهرت منظمة الفتوة ، كما تاسس في مصر حزب مصر الفتاة .

(١٩) مذكرات مخطوطة غير منشورة للمجاهد فوزي زكي الحموي احد مجاهدي الثورة السورية وأيضا:
Khoury, Philips ,. **Syria and the French Mandate** (unpublished Dessertation For the Degree of Doctor of Philosophy) Harvard university, Cambridge Massachusetts, May 1980, vol, 3, P,1145.

(٢٠) مجلة العرب الصادرة في القدس العدد ٣٤ تاريخ ٢٩ نيسان١٩٣٣.

(٢١) بيان المؤتمر التاسيسي لعصبة العمل القومي صفحة ٢٦و٢٧ .

(٢٢) صحيفة القبس الدمشقية بتاريخ ١٢تشرين الاول ١٩٣٤ .

(٢٣) مذكرات المجلس النيابي السوري جلسة ٢٨ كانون الاول ١٩٣٦ صفحة ١٣٢.

(٢٤) مقابلة شخصية مع الاستاذ سعيد ابو الحسن بتاريخ ١٩٨٤/٩/١ . وقد اكد بان العصبة قدطردت كلا من صبري العسلي واحمد الشرباتي من صفوفها لقبولهما بالمعاهدة .

(٢٥) منير الريس الكتاب الذهبي لتاريخ الثورات الوطنية في المشرق العربي ـ ثورة فلسطين ١٩٣٦ صفحة ٢٩٢ .

(٢٦) لواء الاسكندرونة الشهيد اصدار عصبة العمل القومي دون مكان دون تاريخ صفحة ٤٥و ٤٦. ويبدو أن موقف العصبة في اللواء المؤيد للمعاهدة مخالف لموقف العصبة بوجه عام .

(٢٧) المصدر السابق صفحة ٥٤ . كانت عصبة الامم بعد ان آثارت تركيا قضية اللواء ـ قد عينت في أواخر عام ١٩٣٦ لجنة دوليةاوفدتها الى لواء الاسكندرونة لدراسة وضعه ، وقد تالفت هـذه اللجنة من : المسيوكارون (Caron)، هولندي والمسيوهانز هولشتاد(Hans Holstad) نرويجي . والمسيو شارل فون فاتنفيل (Von wattenwyl) سويسري . وقد وصلت هـذه اللجة الى اللواء في ١٩٣٦/١٢/٣١ وباشرت اعمالها . انظر مجيد خدوري قضيةالاسكندرونة دمشق ١٩٥٣ صفحة ٤٣ .

(٢٨) لـواء اسكندرونة الشهيد صفحة ٦٧ .

(٢٩) النص الكامل لبيان العصبة في المصدر السابق صفحة ٩٧.

(٣٠) شارك في المؤتمر من عصبة العمل القومي كل من (عبد الكريم العائدي، زكي الجابي ، احمـد الشهابي ، ابو الهدى اليافي ، زكي الارسوزي ، ثابت العزاوي ، عبد الدائم الاتاسي ، عرفان الجلاد ، عبد الكريم الفياض الدندشي، شفيق سليمان ، علي ناصر الدين ، اكرم زعيتر، واصف كمال) انظر فؤاد مفرج المؤتمر العربي القومي في بلودان ١٩٣٧ دمشق صفحة ٢١-٣٤.

(٣١) اكرم زعيتر يوميات الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩ بيروت ١٩ صفحة ٣٨٤-٥٧٢.

(٣٢) المصدر السابـق صفحـة ٥٥٨ ـ ٥٦٤ .

(٣٣) Ziadeh, N., **Syria and Lebanon**, N, V 1956, P. 199.

بعض مظاهر التنظيم الإداري في بلاد الشام خلال حكم محمد علي باشا ، ١٨٣١ - ١٨٤٠

فندي أبو فخر

مرشح للماجستير

كانت التقسيمات الادارية في بلاد الشام ابان الحكم العثماني لها ، وقبيل خضوعها لحكم محمد علي باشا ، خلال عامي ١٨٣١ - ١٨٣٢ م تشتمل على أربع ولايات هي :

أ - ولاية الشام(١) : ومركزها مدينة دمشق وكانت تمتد من معرة النعمان حتى العريش . بيد أن ثورة واليها العثماني جان بردي الغزالي في تشرين الاول من عام ١٥٢٠ م ، جعلت السلطان العثماني يعيد النظر في حدودها هذه ، بعد أن قضى على هذا الثائر في مطلع عام ١٥٢١م ،(٢) بشكل يمكنه من السيطرة عليها ومنع قيام ثورات اخرى ، فاقتصرت حدودها على المنطقة الممتدة ما بين دمشق والعريش ، وضمت منذ ذلك الحين ، بالاضافة الى لواء دمشق ، الالوية التالية : القدس ، غزة ، نابلس ، صفد ، عجلون ، اللجون ، صيدا ، بيروت ، الكرك والشوبك ، تدمر .

ب - ولاية حلب(٣) : ومركزها مدينة حلب . وكانت تضم بالاضافة الى لواء حلب الالوية التالية : أضنة ، كلس ، بير جك ، بالس ، منبج ، معرة النعمان وتركمان ، واعزاز .

ج - ولاية طرابلس(٤) : ومركزها مدينة طرابلس ، وتتألف من الوية طرابلس ، حمص ، حماه ، السلمية ، الحصن ، جبلة ، اللاذقية .

د ـ ولاية صيدا(٥) : ظهرت هذه الولايــة في عام ١٦٦٠م(٦) ، بعد أن سلخت صفد وصيدا مع بيروت وصور وعكا عن ولاية الشام ، لتتشكل منها ولاية صيدا ، وذلك بقصد اخضاع سكان لبنان ، وقطع الطريق عليهم لمنعهم من القيام بأيـة ثورة او اية محاولة استقلالية عن السلطنة ، وجعل مقرها مدينة صيدا نفسـها .

وكان جبل لبنان يتمتع بوضــع اداري خاص في ظل الامراء المعنيـين ، بعد أن اعترف بهم السلطان سليم الاول ، طالما وقفوا الى جانب العثمانيين ، والتزموا بتقديم الطاعة والضرائب لسلطنتهم ، ثم خلفهــم في الحكم الامــراء الشهابيون منذ عــام ١٦٩٧م في(٧) ، بعد وفاة الامير أحمد المعني الذي توفي عقيما ، فاختار أعيان الجبل ابن اخته الامير بشير بن حسن الشهابي أمير راشيا خلفا له . وتوالى من بعده على الحكم الامراء الشهابيون حتى عام ١٨٤٠ م .

وبعد أن سقطت مدينة عكا في ٢٧ أيار ١٨٣٢ م استطاعت قوات محمد علي باشا في النصف الثاني من العام نفسه ان تجتاح بلاد الشام ، وتصل في مطلع ١٨٣٣ م الى كوتاهيــة . ومنذ ذلك الحين أصبح ابراهيم باشا ، ابن محمد علي باشـــا ، قائـــدا وحاكما(٨) عاما لبلاد الشام ، كما اصبحت القاهرة المرجع الاعلى لسلطاتها الاداريـــة والقضائية والسياسية والعسكرية ، مما يشير الى خضوع هذه البلاد لحكم مركزي في مصر ، بعد أن كانت خاضعة للسلطان العثماني في الاستانة ، ثم بدأ ابراهيم باشـــا بتطبيق انظمته الادارية الجديدة بعد أن ألغى التقسيمات الادارية التي كانت سائـــدة ابان الحكم العثماني ، وجعل مقر اقامته في مدينة انطاكية(٩) على مقربة من الحـــدود السورية ــ التركية ، وذلك لاسباب عسكرية بحتة ، كي يتمكن من مراقبة تحركات الجيش العثماني ، لمنعه من القيام بأي اجتياح عسكري لبلاد الشام من شأنه أن يهدد سلامة حكمه فيها .

وكان ابراهيم باشا قد وجه متسلمين للمدن الساحلية(١٠) كصيدا ، وصــور ، وطرابلس ، وبيروت ، بعد ان سيطرت قواته عليها في كانون الاول من عام ١٨٣١م كما عين منيب أفندي(١١) متسلما لمدينة عكا بعد أن سقطت بيده في ٢٧ أيار عام ١٨٣٢، وطلب من أبيه تعيين حاكم عام لبلاد الشام ، ليتمكن من حمايتها من الاخطار المحدقة بها ، طالما أنه كان يرى أن بقاءه قرب الحدود الشمالية ضرورة ملحة من جهة وليتمكن أيضا من الاشراف على شؤون الحكم ، ومراقبة أعمـــال كبار الموظفين والحكام وفـــق التقسيمات الادارية الجديدة من جهة اخرى .

وكان محمد علي بدوره قد استجاب لرغبة ابنه هذه ، فعين محمد شريــف(١٢) باشا أحد أنسبائه حاكما عاما على بلاد الشام في خريف عام ١٨٣٢ م ، وجعله مرتبطا مباشرة بابنه ابراهيم ، كما جعل مقر اقامته مدينة دمشق ، مما يشير الى ان محمد علي جعل هذه المدينة مركزا لادارته في بلاد الشام .

بيد أن محمد شريف باشا هذا لم يكن يتمتع بصلاحيات الحاكم العام في البلاد كما يظهر ، حيث كانت شخصية ابراهيم باشا تعتبر المرجع الاعلى في الشؤون الادارية والسياسية العامة ، وهي المخولة بتعيين كبار الموظفين من متسلمين وغيرهم . ففي تشرين الاول من عام ١٨٣٢(١٣) ، وبعد تنصيب محمد شريف باشا في منصبه هذا، فوض ابراهيم باشا الامير بشير الشهابي ، الذي اعلن ولاءه للحكم الجديد ، بتسمية متسلمين للمدن الساحلية كصيدا وصور وبيروت .

وفي أعقاب صلح كوتاهية في أواسط شهر ايار من عام ١٨٣٣بين السلطانالعثماني ومحمد علي ، قام ابراهيم باشا برفع سلطة الامير بشير عن المدن الساحلية المذكورة ووجه عليها متسلمين جدد حدد اسماءهم بنفسه ، دون ان يكون لحاكم الشام دورا ملحوظا فيذلك . غير ان ذلك لا ينفي ان محمد شريف باشا كان يقومبتسميةمتسلمين لبعض المدن الفلسطينية كالقدس(١٤) ويافا وغيرها على سبيل المثال ، لكن هذا الامر لا يثبت انه كان يتمتع بصلاحيات الحاكم العام لبلاد الشام .

وكان ابراهيم باشا قد قسم بلاد الشام الى ثلاث مديريات بدلا من الولايات، هي دمشق الشام ، وطرابلس ، وصيدا ، وعلى رأس كل منها مدير مهمته ادارة شؤون الحكم العامة فيها ، وجعل هذه المدن مركزا لهذه المديريات ، ونصب الشيخ حسين(١٥) عبد الهادي في أعقاب القضاء على انتفاضة فلسطين في النصف الثاني من عام ١٨٣٤م مديرا على مديرية صيدا ، وذلك بسبب اخلاصهللحكم الجديد ، بعد أن كان متسلما على مدينة عكا منذ كانون الثاني من عام ١٨٣٤ بعد متسلمها السابق منيب أفندي . وظل الشيخ حسين عبد الهادي يشغل هذا المنصب الى ان وافته المنية في النصف الثاني من عام ١٨٣٧ م ، فخاطب ابراهيم باشا الشيخ سليمان عبد الهادي أحد ابناء الشيخ حسين قائلا :(١٦) « قدوة الاماجد الشيخ سليمان صارمعلومنا اعراضكم بخصوص وفاة الوالد والحال من المعلوم ان ذلك بأمر الله تعالى مقدرا محتوم وكل منا داخل بعموم هذه القضا المرسوم فلا يقتضي تفكيركم من هذا البحث ». ثم عين الجنرال سيف (١٧٨٨ — ١٨٦٠) على مديرية صيدا(١٧) لثقة الحكم الكبيرةبه، ولخبرته العميقة بشؤون الاجانب الذين كانوا يقيمون في المدن الساحلية التابعة لهذه المديرية .

ثم اضطر ابراهيم باشا نتيجة للصعوبات الداخلية التي كانت تواجه حكمه الى فصل حلب عن مديرية الشام (دمشق) ، وجعلها مديرية رابعة ، وعين اسماعيل عاصم(١٨) بك مديرا عليها في عام ١٨٣٨م .

وهكذا اضطر ابراهيم باشا ، خلال الفترة من عام ١٨٣٢ — الى عام ١٨٣٨م ، أن يعيد التشكيلات الادارية التي كانت سائدة زمن العثمانيين بتسميات جديدة ،

فأصبحت بلاد الشام مقسمة الى أربع مديريات بدلا من أربع ولايات ، بالاضافة الى استمرار وضع امارة(١٩) جبل لبنان كما كان عليه سابقا ، لكون الامير بشير الشهابي كان من أشد المخلصين للحكم الجديد . وقد ضمت هذه المديريات الاربع اثنين(٢٠) وعشرين قضاء ، وثماني وعشرين ناحية ، وأكثر من ألف ومائة مدينة وبلدة وقرية ومزرعة ، وكانت مديرية دمشق (الشام) اهم هذه المديريات كما كان لواء دمشق أيضا أهم ألويتها ، وقد ارتبطت به اقضية بعلبك والبقاع ودوما والنبك ، ووادي العجم ، وحاصبيا وراشيا ، بالاضافة الى مدينة دمشق نفسها . وكان لواء حوران التابع لمديرية دمشق يضم اقضية عجلون ، والقنيطرة وبصر الحرير ، ودرعا ، وجبل حوران الذي هو اصغر هذه الاقضية وأقلها مساحة .

لقد استطاع ابراهيم باشا الغاء التقسيمات الادارية التي كانت سائدة ابان الحكم العثماني ، وجعل من المديريات الاربع وحدة ادارية وسياسية تابعة لمركز الحكم في عاصمة عربية في مصر بدلا من تبعيتها الى عاصمة اجنبية خارج حدود البلاد العربية ، غير انه عجز في حقيقة الامر عن ابقاء هذه الوحدة متماسكة ومستقرة لاسباب رئيسية اهمها :

١ ـ عجزه عن تحمل أعباء الحكم والادارة وقيادة الجيش ، وفرض الامن ، والتهيؤ الدائم للدفاع عن البلاد بسبب ضخامة هذه المسؤوليات الملقاة على عاتقه كقائد وحاكم عام لبلاد استولى عليها بالقوة .

٢ ـ بعد مقر اقامته في انطاكية عن المدن الهامة والرئيسية في البلاد ، الذي حال دون تمكنه من مراقبة مايجري فيها عن كثب ، وضبط الجهاز الاداري ومراقبة أعماله .

٣ ـ استمرار الانتفاضات ضد حكمه في فلسطين وجبال العلويين ، وجبل حوران ، التي هدرت قسما كبيرا من قدراته العسكرية والمالية ، واتاحت للدول الاوربية التدخل في شؤون حكمه الداخلية ، عبر دبلوماسييها وقناصلها وتجارها في بلاد الشام ، بشكل متزايد ، فاتسمت سنوات حكمه بالاضطراب والقلق والتبديل المستمر للرؤساء الاداريين في المدن الشامية المختلفة ، لاسيما الساحلية والفلسطينية منها .

الهيكل الاداري للحكم :

كان ابراهيم باشا نائب والده في حكم بلاد الشام ورأس الادارة فيها ، وهو الذي كان يتلقى اوامر والده ويقوم بتنفيذها بحذافيرها ، يساعده في ذلك مرؤوسوه من كبار الموظفين والحكام أو المديرين بالاضافة الى الشخصيات الاخرى مثل الطبيب الفرنسي كلوت بك (١٧٩٣ ـ ١٨٦٨ م)(٢١) ، وحنا البحري ، والامير بشير

الشهابي (١٧٦٧ - ١٨٥٠م) . وكان الهيكل الاداري للحكم في البلاد موزعا على الشكل التالي :

الحاكم العام لبلاد الشام : شغل هذا المنصب محمد شريف باشا ، غير ان وثائق الحكم لتلك الفترة لم تؤكد على تمتعه بصلاحيات هذا المنصب بشكل كامل كما مر معنا سابقا .

المدير(٢٢) : وكان يرأس كل مديرية من المديريات الاربع موظف كبير من الحكام، يدعى مديرا ، بدلا من الوالي ، ويأتي من حيث الاهمية بعد ابراهيم باشا . وكان يقوم بممارسة الحكم وادارة شؤونه الادارية والقضائية والاقتصادية والمالية ، ويسهر على حفظ الامن ورعاية مصالح الدولة في مديريته .

المتسلم(٢٣) : يلي المدير من حيث الاهمية الادارية موظف يدعى المتسلم ، فقد سمي لكل مدينة متسلم بمثابة الرئيس الاداري فيها « ونصب لكل بلدة متسلما من أهل الاسلام ومرجع الكل هو مركز الحكم في الشام » . وكان المتسلم يتلقى أوامر المدير وكبار الحكام ويقوم بتنفيذها ، ويسهر على رعاية مصالح الدولة المختلفة في مدينته .

وكيل المتسلم(٢٤) : ويأتي بعد المتسلم من حيث الاهمية موظف اداري يدعى وكيل المتسلم ، كان يقوم مقامه في حال غيابه ، ويشاركه أعباء الحكم اليومية ،وكان يقوم ، على سبيل المثال لا الحصر ، بمخاطبة الجهات الادارية الادنى والاعلى لتسيير شؤون الحكم المختلفة مثل المجالس المحلية ، والقاضي الشرعي والمحتسب وغيرهم ، كما كان يتلقى رسائل وكتب صادرة عن هذه الجهات ، خاصة في غياب المتسلم ، أو في حال عدم قدرته على مزاولة عمله .

المباشر(٢٥) : وهو بمثابة أمين سر المتسلم ومدير ماليته ، ويقوم بالاشراف على تنظيم حسابات المالية وأموال الميري ، وتنظيم الضرائب ، ويتبع هذا الموظف من الناحية المالية لمدير المالية في بلاد الشام حنا البحري ، الذيكان بمستوى كبار الحكام، لما كان يتمتع به من صلاحيات كبيرة ومختلفة .

المجالس المحلية(٢٦) : شكل ابراهيم باشا في بلاد الشام ، على غرار ما جرى في مصر ، وفي كل مدينة يبلغ عدد سكانها من عشرين ألف نسمة وما فوق ، مجلسا محليا يضم ممثلين عن الطوائف الدينية ، وكبار التجار والاعيان فيها .

محافظ بيروت(٢٧) : تميزت مدينة بيروت عن بقية المدن الشامية الاخرى

بانفرادها بهذه الوظيفة الادارية التي أضيفت الى الجهاز الاداري فيها ، نظرا لاهميتها كميناء تجاري هام يطل على العالم الخارجي ، ولتواجد التجار الاجانب بشكل كثيف ودائم فيها . وهذا ما جعلها ذات أهمية اقتصادية واجتماعية وسياسية بارزة ، دفعت الادارة الجديدة الى خلق هذه الوظيفة الادارية المميزية بفرض السيطرة على مقاليد الحكم فيها واستيعاب نشاطها الاقتصادي المتزايد . وقد انيطت بمحافظ بيروت بالاضافة الى اشرافه على مصالح الحكومة في المدينة ، مهمة الاشراف على شؤون الاجانب التجارية ، وما ينجم عنها من مشاكل متعلقة بالدولة ، كما كان يحيل دعاوي السكان الى الجهات المختصة لبحثها والبت فيها ، مثله في ذلك مثل المتسلم ووكيله .

شيخ القرية(٢٨) : وكان في كل قرية شيخ يدعى شيخ البلد (شيخ القرية) يتولى رعاية مصالح الحكومة في قريته ، ويقوم بمساعدة صغار المأمورين والموظفين الذين كانوا يمارسون أعمال الادارة فيها ، كجباة الضرائب الذين يقومون بتحصيل الاموال العامة . ولشيوخ كل منطقة شيخ يشرف على شؤونهم ويكون ويكون صلة بينهم وبين الادارة يسمى شيخ المشايخ ، ويقوم بتنفيذ سياسة الحكم وتوجيهاته .

الناظر(٢٩) : وكان لكل مصلحة من مصالح الحكومة موظف يشرف على شؤونها ، ويكون صلة الوصل بين السلطة الادارية وبين العاملين فيها ويدعى بالناظر ، كناظر مدبغة الميري ومملحة الجبول ، والبريد ، وشؤون الابنية ، والافران وغير ذلك .

ناظر النظار(٣٠) : ويشرف على نظار كل مصلحة من المصالح ويدير أعمالهم ، كناظر نظار المخابز ، وناظر نظار القرايا .

وكيل الجمارك(٣١) : وهو موظف يدير شؤون الجمارك ويرعى مسألة تحصيل الرسوم الجمركية المطلوبة ويعمل على تنظيمها ، ويطالب بتحصيل الاموال المتأخرة على بعض التجار ، ويرسل قائمة باسماء من تأخر منهم عن تسديد الرسوم المترتبة عليه الى الجهات الاعلى من اجل القيام بالاجراءات اللازمة ولدفعها لموظفي المالية كالمباشر مثلا في المدن الشامية .

وقد شهدت مدينة بيروت بوصفها ميناء البلاد الرئيسي ، نشاطا لوكيل الجمارك فيها ، وكان التجار الاجانب يدفعون رسوما على بضائعهم تتراوح ما بين نصف الى ثلاثة بالمئة ، بينما كان يدفع التجار الوطنيون رسوما تتراوح(٣٢) مابين ٦ و١٢ بالمئة ، ما جعل قسم من التجار الوطنيين يعمل باسم التجار الاجانب للتخلص من الرسوم الباهظة مقابل اعطاء التاجر الاجنبي ما نسبته ثلاثة بالمئة من قيمة بضائعهم .

المحتسب(٣٣) : وهو موظف مكلف بالاشراف على اسعار السلع والبضائع في الاسواق العامة والمحلات التجارية ومراقبتها ، والقيام بالاجراءات المناسبة لمنع الغش والتلاعب ، واعلام الجهات الادارية بالمخالفات العامة .

ومن الجدير بالذكر ان بلاد الشام لم تعرف ذلك التوسع في الجهاز الاداري الذي عرفته مصر ، كانشاء الدواوين المختلفة مثل ديوان الجهادية (وزارة الحربية) وديوان الخديوية (وزارة الداخلية) وديوان المدارس ، وديوان البحر ، وديوان التجارة والصناعة والمالية . غير ان الحكم كلف حنا البحري بالاشراف على تنظيم الشؤون المالية في بلاد الشام ومنحه لقب مدير مالية ، واخضعه لديوان الايرادات (المالية)في مصر ، كما كلف كلوت بك بالاشراف على شؤون التعليم بشكل شخصي ، دون احداث هيئة ادارية تشرف على ذلك ، مثلما كلف كبار الحكام بالاشراف على الشؤون التجارية والزراعية والحربية والامنية ، دون الارتقاء الى مستوى تنظيمي مماثل لما جرى في مصر . وبذلك اقتصرت اجراءات الحكم الادارية على اعادة تنظيم الجهاز الاداري وادخال بعض المظاهر الجديدة فيه دون الوصول الى المستوى الذي وصلت اليه في مصر .

تنظيم السلطات القضائية :

كان القضاء في بلاد الشام ، ابان حكم السلطان العثماني ، واضح المعالم لاغموض فيه والمراجع القضائية واضحة ومعروفة، وقد كانت السلطات العثمانية تكفل حرية المحاكم القضائية . وكان العدل في الاحكام القضائية يتوقف على نزاهة القاضي الشرعي الذي كان يبت في القضايا المدنية(٣٠٤) ، وعلى نزاهة الباشا او كاخيته (نائبه) الذي كان يبت في القضايا الجزائية .

غير ان ذلك لا يعني أن القضاء ايام العثمانيين كان سليما من الامراض والسلبيات، فقد كان السلطان العثماني يقوم بتعيين المفتي الذي يقوم بدوره بتعيين القضاة بطرق لم تكن مستقيمة بشكل دائم ، مما يؤدي الى الابتزاز واللجوء الى سبل غير سليمة في اجراءات المحاكمة .

اما حكومة محمد علي باشا ، فقد حاولت تنظيم القضاء على اسس حديثة مستمدة من نمط القضاء الفرنسي ، فجعلت من القاهرة مرجعا اعلى للسلطات القضائية في بلاد الشام ، فكانت الدعاوى ترسل الى مصر ، عند ضرورة تمييزها، لاعادة النظر فيها والبت فيها بشكل نهائي . وهذا ما يشير ايضا الى اضفاء طابع الحكم المركزي على كل مؤسسات ادارة محمد علي في بلاد الشام ، واخضاعها لمركز الحكم في مصر .

ومن الجدير بالذكر ان ابراهيم باشا لم يقدم على اتخاذ أي اجراء من شأنه المساس بالقضاء الشرعي، الذي بقي تابعا(٣٥) للعثمانيين من جهة ، ولان القضاء الشرعي يعد مظهرا من مظاهر الحياة الدينية لمعظم المواطنين في بلاد الشام ، مما يوجب

على الادارة الجديدة مراعاة مشاعر هؤلاء المواطنين لتجنب اثارة الراي العام الديني من جهة اخرى ، في وقت لاتتعارض فيه عقلية محمد علي مع الاطار الفكري الديني السائد آنذاك . ولقد حاولت ادارة محمد علي ان تجعل السكان ، على اختلاف طوائفهم ، سواسية أمام القضاء المدني ، لا فرق بينهم ولا تفضيل لطائفة دينية على الاخرى ، فألغى الفروق بين المسلمين وغيرهم من الناحية الشكلية دون المساس بجوهر الفوارق الاجتماعية القائمة .

ولوضع حد للرشوة والفساد في السلك القضائي ، عمد ابراهيم باشا الى معاقبة المرتشي بعقوبات رادعة ، ومنح العاملين في القضاء رواتب(٣٦) معلومة كبقية الموظفين ، بعد أن كانت رسوم الدعاوى مصدر رزقهم .

وبعد احداث المحاكم الجديدة وزع ابراهيم باشا الاختصاصات القضائية بين سلطات متعددة أهمها :

ـ قاض في كل مدينة مهمته(٣٧) البت في المنازعات التي تنشب بين الاهلين ، والنظر في القضايا الجزائية .

ـ محكمة مؤلفة من قاض(٣٨) وعضوين وكاتب لتسجيل محاضر جلساتها ، ومركزها مدينة دمشق ، سميت بالمحكمة العليا .

ـ قاض للقضاة كان بمثابة محكمة الاستئناف وله حق النظر في الدعاوى المستأنف عليها . وكان لابراهيم باشا حق الحكم بالاعدام بعد المحاكمة ، وتصديق حكم الاعدام الصادر عن كبار الحكام كشريف باشا والجنرال سيف ، واسماعيل بك وغيرهم من الذين منحوا حق اصدار الحكم بالموت .

كما كان لمجالس المدن حق النظر في قضايا الادارة البلدية المتعلقة بشكاوى المواطنين المقدمة اليها .

ومن الجدير بالذكر ان القضاء الشرعي استمر في تأدية مهامه كما كان في سابق عهده ، وخير ما يشير الى ذلك سجلات المحاكم الشرعية(٣٩) في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، فكان لكل محكمة كاتب ومحرر ومقيد ، بالاضافة الى القاضي الذي كان يصدر الاحكام القضائية .

وكان المتخاصمون على مال الاوقاف ، والاجار والاستئجار ، والبيع والشراء ، والدين يتقدمون بدعاويهم الى المحاكم الشرعية للبت فيها .

يتضح مما سبق ان صلاحيات القضاء ايام حكم محمد علي باشا كانت موزعة بين جهات عديدة لم تحدد صلاحياتها بشكل واضح ، فاختلطت مهامها مع بعضها ، وبالتالي كان من الصعب على المواطن العادي معرفة الجهات المسؤولة والمختصة لتقديم شكواه اليها.

المجالس المحلية وطبيعتها :

عني ابراهيم باشا بتنظيم مختلف مفاصل الجهاز الاداري في بلاد الشام ، بشكل يحقق رغبته في جعلها وحدة ادارية متماسكة ، تشكل بعدا استراتيجيا وسياسيا لمصر ، فأنشأ مجالس محلية سميت بمجالس المشورة ، تمثلت فيها الطوائف الدينية المختلفة ، لتكون مع غيرها من التشكيلات الادارية الاخرى اداة الحكم الفاعلة ، كما جرى في مصر .

وقد كان لاحتكاك الفرنسيين بالمصريين اثناء حملة نابليون بونابرت على مصر ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ م اثر واضح في مختلف اوجه وأنماط الحياة الادارية والسياسية لحكم الرجل الذي جاء ليشارك في طرد هذه الحملة من مصر . فالديوان الاستشاري(٤٠) الذي شكله نابليون بونابرت في مصر ، والذي ضم عددا من ممثلي الطوائف الدينية وبعض كبار المشاريخ والاعيان والتجار المصريين ، بقي ماثلا للعيان ، ومؤديا الى فكرة مفادها أن هذا التمثيل الشعبي مستحدث وجديد في تاريخ المنطقة ، حتى بولغ في وصف هذه الظاهرة لدرجة تجاهلت فيها وظيفة الدواوين في الدولة العثمانية كالديوان الكبير والديوان الصغير ، اللذين كانا يضمان ممثلين عن كبار التجار والاعيان ونقيب الاشراف ، وينظران في المسائل الهامة . ولما كان محمد علي داعية للاصلاح والتقدم والتحديث ، فلا بد له من ان يتخذ من ذلك المظهر الاوربي التمثيلي الذي جاء به بونابرت صورة مثلى ، لما سيقوم به من اصلاحات ادارية ، كبناء مؤسسات جديدة على النمط الاوربي .

وعلى نحو ماجرى في مصر ، سار ابراهيم باشا في بلاد الشام ، وأنشأت ادارته مجالس مشورة في المدن الكبرى ، مثلت فيها كل الطوائف الدينية ، فضم مجلس مدينة دمشق واحدا وعشرين عضوا وضم مجلس مدينة بيروت اثني عشر(٤١) عضوا مناصفة بين المسلمين والمسيحيين ، وكان ناظره مسلما .

كما كان لكل مجلس من هذه المجالس كاتب يحضر يوميا الى مقر(٤٢) المجلس قبل حضور الاعضاء ، ويقوم بتسجيل اسماء اعضاء المجلس ، حسب حضورهم بالتتالي ، ويرتب الاعمال اليومية التي ستعرض على المجلس في دوامه اليومي والتي تعد عملا يوميا يجب انجازه في ذات اليوم . واما في حال عدم تمكن المجلس من انجاز عمله اليومي هذا ، فعلى اعضائه الحضور الى مقر عملهم في اليوم التالي قبل ساعة الدوام

الصباحية ، لانهاء ما تبقى من عمل الامس قبل بداية الدوام الرسمي، ثم تسجل الاعمال المنجزة هذه في اليوم الذي انجزت فيه .

وكانت صلاحيات كاتب المجلس كبيرة ، لدرجة لا تظهر فيها اهمية ناظر المجلس الا عند التصديق على محضر الاجتماع ، فقد كان هذا الكاتب يطلب من الاعضاء الادلاء بأرائهم كل حسب خبرته ، ويضبط سير الاجتماع ، وينبه من ينشغل باحاديث جانبية مع الاخر ، معتبرا ذلك خروجا على المصلحة العامة ، ثم يقوم بتدوين اسم كل من ينشغل بمثل هذه الاحاديث وبتدوين اقوال الاعضاء دون زيادة او نقصان في مسودة المحضر .

وفي اليوم الثاني يعود الكاتب لتلاوة محضر الاجتماع بصوت عال ، ليتيح للاعضاء الفرصة اللازمة لتعديل ارائهم او توضيحها ، او اضافة شيء جديد عليها ، اذا لم تكن مكتوبة بالشكل الذي كان يقصده هذا العضو او ذاك ، ثم يقوم الكاتب بتبييض المحضر وتقديمه لناظر المجلس لتوقيعه ومهره بخاتم المجلس ، واحالته الى الحاكم او المتسلم من اجل تنفيذ مضمونه . وكانت خلاصة المذاكرة هذه تدون تحت اسم قرارات .

وكانت هذه المجالس بحاجة الى مراقبة دائمة للقيام بواجباتها على وجه أمثل، فقد لاحظ ابراهيم باشا تراكما في اعمال مجلس مدينة دمشق أهم مجالس المدن الشامية لسنة ونصف السنة ، فعالج هذا التقصير معالجة سريعة وأمر(٤٣) « بحبس اعضائه في قاعة المجلس الى ان يتموا رؤية الشؤون الموقوفة » ثم قام باعلام القاهرة بهذه الحالة السيئة التي آلت اليها مجالس المدن ، وطالب بتعيين مفتش يقوم بمراقبة اعمالها ، ويكون عملها تحت اشرافه .

واذا كانت هذه هي حال مجلس مدينة دمشق ، فكيف ستكون حال المجالس الاخرى في المدن الشامية المختلفة .

واذا كانت هذه المجالس المحلية تعبر عن بعض طموح الحكم في خلق مؤسسات جديدة ، وفق اسلوب عمل يوحي بانه يمثل نمطا تمثيليا جديدا مستوحى من الغرب، فان هذه المجالس كانت صورة عن مثيلتها في مصر ، كاحدى أدوات السلطة لفرض هيمنتها على المجتمع الشامي ، ولشد اعيان وكبار تجار المدن ضمن اطار تمثيلي طائفي ووضعهم داخل دائرة نفوذها ؛ وجعلهم احدى ادواتها لظلم الاهلين من خلال حل بعض مشاكلهم المتعلقة بالحكم ، وفق القاعدة السائدة انذاك(٤٤) « وبما ان الميري يلزم له المراعاة » والمتضمنة اخضاع مصالح السكان لمصالح الدولة ، وذلك بحكم ارتباط مصالح كبار الاعيان والتجار بمصالح الحكومة بشكل يتناقض مع مصالح القاعدة

الاجتماعية العريضة التي تقوم عليها الدولة ومؤسساتها . فالسكان الذين يعملون ويقدمون للدولة ماتشاء ،كانوا يظلمون مرتين ، الاولى من قبل أعيانهم وكبارتجارهم، والثانية من قبل الجهاز الاداري الذي يمثل ارادة الحكم ، فقد ذكر محمد علي كردعلي، على لسان شيخ معمر ادرك جيش ابراهيم باشا في الشام ، مسألة تعسف كبار الاعيان بحقوق الفلاحين فقال(٤٥) « ان سبب خروج الاملاك من ملك الفلاحين الى الافندية، ان كل ما كان يقع من دين ومظلمة وغيرها كان يلقى على (حجر الضيعة) أي على حساب الضيعة كلها ، فتجمعت هذه الديون على القرية حتى اضطر اهلها الى بيعها بأرخص الاثمان صفقة واحدة ، ومن الفلاحين من تشردوا في القرى او من ارتضوا بان يكونوا فلاحين عند ارباب الاملاك الجدد ، واوشكت دوما أكبر قرى الغوطة في القرن الماضي ان تغرقها الديون ، واراد اهلها ان ينزلوا لغريمهم عن نصفها ويبقى لهم النصف الاخر » .

ومن غير الممكن ان يقف الجهاز الاداري الى جانب هؤلاء الفلاحين، مادامت الدولة وموظفيها وكبار الاعيان يقفون في جهة متناقضة مع الفلاحين ومصالحهم .

في هذه الظروف يصبح اعضاء المجالس ، على ما يبدو ، مجرد اداة لتنظيم الظلم وتوسيع دائرته ، طالما انهم قد اصبحوا مجرد موظفين اداريين يحضرون الاجتماعات اليومية في الدوام الرسمي ، ويدلون بآرائهم وفق رغبات كاتب المجلس، ويخرجون بقرارات قد تستأنف أحيانا من قبل مدير المالية حنا البحري ، الذي اعترض على قرار مجلس حلب القاضي بشراء مادة الصابون لسنة كاملة لحساب الجيش بحجة ان سعر الصابون سينخفض عما كان عليه آنذاك ، عندما يحل موسم استخراج الزيت وصنع الصابون من جهة ، وبسبب تعرض الصابون للجفاف طلية عام كامل من جهة ثانية مما يلحق بالخزينة اضرارا كبيرة : « فكيف(٤٦) يصوغ الحكم وطبخ الصابون ومن كل بد ان اسعار الصابون تتنازل عن هذه الاسعار فاذا انشرى المقدار بتمامه الان يحصل مغدروية على جانب الميري بالاسعار وفي نشوفة الصابون أيضا » .

وفي وثائق الحكم الكثير من هذه الامثلة التي توضح طبيعة المجالس فقد جاء في مخطوطة نوفل في هذا الاتجاه مايلي(٤٧) « وكانت المذكرات التي تحصل بين الاعضاء تكتب في جريدة بالضبط تحت اسم المتكلم وفي رأس كل شهر ترسل تلك الجريدة الى الشام ليراجعها يوحنا بك البحري وينقحها واذا وجد فيها رأيا متقدما من احد الاعضاء مخلا بفائدة الميري اعترض عليه وضمن الخسارة لصاحب ذلك الرأي لكن لم يقع من ذلك الا ماندر للغاية اذ ان هذه القاعدة اوجبت الاعضاء بان يستوفوا للميري فوق حقوقها ولو اضر ذلك بالاهالي واجحف بحقوقهم » .

فالقول بان هذه المجالس كانت احدى ادوات الحكم المركزي الادارية، التي تختلف في شكلها عن ادوات الحكم العثماني السابق ،يبدو أقرب للواقع من وصفها بانها شكل من اشكال التمثيل الشعبي الذي جاء به محمد علي باشا ، فالظلم الاجتماعي الذي كان يطال السكان من كل الطوائف الدينية ، لم تخف حدته او تضيق دائرته بفعل ذلك التمثيل الذي ظهر في تلك المجالس ، كما ان التمثيل لم يبدل من طبيعة الحكم المركزية لعدة اسباب أهمها :

ـ وقوف هذه المجالس بشكل آلي الى جانب الدولة ، في القرارات المتخذة بصدد الدعاوى المقدمة اليها .

ـ وجود ممثلين عن الطوائف الدينية لا يعني تمثيل الطوائف نفسها ، لكون اعيان وكبار هذه الطوائف المتواجدين في المجالس لا يقلون ظلما للعامة ، من طائفتهم والطوائف الاخرى ، عن الدولة نفسها ، وذلك بسبب ارتباط مصالحهم مع الحكم العثماني من قبل ، ومع الادارة الجديدة من بعد .

وقد يشير الى ذلك وجود موظفين ماليين كبار في مؤسسات الحكم العثماني، فقد ذكر ميخائيل مشاقة (١٨٠٠ ـ ١٨٨٨م) هذا الامر قائلا «(٤٨) فقد كان أبناء السكروج الروم الارثوذكس ذوي النفوذ الكبير عند الجزار ووظيفتهم ادارة الخزينة والحسابات » كما ذكر أسماء اخرى لعبت دورا هاما في ادارة الجهاز المالي(٤٩) : «وكان كتاب الخزينة المعلم جرجس مسدية وابراهيم الصابونجي وكتاب التحريرات العربية المعلم حنا العورا وهو من المصابين بوحشية الجزار فكان مقطوع الانف وبمعيته أولاده ميخائيل وابراهيم وجميعهم من الماهرين بالخط والانشاء » . وكانت ادارة الخزينة في دمشق تشغل من قبل(٥٠) « بيت فارحي اليهود حينا ، وآل السكروج الارثوذكس ، ويوحنا البحري الكاثوليكي ، الرجل القوى في زمن الحكم المصري في في سوريا » . كما اصبح لبطرس ابراهيم كرامي(٥١) (١٧٧٤ ـ ١٨٥١) الحمصي الاصل منزلة كبيرة في بلاط الامير بشير الشهابي امير جبل لبنان ، وكذلك الامر بالنسبة لميخائيل مشاقة وميخائيل العورا في عكا ولقد عبر الشاعر الشامي المعروف أمين الجندي الحمصي الاصل(٥٢) (١٧٥٦ ـ ١٨٤٠ م) عن فرحة الناس بما ألم بآل فارحي على يد أحمد باشا الجزار والي صيدا ، في قصيدة شعرية نقتطف منها :

نشكو لعلياه ما قاست رعيته	من البلايا وعقد الصبر محلول
كم مرة مكروا بالابرياء وكم	خانوا وزيرا له بالعدل تجميل
وكم الى السجن قادوا غافلا فمضى	منكس الراس بالاصفاد مغلول
حيث الدفاتر عبرانية رقمت	خلاف السننا والسر مجهول
كم بالربا سحبوا ذيل الخراب على	أهل البلاد وكم قالوا لهم زولوا

وهذا ما يشير الى العلاقة التي كانت تربط هؤلاء بالحكم العثماني ثم بحكم محمد علي باشا في حين ظل المواطن العادي ، فلاحا أم حرفيا ، خارج دائرة اهتمام الحكم ، ايا كان انتماؤه الديني . ولقد افصح الفلاحون لمندوبي الحكومة المكلفين بجباية الضرائب عن كل ما كانوا يدفعونه ايام الحكم العثماني من ضرائب ومصادرات وهدايا(٥٢) « وأوهم الفلاحين ان قصد الحكومة من ذلك ابطال ما كان من تلك الاشياء ظلما فترفعه عنهم » لاعتقادهم بحسن نوايا الادارة الجديدة فعلا ورغبتها في تخليصهم من هذه الضرائب وندم الفلاحون غاية الندم على تقاريرهم اذ ما كان قد اخذه الملتزم مرة في العمر مثلا ترتب عليهم مالا سنويا .

علاقة المجالس بالمواطنين :

لابد لهذه المجالس ان تخضع لمصالح الحكم كما كان يتصورها كبار موظفيه . وتظهر علاقتها بالسكان من خلال الشكاوى المقدمة اليها ، ومن خلال طريقة معالجتها، بغض النظر عن سلبية النتيجة او ايجابيتها . اذ ان خروج هذه المجالس بقرارات تؤكد مصلحة الدولة وترجح مصلحة الخزينة على مصالح السكان يعد امرا طبيعيا يستجيب للخط السياسي ــ الاجتماعي الذي يمثله كبار التجار والاعيان في الحياة الاجتماعية للبلاد ، طالما كانت هذه المجالس تقتصر على كبار التجار والاعيان. بيد ان تقديم الشكوى بحد ذاته يحمل عدة دلالات هامة .

١ ــ قيام حكومة محمد علي بوضع يدها على كل ما كانت تراه مناسبا لخدمة مصالحها ، وكل ما كانت تحتاج اليه مما يمتلكه السكان من ملكية خاصة ، او عامة تعود للمجتمع(٥٤) « السيد محمد الحلبي قدم معروض يتضمن أن له دارين بمحلة جب أسد الله بحلب مأخوذين الى ركوبجية الاى ٢٢ جي » ، وهناك شكوى تشير الى أن الحكومة وضعت يدها على دار احد المواطنين لاستخدامها لمجلس حلب . كما ذكر نوفل نوفل في مخطوطته مايلي(٥٥) « أخذوا جملة جوامع ومدارس نزلوا بهم عساكر مثل الجامع الذي في الخياطين والمدرسة التي بلصق بيت عبد الله باشا والمدرسة التي قاطع حبس باب البريد والجامع الذي بالدرويشية وجامع المعلق » وفي حلب والمدن الاخرى كما في دمشق كانت تضع يدها على المنشآت الدينية والمدارس لتستخدمها كمخازن للتموين ومراكز للاقامة(٥٦) « وكثيرا ما تتعطل المساجد والمدارس لتجعل انابر لوضع الذخائر والمهمات » .

٢ ــ امكان تقديم الشكوى من قبل السكان يشير الى حالة متقدمة من الناحية الفكرية للمواطنين ، تعبر عن ادراكهم للظلم ، وقدرتهم على الاحتجاج عليه باشكال معينة .

٣ ـ مناقشة الشكوى بحد ذاتها ، تشير الى وصول صوت الشاكي الى بعض مؤسسات الدولة والى امكان النظر فيها . فهنالك الكثير من الشكاوى المقدمة الى المجالس المحلية تشير الى شعورهم بالظلم ، كشكوى اصحاب الحرف في ادلب التي تضمنت عدم قدرتهم على دفع ضريبة على اعمالهم الحرفية ، وضريبة اخرى هي ضريبة(٥٧) الشونة التي كانت تفرض على الغلات الزراعية ، لعدم وجود أراضي زراعية لديهم يقومون بزراعتها . كما اشتكى الحرفيون في حلب من ارتفاع(٥٨) سعر الصوف الذي كانت تحتكره الدولة وتبيعه لهم ، وطالبوا بتخفيض سعره بشكل يسمح لهم بالمحافظة على استمرارهم في عملهم ، فرفضت الادارة قبول هذه الشكوى لان قبولها يضر بمصلحة الخزينة . وعندما قلل الحرفيون من شرائهم للصوف من الدولة ، اصدر مجلس مدينة حلب قرارا الزمهم فيه شراء كل الصوف الموجود في مستودعات الحكومة .

طبيعة التنظيم الاداري :

اتبعت ادارة محمد علي باشا في بلاد الشام في سياستها الادارية مبدأ الاعتماد على الاقارب والمقربين لاشغال المناصب والوظائف الكبرى في الجهاز الاداري والعسكري. وعلى الرغم من بعض التغيير الذي طرأ على شكل التنظيم الاداري فقد بقي الجهاز الاداري في قاعدة الهرم الاداري دون تغييرات عميقة تذكر ، كما يشير قنصل النمسا في عكا في رسالة بعث بها الى قنصل دولته في الاسكندرية بتاريخ ٢٦ شباط ١٨٣٣ قائلا(٥٩) « فقد ابقت (الحكومة) تقريبا كل الموظفين القدماء في مناصبهم بدون تمييز بين الصالح وغيره . واتجاسر فأقول انها لم تحسن عملا في ذلك لان الجميع يتشكون من استبداد هؤلاء الموظفين وخاصة المدعو ميخائيل العورا الذي يشغل الان لدى الديوان افندي المنصب الذي كان له في عهد عبد الله باشا . لقد تعود ميخائيل المذكور ان يظلم البريء والفقير ليجلب المياه الى طاحونه ، ولم يعد يخاف ان يقص جنحاه كما كان يفعل عبد الله باشا من وقت الى آخر ليمنعه من أن يطير أعلى مما هو لازم . ان اخاه جبرائيل هو الكاتب الاول في صيدا وان له اخا آخر كاتبا أول في مقاطعة تبنين وملحقاتها . وان عديله حبيب نور كاتب يافا ، وان قريبا له يدعي قسطه سيرافيم يشغل وظيفة كاتب اول في اورشليم القدس فيمكنك ان تتصور سيدي مقدرة هذا الرجل على الشر بمعاونة أقاربه الكثيرين الموظفين في دوائر الحكومة . فلا يستطيع ان يقترب من الديوان انسان قبل ان يقدم رشوة ما للمذكور ، ولكل طلب فئة معلومة . وخلاصة القول ان مظالمه يومية ولا يجسر احد ان يشكوه لئلا يحل به عقاب صارم» .

وفي هذا الاطار نجد ان هناك تجانسا كبيرا يجمع بين قاعدة الهرم الاداري وقمته من حيث اتفاق القاعدة والقمة حول مبدأ ظلم السكان ، الذي عبر عنه أحد السكان

اللبنانيين بشكل طريف عندما قال(٦٠) « سوف لن نستطيع عما قليل ان نتكلم دون ان نجد واحدا يطلب منا دفع ضريبة على الكلمات التي تلفظنا بها » . لان القاعدة الادارية التي تتكون من موظفين يستحقون العقاب لاتختلف في طبيعتها كثيرا عن موظفي قمة الهرم الاداري التي تنظم ظلم الرعية ، جاعلة من جمع المال فضيلة كبرى .

وهكذا فقد ظلت سياسة ابراهيم باشا في هذا المضمار تسير وفق رغبات والده وتوجيهاته العامة سواء من حيث علاقة الادارة بالسكان ، أم من حيث طبيعة هذه الادارة ، وذلك بغية تمكين حكمها في مصر وبلاد الشام من البقاء والاستمرار .

* * *

حصل الباحث على شهادة الماجستير برسالته « بلاد الشام في ظل حكم محمد علي باشا ، ١٨٣٢ ــ ١٨٤٠ » باشراف الدكتور ذوقان قرقوط .

(١) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ، مطابع الف باء ـ الاديب ، دمشق ، ١٩٧٤ ، ص ٩٥.

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط ثانية ، تحقيق مصطفى محمد القاهرة ،١٩٦٠ـ ١٩٦٣ الجزء الخامس ، ص ١٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، وايضا : عبد الكريم رافق ، ص ٥٩ .

(٣) Lammens, Le P. Henri, **La Syrie, précis histiriques,** 2 tomes, Beyrout, Imp. Catholiqne, 1921, t. 2, p.60 .

(٤) فيليب حتي ، لبنان في التاريخ منذ اقدم العصور التاريخية الى عصرنا الحاضر ، ترجمة انيس فريحة ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ، ١٩٥٩ ، جـ١ ، ص ٤٤٠ـ٤٤١.

(٥) عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية في ولاية سورية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ص ٦٢ـ٦٣ .

(٦) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٦.

(٧) محمد جميل بيهم ، الحلقة المفقودة ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، اولى ١٩٥٠ ، ص ٥٠ وايضا : عبد العزيز عوض، ص ٩٣.

(٨) ميخائيل الدمشقي ، تاريخ حوادث الشام ، تحقيق غسان سبانو ، دمشق ، دار قتيبة ، ١٩٨١ ، ص ٨١ .

(٩) سليمان ابو عز الدين ، ابراهيم باشا في سورية ، المطبعة العلمية ليوسف صادر ، بيروت ، ١٩٢٩ ، ص ١٣٢ ـ١٣٣

(١٠) مجهول المؤلف ، حروب ابراهيم باشا المصري في سورية والاناضول ، المطبعة السورية ، مصر الجديدة ، تحقيق الخوري بولس قرالي ، ١٩٢٧، جـ٢ ، ص١٤ .

(١١) Perrier, **La Strie sous le gouvernement de Mehemet-Ali,** Paris, 1840, p. 52 - 53 .

(١٢) اسد رستم ، الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ،٥ اجزاء ، بيروت ، ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤ ، ج٢ ،ص ٥٠ .

(١٣) مجهول المؤلف ، حروب ابراهيم باشا .. المرجع السابق ، ج٢ ص ٢٣.

(١٤) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج٢ ، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(١٥) اسد رستم ، المرجع نفسه، جـ ٣ ، ص ٧٢ .

(١٦) اسد رستم ، المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

(١٧) سليمان ابو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ ، ويعتبر الجنرال سيف (سليمان باشا) مؤسس جيش محمد علي وفق النظم الاوربية ، وقد رافق ابراهيم باشا ، انظر : محمد فؤاد شكري واخرون ، بناء دولة مصر محمد علي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٢٤٦ وايضا اسد رستم ،الاصول العربية، جـ ٢ ، ص ١٢٣ .

(١٨) Perrier, op. cit., p. 53.

وايضا محمد كرد علي ، خطط الشام ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٢٥ ، جـ ٣ ص٧٥.

(١٩) اسد رستم ، بشير بين العزيز والسلطان ، جزءان ، الجامعة اللبنانية بيروت ، ١٩٥٦ ـ١٩٥٧، جـ ١ ص ١٠٣ .

(٢٠) عبد الكريم غرايبة ، سورية في القرن التاسع عشر ، جامعة الدول العربية ، دار الجيل للطباعة ، القاهرة ، ٩٦١ – ٩٦٢ ص ٧١–٧٢ . ومن الجدير بالذكر ان كل المصادر تعود بفصل حلب عن مديرية الشام الى عام ٨٣٨ ١، بينما يشير الدكتور عبد العزيز عوض الى ذلك في الصفحة ٦٤ من كتابة « الادارة العثمانية في ولاية سورية » مستندا الى المحفوظات الملكية للدكتور اسد رستم ، الجزء الثاني ، ص ٤٣٤ ،بيد ان ماجاء في هذه الصفحة لا يؤكد مثل هذا الامر حيث وردت العبارة التالية في الصفحة نفسها « الجناب العالي الى اسماعيل بك بوجوب حضوره الى الاسكندرية ليقوم منها الى حلب امتثالا لامر السرعسكر » حيث لاتؤكد هذه العبارة فصل حلب عن الشام وتعيين اسماعيل عاصم بك مديرا عليها .

(٢١) وهو الطبيب الفرنسي الذي ساهم في تاسيس الاصلاحات الطبية في مصر واشرف على تنظيم المدارس في بلاد الشام ، وقد ظل في خدمة ادارة محمد علي فيها حتى عام ١٨٤٠م . انظر محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص ٣٦٠ – ٣٦١ .

(٢٢) انظر اسد رستم ، الاصول العربية ج ٢ ، ص ١٥٠ – ١٥١ .

(٢٣) سليمان ابر عز الدين ، المرجع السابق ،ص ١٣٤ .

(٢٤) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ١ ص ٥٥ ، ج ٣ ، ص ٤٨، ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢٥) اسدر ستم ، المرجع السابق ،ج٣،ص١٢١ وممن اشتهروا بهذه الوظيفة المعلم حنا مباشر خزينة حلب والخواجة شكري مباشر خزينة عينتاب .

(٢٦) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ ، وايضا سليمان ابو عز الدين مذكور سابقا ، ص ١٣٥ .

(٢٧) وقد شغل هذا المنصب خلال احداثه ابان حكم محمد علي في بلاد الشام الامير محمود نامي احد اقارب محمد علي انظر اسد رستم ، الاصول العربية ، ج٣ ،ص٤٧ ، ٢٥٤ ، ج٤ ،ص١٤٥، ١٦١.

(٢٨) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ وايضا سليمان ابو عز الدين ، ص١٤١ .

(٢٩) المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ .

(٣٠) المرجع السابق، ج٣ ، ص ١٤٦، ١٥٢–١٥٣

(٣١) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٤١–٤٣ .

(٣٢) Perrier , OP. Cit ., P. 78.

(٣٤) نادر العطار ، تاريخ سورية في العصور الحديثة ، مطبعة الانشاء دمشق ، ١٩٦٢ ، ج ١ ،ص١٦٨.

(٣٥) اسد رستم ، المحفوظات الملكية ، بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير ٤ اجزاء ، بيروت ١٩٤٠ – ١٩٤٣ ، ج ٤،ص١٠١ .

(٣٥) د . اسد رستم ، المرجع السابق .

(٣٦) Perrier , OP. Cit., P. 64.

(٣٧) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٣٨) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٣٩) سجلات المحاكم الشرعية ، مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، دفتر رقم ٣٢٥،ص٥ ، ٩ ، ٩٨، ١٩٩ ، ١١٥ .

(٤٠) سليمان غنام ، قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية ، في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسورية ١٨١١ — ١٨٤٠ ، مطبعة دار تهامة جدة ، ط اولى ، ١٩٨٠ ، ص ١٣-١٤ ، وايضا ذوقان قرقوط، تطور الفكرة العربية في مصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٩٠ .

(٤١) وهم ، من المسلمين : عبد الفتاح حمادة ناظر المجلس ، عمر بيهم ، احمد العريس، حسن البريد امين رمضان ، احمدجلول، ومن المسيحيين : جبرائيل الحمصي ، بشارة نصر الله ، الياس منسّا ، ناصيف مطر ، يوسف عيروت ، موسى بطرس. انظر : مجهول المؤلف ، حروب ابراهيم باشا في سورية والاناضول ، ص ٣٧ .

(٤٢) سليمان ابو عز الدين ، ص ١٣٩ .

(٤٣) اسد رستم ، المحفوظات الملكية ، ج٣ ، ص ٤١٧ — ٤١٨ .

(٤٤) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج٣ ،ص١٠٩ ، محمد كرد علي ، غوطة دمشق ، مطبعة الترقي، دمشق ، ١٩٥٣ ،ص١٦ وايضا .

(٤٥) صفوح خير ، غوطة دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق ،١٩٦٦ ص٣٢٨.

(٤٦) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج٣ ، ص٢٠٢.

(٤٧) نقلا عن سليمان ابو عز الدين ، ص ١٤٣ .

(٤٨) ميخائيل مشاقة ، منتخبات من الجواب على اقتراح الاحباب ، تحقيق اسد رستم وصبحي ابو شقرا ، بيروت ، مطبوعات مديرية الاثار اللبنانية ، ١٩٥٥ ، ص١٤ .

(٤٩) المرجع نفسه ، ص ٢٣، ٣٣، ٣٩ .

(٥٠) المرجع نفسه ، ص٧٠.

(٥٢) طنوس الديان ، اخبار الاعيان في جبل لبنان ، جزءان ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت، ١٩٧٠، ص ٣٩٣ .
اقتنبتبتمنيقذي

(٥٢) عبد الكريم غرايبة ، ص ٤٧ .

(٥٣) نقلا عن سليمان ابو عز الدين ، ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٥٤) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج٣ ، ص ١٠٩ ، ١٨٦.

(٥٥) نقلا عن سليمان ابو عز الدين ، ص ١٦٢ .

(٥٦) المرجع نفسه ص ١٦٢ .

(٥٧) اسد رستم ، الاصول العربية ، ج ٣ ، ص ٣٣٩.

(٥٨) المرجع نفسه ، ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٥٩) الخوري بولس فرالي ،فتوحات ابراهيم باشاالمصري فيفلسطين ولبنان وسورية مطبعة القديس بولص ، لبنان ، حريصا ، ١٩٣٧ ، ص ٣٦-٣٧ .

(٦٠) هنري غيز ،بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن ، ترجمة مارون عبود ، منشورات وزارة التربية اللبنانية ، جزءان ، ط الاولى ، بيروت ، ١٩٥٠ ،ج٢ ، ١٦٢-١٦٣.